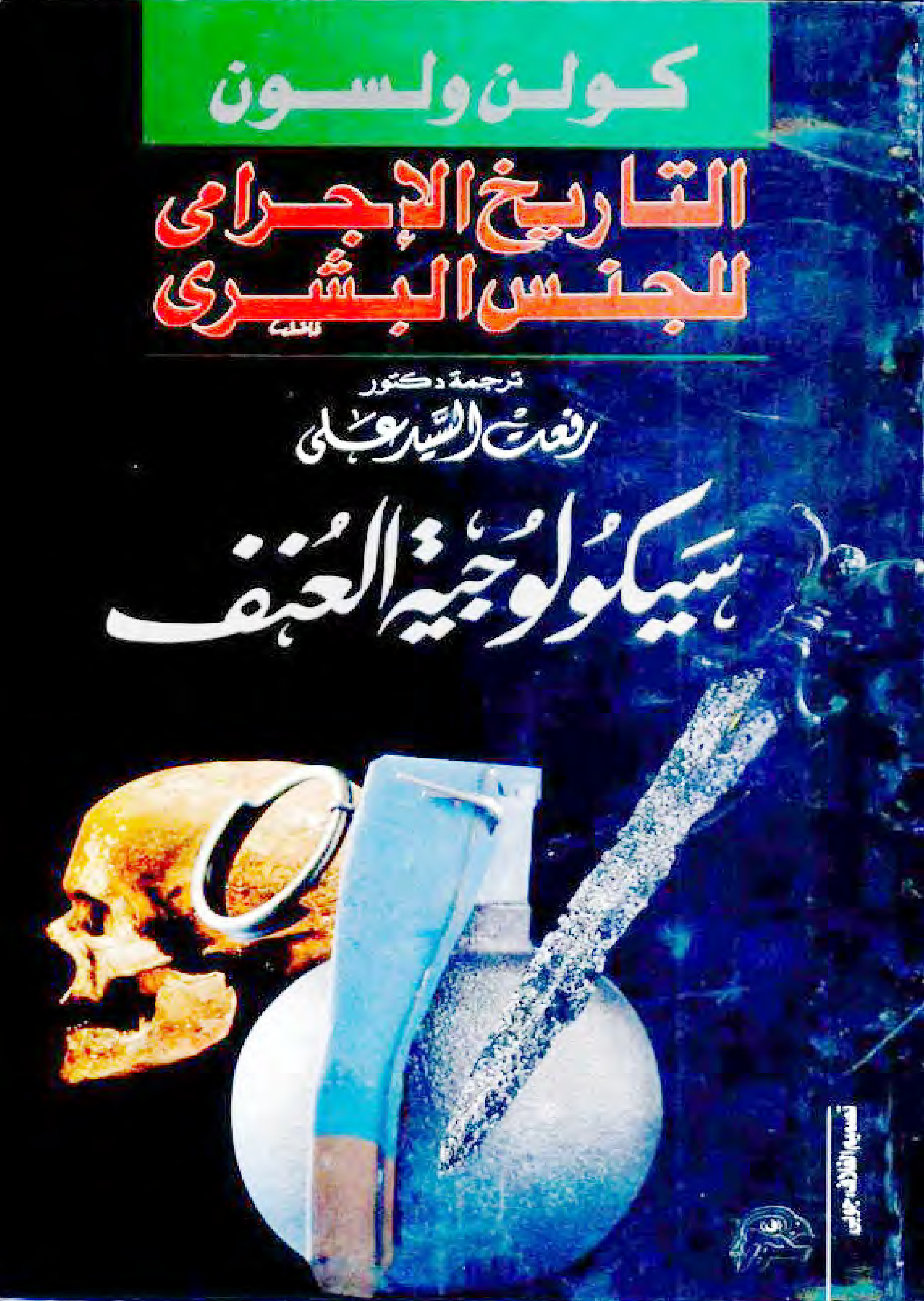

كولن ولسون
التاريخ الإجرامي
للجنس البشري
ترجمة دكتور
رفعت السيد علي
سيكولوجية العنف


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

كولن ولسون

التاريخ الإجرامى للجنس البشرى

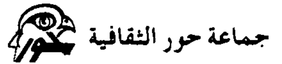
(١)

سيكولوچية العنف البشرى

ترجمة: د. رفعت السيد على



٢٠٠١

جماعة حور الثقافية 

القاهرة تليفون : ٢٥٠٠٠٥٥ / موبيل : ٠١٠٥١١٣٣١٥

الكاتب : كولن ولسون

الكتاب : التاريخ الإجرامي للجنس البشري ـ سيكولوچية العنف البشري

المترجم : د . رفعت السيد علي

الطبعة الأولى ٢٠٠١

رقم الإيداع : ١٦٢٣٩ / ٢٠٠١

الترقيم الدولي :

الجمع والتنفيذ : عصام عيسوى

سيكولوچية العنف البشرى

هذه ترجمة كاملة لكتاب:

CRIMINAL HISTORY OF MANKIND

BY: COLIN WILSON

GRANADA PUBLISHING

1984

أهداء المترجم

نيڤين

وريهام

ومحمد

أغلى من فى الوجود

د. رفعت السيد

مقدمة

كنت في الثانية عشرة من عمرى حين وقعت عيناى على حزمة من المجلات معقودة بحبل فى أحد المحلات التى تبيع الكتب القديمة ـ كانت الطبعة الأولى الأصلية لـ هـ. ج. ويلز «مجمل التاريخ» التى طبعت عام ١٩٢٠ . ولأن بعض الأجزاء كانت مفقودة فقد حصلت على الحزمة كلها مقابل بضعة شلنات ، الحقيقة أن ما شد انتباهى مجموعة رائعة من الصور الملونة لديناصورات على شواطئ بحار وبحيرات تنتمى لعصور سحيقة ؛ مع صور لإنسان نياندرتال الأقرب فى تكوينه للقردة وكأنها تزوم على مداخل الكهوف ، وصور للتماثيل العملاقة لرمسيس الثانى منحوتة فى صخور الجبل على واجهة معبده بأبى سمبل .

بعثت تلك الصور فى نفسى إحساساً عميقاً جارفاً بالتاريخ يفوق تأثير نص ويلز ذاته. وإلى اليوم يجتاحنى ذلك الإحساس الساحر وذلك التشوق الذى يمتلك الأطفال حين يبدأ أحد الكبار فى الحكى مستهلاً حكايته بالعبارة المشهورة: «كان يا ما كان...»

فى عام ١٩٤٦، أعادت دار بنجوين للنشر طبع عشرة مجلدات من أعمال ويلز احتفالاً بالذكرى الثمانين لميلاده، وكان ضمن تلك المجلدات طبعة مختزلة لـ«مجمل التاريخ»، و«التاريخ الموجز للعالم». اكتشفت أن بتلك الطبعة نصاً ختامياً غريباً ومدهشاً تحت عنوان «العقل البشرى عند منتهى حدوده». كان النص مرعباً وغير مفهوم تماماً حتى إننى أخذت فى شد شعرى دون أن أشعر «فمنذ عام ١٩٤٠ وقعت سلسلة من الأحداث العالمية العظمى كان من شأنها أن تدفع بأى مفكر أو ملاحظ ذكى للتأكد من أن البشر قد وصلوا إلى نهاية المطاف، وأن ذلك الكائن المنتصب القامة والذى كان يتيه فخراً بتلك الصفة قد وصل بتلك الأحداث إلى نهايته وأنه قد استنفد ذاته». لم تتضح تلك الرؤية عند بداية الحرب العالمية الثانية ـ ويمكن تفهم ذلك ـ إلا بعد هزيمة هتلر. حين قرأت الطبعة الأولى لموجز التاريخ اكتشفت أن النص مثله مثل مجمل التاريخ ينتهى بملحوظة متفائلة قال فيها: «كل منجزات الإنسان وانتصاراته التى حققها وطبيعته الحالية التى وصل إليها عبر كل ذلك التاريخ المدرك ليس إلا استهلالاً ومقدمة لما سينجزه فى مستقبله القادم». كما يختم ويلز «مجمل التاريخ» بفصل يتنبأ فيه أن البشر سيتوصلون إلى السلام عبر منظمة «عصبة الأمم» التى تأسست بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، والتى كانت بمثابة مقدمة لتكوين حكومة عالمية. (كان ويلز أول من صاغ مصطلح حرب لإنهاء حرب).

ما الذى حدث؟ ظل ذلك السؤال يؤرقنى، وبعدها بعدة أعوام طرحته على صديق لـهـ. ج. ويلز، وهو المؤرخ التوراتى «هوف سكونفيلد»، وكان رأيه أن ويلز كان قد وصل إلى يقين تام أن لديه حلولاً لكل مشاكل الجنس البشرى. ثم شعر بمرارة شديدة حين لم يجد من يهتم بذلك أو يأخذه على محمل الجد. وبدا تفسيره لموقف ويلز مقبولاً فى ذلك الوقت. إلا أننى توصلت بعد ذلك إلى

التفسير الحقيقى الأكثر إقناعاً. ففى عام ١٩٣٦ كان ويلز قد انتهى من كتابة قصة مثيرة أسماها «لاعب الكروكيه» كانت تختلف بشكل مذهل عن كل أعماله السابقة. اتضح من ذلك العمل أن ويلز قد وصل إلى درجة متقدمة من الوعى والإدراك لقدرة الإنسان الكامنة على القسوة المحضة المجردة، وأن لدى البشر قدراً كبيراً من السادية والتلذذ بتعذيب الآخرين.

أما فى عمله السابق «مجمل التاريخ» فقد أغفل ذكر المذابح الجماعية والتعذيب والقهر؛ بل أنه فى حقيقة الأمر لم يشر إليها بأية إشارة. كان ويلز فى ذلك الوقت خلواً تماماً من إدراك كم الشر البشرى وهو كم الشر الذى دفع أرنولد توينبى فى عمله المعروف «دراسة للتاريخ» أن يتحدث عن «الشكل المرعب للخطيئة الذى يبدو من خلال العلاقات البشرية». اتسمت وجهة نظر ويلز عن الجريمة بنزعة براجماتية واضحة (تتوسل بالذرائع والدوافع والتبريرات)، ففى عمله المعروف «العمل والثروة وسعادة البشر» تناول الجريمة وكأنها جانب وافد دخيل على التركيبة البشرية، وأن الجريمة ناتجة عن الإحباطات والقيود المفروضة على الفرد الطبيعى من المجتمع والقانون حتى يتمكن المجتمع ككل من الاستمرار والوجود.

ومن الواضح أنه لم يكن على دراية أو وعى بأن تاريخ البشر المسجل من عام ٢٥٠٠ ق. م يحتوى على قدر متواصل من العنف والقتل وإراقة الدماء. ثم أجبرته الوحشية البشعة للنازى الألمانى على النظر إلى تلك الحقيقة بجدية أكبر. ويبدو أن الرعب والفزع اللذين صاحبا مأساة هيروشيما وناجازاكى، وما كشفا عنه مما كان يحدث فى معسكرات اعتقال «بلسن»، و«بوخنفالد»، قد أقنعاه أن البشر كانوا أميل وأقرب إلى تدمير ذواتهم منذ بدايتهم على الأرض، وأن «نهاية الجنس البشرى حتمية ووشيكة».

بالطبع لا أدعى أن وجهة نظر «ويلز» عن التاريخ البشرى سطحية فى مجملها أو خطأ، بل إنه يمكن تفهمها بشكل جيد ووضعها فى الاعتبار، لقد كان «ويلز» مثل من تأثروا بالعصر الفيكتورى المتأخر الذين رأوا من خلال ذلك العصر أن التاريخ البشرى ليس إلا تاريخاً عظيماً من الاختراع والإنجاز، وأنه لم يكن إلا معركة طويلة ومتصلة ضد المخاطر الناجمة عن الحضارة الحديثة.

من المؤكد أن قدرة الإنسان الخلاقة المبدعة هى الحقيقة المركزية الوحيدة فى نظر «ويلز». أما ما عجز ويلز عن إدراكه فهو أن ذكاء البشر نتج عنه بعض الجنوح وعدم التوازن، كما نتجت عنه مخاوف ضيقة دفعته إلى حسابات مستمرة وقسوة متحجرة بلا رحمة. تلك القسوة التى تدفع البشر إلى انتهاج الطرق المختصرة لتحقيق الرغبات ـ أى إلى ارتكاب الجريمة.

لم يكن دافع القتل الجماعى الذى ارتكبه هتلر تلك القيود المفروضة على الإنسان الطبيعى اللازمة لاستمرار المجتمع ككل والتى قد تدفع الفرد إلى التمرد. على العكس من ذلك كان الدافع نتاج نوع مشوه من الأفكار المثالية دفعته إلى محاولة خلق «عالم أفضل». وهو الدافع نفسه الذى أدى إلى تدمير «هيروشيما» و«ناجازاكى» بالقنابل النووية، وهو الدافع ذاته الكامن خلف تدبير التفجيرات الإرهابية وإطلاق النار العشوائى على جموع البشر والذى أصبح ظاهرة متواصلة منذ عام ١٩٦٠. وهو الدافع المفزع ذاته فيما يخص منظمة الألوية الحمراء اليابانية التى أمطرت مسافرين مدنيين برصاص المدافع الرشاشة فى مطار «لود» اليابانى، وإرهابيى إيطاليا الذين اقتحموا قاعة محاضرات فى الجامعة وأطلقوا الرصاص على ساقى المحاضر مدعين أنه يبث فى الطلاب «قيماً برجوازية» وأنهم جميعاً ليسوا من المجرمين المهووسين، بل مثاليين متحمسين. حين ندرك ذلك نجد أن الإجرام ليس شذوذاً يتسم بالطيش والتهور أو نزعة لانتهاك القانون، بقدر ما هو نتيجة حتمية لتطور ونمو الذكاء البشرى. أو الوجه الآخر ـ كرد فعل عنيف ـ لنمو قدرتنا على الخلق والإبداع.

إن أسوأ أنواع الجرائم لا يرتكبها الحمقى والأغبياء، بل يرتكبها المتحضرون الأذكياء باتخاذهم قرارات يوفرون لها المبررات والدوافع الكافية.

كان ذلك الإدراك لطبيعة الإجرام هو ما دفع «ويلز» فى آخر مراحل حياته إلى الميل إلى النهلستية (العدمية)(*). لقد قضى أغلب عمره مؤمناً وداعياً إلى

(*) النهلستية أو العدمية اتجاه فكرى يرى أن القيم والأخلاق والمعتقدات التقليدية لا أساس لها من الصحة، وأن الوجود لا معنى له، ولا قيمة. وأن الأحوال فى المجتمع البشرى سيئة وفاسدة لدرجة أن الهدم يصبح مرغوبا فيه لذاته (المترجم).

أن الجنس البشرى من الممكن هدايته بالإقناع وبالذكاء؛ وأعلن أن الحرب العالمية الأولى قد نشبت لتنهى حرباً، وأن عصبة الأمم التى تكونت بعد الحرب والحكومة العالمية ستضمن استتباب الأمن والسلام. فى تلك المرحلة، سادت العالم حالة غير مسبوقة من الانغماس فى القتل والعنف والقسوة والوحشية: مجاعات يفرضها «ستالين» فى الاتحاد السوفييتى على «الكولاك» وهم ملاك الأرض قبل الثورة البلشفية، ووحشية الجيش اليابانى فى مدينة نانكنج بعد احتلالها، ومعسكرات الاعتقال الجماعى التى أقامها هتلر، والقنبلة الذرية... بدا لويلز أنه قضى عمره بأجمعه فى أوهام، وأن الجنس البشرى غبى وشرير بطريقة راسخة لا يجدى معها أى تقويم أو إصلاح.

لو كانت مدارك «ويلز» قد أحاطت بشكل أكبر بسيكولوجية العنف البشرى، لم يكن إدراكه لوجود الجانب المدمر فى الجنس البشرى يدفع به إلى اليأس التام.

إن الدافع الإجرامى ليس شذوذاً أو جنوحاً لفعل الشر أكثر من فعل الخير بقدر ما هو مركب طفولى وميل طفولى يدفع إلى الاستسهال والاختصار، كل جريمة تنطوى على - أو ذات - طبيعة تتسم بالتدمير والانتزاع واغتصاب شىء والاستيلاء عليه بغير استحقاق بالقوة أو بالإغارة أو العنف؛ هى نزعة للحصول على شىء مقابل لا شىء. اللص يسرق ما يريده بدلاً من العمل والكد للحصول عليه، والمغتصب يغتصب الأنثى بدلاً من إغوائها لتعطيه نفسها طواعية واختياراً. ذكر «فرويد» فى أعماله أن الطفل من الممكن أن يدمر العالم لو أتيحت له القوة الكافية لذلك. كان «فرويد» يعنى بذلك أن الطفل ذاتى تماماً، مغلف بمشاعره الخاصة الذاتية وبذلك لا يرى ولا يتفهم أى وجهة نظر أخرى. والمجرم ليس إلا شخصاً بالغاً يحيا ويسلك فى حياته سلوك الأطفال.

بالطبع هناك مغالطة فى تلك الدوافع الطفولية للمجرم والتى تدفعه إلى انتزاع ما يريده. فالشخص الذى يحصر حالته الذهنية ومشاعره فيما يريد لا يشعر أبداً بالسعادة إلا للحظات قصيرة ويظل أغلب وقته تعيساً. فاللحظات

الوامضة من السعادة الحقة فى حياتنا ومضات موضوعية، نشعرها فقط حين نرتفع فوق ـ أو نخمد ـ تلك الرؤية للعالم الحلم والمكونة من رغبات ومشاعر ذاتية بحتة. أعتى طغاة التاريخ، أولئك الرجال الذين انغمسوا تماماً فى مشاعرهم الذاتية بلا أى اعتبار للآخرين، انتهوا جميعاً نصف مجاذيب؛ وكان أكثرهم انغماساً فى ذاتيته هو أعتاهم ظلماً وقهراً وفساداً.

الجريمة تتجدد مع كل جيل لأن البشر ليسوا إلا أطفالاً، قلة قليلة من البشر هى التى تنجز وهى القلة الناضجة. وهى تنجز ليس تخليداً للذات كما يجدر بالقدرة الخلاقة المبدعة. فشكسبير تعلم من مارلو، ولكنه بدوره كان ملهماً لجوته، وبيتهوفن تعلم من هايدن ولكن أعماله كانت مصدر إلهام لڤاجنر. ونيوتن تعلم من كبلر ولكنه كان مصدر إلهام لأينشتاين.

ولكن عتاة المجرمين مثل فالد المخوزق، وچاك السفاح، وآل كابونى. لم يتركوا أثرا يعتد به. فـ«إنجازاتهم» كانت سلبية وماتت بموتهم. إن المجرم يميل أيضا لأن يصبح ضحية للانتقاء الطبيعى. وذلك بنقص قدرته على السيطرة على ذاته. لقد أنجز الإنسان حضارته الحالية لأن الخلق والإبداع مثل «كرة الجليد» التى تتضخم مع انحدارها من قمة الجبل بينما تظل الجريمة لحس الحظ فى حالة إستاتيكية جامدة.

قد يبدو أن «ويلز» كان مؤرخاً ساذجا حين اعتقد أن الحروب بين البشر على وشك أن تصل إلى نهاية، إلا أننا يمكن أن نفسر ذلك على ضوء عدم درايته بالعلم الذى نطلق عليه الآن اسم علم الاجتماع الحيوى «سوسيوبيولوجى». فحين لفت كل من «تنبرچن» و«لورينز» الأنظار إلى أن العدوانية الحيوانية تعود إلى حد كبير إلى مسألة الانتماء لمكان والإحساس بامتلاكه، اتضح فجأة أن كل الحروب عبر التاريخ كانت تدور حول امتلاك المكان. حتى السلوك الدموى والإجرامى للطغاة كان له ما يوازيه ويقابله فى عالم الحيوان. أظهرت الدراسات الحديثة أن عديداً من الذكور المهيمنة بدءاً من الأسود وقرود البابون مرورا بفصائل الجرذان والقوارض يقتلون صغار أعدائهم المهزومين. كذلك تترك الدجاجات صغارها تنقر صغار الطيور الأخرى حتى الموت، كما تقتل طيور

النورس صغار طيور النورس الأخرى حين تدخل منطقتها التى بها عشها ومنطقة نفوذها. ويبدو أن البرنس «كروبوتكين» كان على خطأ حين اعتقد أن كل الكائنات تتبادل التعاون والمنفعة وأن الجنس البشرى وحده هو الذى يقتل بعضه بعضاً. لقد علمنا عالم الحيوان أن الجريمة ليست إلا جانباً من ميراثنا الحيواني، وأن التاريخ البشرى من الممكن تناوله والنظر إليه كمرجع مصور لعلم الاجتماع الحيوى.

هل تدفعنا تلك الرؤية الجديدة للتاريخ إلى الاعتقاد بأن الجنس البشرى قد يساق إلى دماره بعنفه النابع منه؟

لا يمكن لأحد بالطبع أن ينكر هذا الاحتمال؛ إلا أن المتشائمين يتجاهلون المكون الآخر بداخلنا والذى فهمه «ويلز» وأدركه بشكل جيد وهو قدرة البشر على التطور عن طريق ذكائهم.

الحقيقة الثابتة أن التاريخ البشرى كان بشكل رئيسى تاريخاً من الإجرام، إلا أنه كان مليئاً أيضاً بالإبداع. ومن الثابت فى الوقت نفسه أن الجنس البشرى من الممكن أن يفنى عبر حادثة نووية، إلا أن من درس التاريخ بشكل جيد يؤمن أن ذلك الاحتمال ضعيف، وفهم طبيعة الإجرام يتضمن أيضاً فهم لماذا ترجح كفة الإبداع والذكاء؟

هذا الكتاب ليس إلا محاولة لفهم قصة الجنس البشرى على ضوء التناقض بين الجريمة والإبداع، ثم استخدام النتائج التى يمكن التوصل إليها للتنبؤ بالمراحل القادمة من تطور الجنس البشرى.

نماذج خفية من العنف

تراكمت مراجع هذه الدراسة خلال صيف ١٩٥٩ . وتضمنت كتباً عن العنف الإجرامي ونسخا كثيرة من مجلة «التحرى الدقيق» كان الهدف جمع وتصنيف مادة «موسوعة القتل» التى أزمعت إصدارها لتفيد كاتبى قصص الجريمة. إلا أنه كان هناك دافع احر يدفعنى بإلحاح إلى الاعتقاد بأن تحت تلك الأكوام من الوقائع غير المترابطة عن العنف والإجرام قواعد أساسية تحكم هذا العنف البشرى وتربط بين أنماطه، وأن هناك نماذج من الإجرام لم تكتشف بعد، وأن الكشف عن القواعد الرابطة والنماذج المستترة لابد أن يزودنا بمفاتيح تعيننا على تفهم طبيعة المعدل المتزايد للجريمة.

لاحظت، على سبيل المثال، أن دوافع القتل تختلف من دولة إلى دولة، فالفرنسيون والإيطاليون يقتلون لأسباب عاطفية، والألمان يقتلون بدوافع سادية، والإنجليز يقتلون بعد وضع خطة دقيقة ينفذونها بعناية فائقة ـ غالباً الضحية شريك عمر أو حبيب ـ والأمريكيون لأسباب عادية وليدة اللحظة. وتختلف أنواع الجريمة أيضاً عبر الزمن من قرن إلى قرن، بل من عقد إلى عقد. ففي إنجلترا وأمريكا كان نمط الجريمة ودوافعها يدوران في الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين حول المال والجنس. في إنجلترا كان هناك «نيڤيل هيث» السادى، و«هيج» السفاح الذى كان يذيب أجساد ضحاياه بعد قتلهم في حوض استحمام ملىء بحامض مركز، وفي أمريكا كان هناك نموذج قاطع الطريق «كاريل تشيسمان» المشهور باسم الضوء الأحمر، والسفاح الجنسي «هارڤى جلاتمان». وحين كنت أتصفح أعداد مجلة «التحرى الدقيق» أدركت أن هناك أنواعاً جديدة من الجريمة قد بدأت في الظهور، وهي القتل بلا دافع.

في عام ١٩١٢ صاغ «أندريه جيد» مصطلحاً جديداً في إحدى رواياته وهو مصطلح «الفعل المجانى» لوصف ذلك النوع من القتل الذى يقع بلا أى دافع لدى القاتل؛ بطل روايته التى أطلق عليها اسم «كهوف الفاتيكان» (ترجمت إلى الإنجليزية باسم مغامرة لافكاديو) استحوذت عليه فجأة فكرة قتل شخص غريب لم يكن يعرفه من قبل، وكان في تلك اللحظة يستقل قطاراً ما، وتساءل «من الذى يمكنه التوصل إلى معرفة القاتل؟ جريمة بلا أى دافع ستكون محيرة ومربكة تماماً لرجال الشرطة والتحريات، وعلى ذلك فتح إحدى كبائن القطار بطريقة عشوائية وجد رجلاً بداخلها فحمله عنوة وألقى به من النافذة فلقى حتفه على الفور. كانت رواية «جيد» من نوع الملهاة السوداء؛ وقدمها على ذلك النمط الذى أبرزه «أوسكار وايلد» في أحد مقالاته عن أحد المزورين، قام بقتل شقيقة زوجته لأن كاحليها غليظان لم يروقا له.

لم يكن الفلاسفة والمفكرون ولا رجال الشرطة أنفسهم يأخذون على محمل الجد إمكانية وقوع جرائم من ذلك النوع. إلا أنه بحلول عام ١٩٥٩ بدأ

ذلك النوع من القتل يظهر إلى الوجود : ففي عام ١٩٥٢ جلس عامل يدعى «هيربرت ميلز» بالمصادفة في قاعة سينما بجوار ربة منزل في مدينة «نوتنجهام»، كانت السيدة في الثامنة والأربعين من عمرها، تبادر فجأة إلى ذهنه أنها ضحية ملائمة تماماً لارتكاب «جريمة كاملة»، تودد إليها وتواعدا على اللقاء في اليوم التالي، وحين التقيا اصطحبها في نزهة على الأقدام، ثم خنقها تحت إحدى الأشجار في منطقة خالية. وبسبب تفاخره بين معارفه وأصدقائه بذكائه في ارتكاب جريمة قتل كاملة ألقى القبض عليه واعترف بجريمته وحكم عليه بالإعدام.

في يوليو عام ١٩٥٨، أوقف رجل يدعى «نورمان فوز» سيارته الچيب في مدينة كوبا بولاية نيومكسيكو، ترجل من سيارته وتناول بندقية الصيد وصوبها بإحكام وأطلق النار مرتين وقتل غلامين مكسيكيين؛ طاردته الشرطة وألقت القبض عليه، وعند محاكمته دافع عن نفسه قائلاً إنه إنما كان يحاول المعاونة في الحد من مشكلة تزايد السكان.

في فبراير عام ١٩٥٩، قبلت امرأة شقراء جميلة تدعى «بني چوركلاند» عرضاً من رجل متزوج من كاليفورنيا أن يقوم بتوصيلها بسيارته. وبدون أي سبب أو إزعاج من جانب الرجل، أخرجت مسدسا كان معها وأطلقت عليه إثنتى عشرة رصاصة داخل السيارة. بعد القبض عليها صرحت بأنها كانت تجرب إن كان بإمكانها أن تقتل أحداً «دون أن تشعر بتأنيب ضمير». ووجد الأطباء النفسيون أنها عاقلة تماماً وتعي ما تفعل. وفي أبريل عام ١٩٥٩ أطلق رجل يدعى «نورمان سميث» الرصاص على امرأة (كانت تجلس داخل منزلها تشاهد التليفزيون) من نافذة المنزل المفتوحة، لم يكن يعرفها، فقط أحس برغبة قوية تعتريه أن يفعل ذلك بعد أن شاهد برنامجاً في التليفزيون اسمه «القناص».

صدرت «موسوعة القتل» التي جمعت مادتها عام ١٩٦١، وتضمنت قسما كاملاً عن «القتل بلا دافع»، وبحلول عام ١٩٧٠ اتضح أن هذا النمط من جرائم القتل في تزايد مستمر. في حالات كثيرة للغرابة الشديدة، بدا أن تلك

الجرائم يقوم بارتكابها أفراد يزيد معدل ذكائهم عن معدل الذكاء العادى. شاعر يدعى «هيربرت ميلز» كتب قصيدة راح يتلو أبياتها على جسد ضحيته. سفاح «المستنقعات» إيان برادى دافع عن نفسه بإعادة تسميع مقاطع كاملة من كتب «دى ساد»، وبذل جهداً كبيراً أثناء المحاكمة ـ باستخدام جمل مطولة ـ ليظهر لهيئة المحكمة أنه «ذكى وصاحب فكر». كما عرض «تشارلز مانسون» قاتل الممثلة المشهورة «شارون تيت» وضيوفها نظرية عنصرية اجتماعية محكمة لتبرير جرائم عائلته بأسرها. كذلك فعل قاتل سان فرانسيسكو الذى اشتهر برمز دائرة البروج الفلكية، «چون فريزر» أحد العاطلين الذى قتل جراح عيون شهير وأسرته، والقاتل «ڤيكتور أوتا» الذى كان يترك رسائل يوقعها برسم أحد علامات أوراق اللعب.

فى نوفمبر ١٩٦٦ دخل «روبرت سميث» وهو طالب فى الثامنة عشر من عمره أحد محلات تجميل النساء فى مدينة «ميسا» بولاية أريزونا وأجبر خمس نساء وطفلتين على الاستلقاء بجوار الحائط وأطلق النار على رءوسهم من الخلف. لم يكن «سميث» من المراهقين المشاغبين وكانت علاقته بأبويه علاقة سوية وكان مصنفاً من الطلاب الممتازين فى الدراسة، بعد القبض عليه قال لرجال الشرطة: «أريد أن أصبح مشهوراً وأن اكتسب لنفسى اسماً معروفاً للجميع».

امرأة أخرى دخلت أحد الفنادق وتوجهت إلى غرفة يقيم بها لاعب «بيسبول» مشهور قتلته وهو نائم ولم تكن تعرفه معرفة شخصية وفسرت للشرطة ما فعلته قائلة: «لقد كان مشهوراً وكنت أعرف أن قتله سيجعلنى مشهورة أيضاً».

عبارات مثل العبارة السابقة تبدو مفتاحاً لتلك الألغاز، هناك رغبة أساسية جوهرية لدى كل البشر ـ حتى لدى أكثرهم تواضعاً ـ أن يصبحوا معروفين ومشهورين.

يذكر «مونتان» أنه رجل عادى، إلا أنه يشعر فى قرارة نفسه وبيقين شديد أن أفكاره تستحق الاهتمام والانتباه، وهل هناك من لا يشعر بمثل هذا الشعور؟

فى الحقيقة لا يوجد إنسان فى هذا العالم لا يشعر فى قرارة نفسه أنه شخصية تستحق أن يؤرخ لها وأن تنشر قصة حياتها لتحظى بما يليق بها من اهتمام الآخرين.

فى كتاب يحمل عنوان «إنكار الموت» يقرر «إرنست بيكر» أن أهم دافع من دوافع البشر الرئيسية دافع البطولة. يقول عن ذلك «كلنا منغمسين فى ذواتنا بطريقة مفزعة». فى الأطفال يمكننا أن نلاحظ الإحساس الشديد بالذات فى أجلى صوره الفجة المباشرة والواضحة بلا خفاء فالطفل يصيح طالباً ما يرغبه بأعلى ما يمكنه من صوت، إنه لا يخفى شعوره بأنه أهم ما فى الوجود ومركزه ومحوره، وهو يحتج بحماس وحمية إذا حصل شقيقه على قطعة أكبر من الكعكة. «هو بكل الوسائل يعد نفسه شيئاً ذا قيمة جوهرية فى هذا الوجود؛ يجب أن يحظى باهتمام الجميع، أن يكون بطلاً، أن يقدم للبشرية إنجازاً لم يقدمه غيره، وأن ينظر إليه الجميع ككائن فريد»، لذلك يغرق بلا نهاية فى أحلام يقظة تدور حول البطولة.

ثم يكبر الصبى ويمر بمرحلة الشباب وتفرض عليه الحياة أن يكون واقعيا. ويتم ذلك بمقياس العالم الواقعى، ويبدأ يدرك أنه لا شىء.. وظاهريا يبدو أنه قد أدرك الواقع، إلا أن أعماقه تظل زاخرة بمشاعر التميز والتفرد. يذكر «بيكر» عن ذلك الجانب أنه لو أفصح كل فرد بأمانة برغبته ومشاعره فى أن يكون بطلاً، وطلب من المجتمع ما يشبع ذلك الإحساس، فإن متطلباته ستهز وتصدم المجتمع حتى أعماقه. لا يتحقق الإشباع لذلك الإحساس إلا فى بعض المجتمعات البدائية القليلة التى مازالت باقية فهى التى تعطى أفرادها ذلك الإحساس بالقيمة والتفرد وأنه معروف لكل أفراد مجتمعه البدائى. «إن الأقليات في المجتمع الصناعى المعاصر والتى تخرج فى تظاهرات هاتفة من أجل الحرية والكرامة الإنسانية إنما تسعى في حقيقة الأمر، ولكن بطريقة خرقاء أن تشبع بعض الإحساس بالبطولة...»

وما ذكره «بيكر» يضىء بشكل ما بعض الرؤية اللماحة والبصيرة على أنواع تلك الظواهر، بدءاً من الاضطرابات العمالية وانتهاءً بالإرهاب

السياسى. فكلها تعبير عن ذلك الاحتياج نصف المدفون لدى كل فرد أن يكون شيئاً ما يشعر بوجوده الآخرون، كما يعبر عن تمرد وثورة ضد مجتمع ينكر ذلك الفرد ولا يحس بوجوده.

حين قرر «هربرت ميلز» أن يرتكب «جريمة كاملة»، كان يحاول أن يقنع ذاته ويثبت لنفسه أن لديه من الإمكانات الذاتية المتفردة ما يبرر ذلك الإحساس الداخلى بالتميز. وهو ما يدفعنا أن ننظر بتعمق إلى ما وراء الأسباب والدوافع المعلنة فى كل جريمة ـ مثل الظلم الاجتماعى وغيره من الأسباب ـ.

هناك قدر كبير من سوء الحظ والعبثية يحيط تبريرات «تشارلز مانسون» لجريمة القتل الجماعي التى ارتكبها في منزل الممثلة «شارون تيت»، بدا من مجمل أقواله وكأنه يدعي أنه ليس مذنباً ولا مسئولاً عن مقتل ثمانية أفراد لأن المجتمع نفسه كان مذنباً بشكل أكثر سوءاً وأن المجتمع كان مسئولاً عن أفعال شائنة أكثر مما ارتكب هو. ويظهر الفحص الدقيق للأدلة والبراهين وما أحاط بجريمة «مانسون» أنه كان تحت سيطرة شعور قوى وعميق أن لديه كل الحق أن يكون مشهوراً مثل «البيتلز» فى إنجلترا، ومثل «بوب دايلان» (كان قد حاول مراراً أن يقنع شركات التسجيلات الغنائية بقبول شرائط كان قد غناها بصوته).

صدمتنى درجة التحول بين تلك الجرائم النمطية التى سادت مرحلة أواخر الستينيات (مانسون، قاتل المستنقعات، فريزيار، زودياك)، وتلك الجرائم التى ارتكبت قبلها بعشرة أو عشرين عاماً (هيج، هيث، كريستى، تشيسمان، جلاتمان)، كان «چون كريستى» يقتل الفتيات لأسباب ودوافع جنسية ـ كان من الواضح أنه يصبح عاجزاً وعنيناً إذا كانت الفتاة فى كامل وعيها ـ وكان يعلق جثثهن بعد قتلهن فى خزانة المطبخ. والمضمون الرمزى لخزانة المطبخ واضح تماماً فى ذلك النوع من الجرائم فهى المكان الذى يخفى فيه ذلك النوع من القتلة جثث وهياكل ضحاياهم فى الوقت الذى يحرصون فيه أشد الحرص على الظهور بشكل محترم ولائق أمام المجتمع. بالمثل كانت عائلة مانسون جالسة فى استرخاء وتشاهد بإعجاب نشرة أخبار التليفزيون التى

أعلنت مقتل ثمانية أفراد فى منزل الممثلة «شارون تيت» وكانت شارون بين القتلى، كان آخر ما تتمناه أسرة تشارلز أن تظل الجريمة أمراً مخفياً ولا تعلن وسائل الإعلام عن مرتكبها.

من الواضح أن هناك نوعاً ما من «النموذج» يربط بين تلك الجرائم. ولكن ما هو ذلك النموذج وأى قواعد تحكم أشكاله المختلفة فى ظاهرها؟

فى منتصف الستينيات أرسل إلىّ عالم النفس المعروف «إبراهام ماسلو» نسخة من كتابه الذى يحمل اسم «الدوافع الشخصية» (١٩٥٤)، وفى الفصل الرابع الذى يحمل عنوان «نظرية عن الدوافع البشرية»، ظهر إطار عام يفسر مسألة النمط المتغير للجريمة عبر عقود الزمن المختلفة. كان ذلك الفصل من الكتاب قد سبق نشره منفرداً عام ١٩٤٣ فى مجلة دورية اسمها النشرة النفسية، وتم تصنيفه فى حينه من قبل الباحثين على أنه عمل نمطى من أعمال علماء النفس المحترفين؛ إلا أنه لأسباب ما لم ينشر على نطاق أوسع فى دوريات أخرى ولم يصل إلى عامة القراء والمثقفين. ما طرحه «ماسلو» فى ذلك المبحث هو أن الدوافع البشرية يمكن أن توصف وتصنف طبقاً لسلسلة من الاحتياجات والقيم المتتابعة الترتيب، وتقع بوجه عام تحت أربعة احتياجات:

احتياجات فسيولوجية (الطعام بصفة أساسية)، واحتياج الإحساس بالأمان (سقف وجدران كمأوى)، والاحتياج لإشباع الإحساس بالانتماء والحب (الرغبة فى الانتماء لكيان أكبر والحاجة إلى الإحساس أنه مرغوب) والإحساس بتقدير الغير له (أن يشبع إحساسه بالتميز واحترام الآخرين). وبعد تلك المستويات الأربع، افترض «ماسلو» أن هناك مستوى خامس هو تحقيق الذات من خلال إشباع الاحتياج إلى المعرفة وفهم الوجود والخلق والإبداع وحل المعضلات ومشاكل الوجود وذلك للمتعة المعنوية التى تصاحبها.

حين يجوع الإنسان بشكل دائم ومستمر، لا يستطيع أن يفكر فى أى شىء آخر عدا الطعام وفى ذلك الوقت تكون فكرته عن الجنة لا تعدو كونها مكانا يغص بالطعام على جميع أشكاله وألوانه. وبعد أن يحل مشكلة الطعام ويتوفر

له ما يشبع جوعه فإن ما يشغل باله بعد ذلك مسألة الإحساس بالأمان، على شكل منزل أو وطن (كل إنسان غير مستقر يحلم بكوخ فى البرارى أو الريف تحوطه الزهور)، وإذا حل تلك المشكلة، تصبح الاحتياجات الجنسية ملحة - وهى ليست ببساطة إحساس بدنى فقط فهى تتجاوز الإحساس البدنى إلى دفء المشاركة والأمان والانتماء، وإذا تحقق أيضاً ذلك المستوى من الاحتياجات. يظهر المستوى التالى من الاحتياجات وهو تحقيق أن يكون محبوباً وموضع إعجاب الآخرين وإشباع الاحتياج إلى تحقيق الذات وتقدير المحيطين به.

ومن الواضح أنه إذا تحققت كل الاحتياجات السابقة وأُشبعت، فإن تحقيق الذات كاحتياج يتطور بلا عائق (بالرغم من أن أغلب البشر لا يصلون إلى ذلك المستوى من الاحتياجات، فقد توصل «ماسلو» إلى أن أكثر الناس لا يتجاوزون المستوى الرابع).

حين كنت عاكفاً على الدراسة الثانية حول الإجرام، وهى الدراسة التى تحمل عنوان «سجل الإجرام»، لفت انتباهى بشدة أن تسلسل الاحتياجات كما وضعه «ماسلو» يتفق بشكل ما مع المراحل الزمنية لتطور الجريمة. فحتى أوائل القرن التاسع عشر، كانت أغلب الجرائم ترتكب بدافع مباشر من أجل البقاء - وهو المستوى الأول من الاحتياجات كما افترض «ماسلو».

كان «بيرك» و«هير» مختطفى الجثث فى مدينة أدنبرة، يقومان بخنق ضحاياهما ثم يبيعان الجثث لطلاب مدرسة الطب مقابل سبعة جنيهات استرلينية للجثة الواحدة. وعند منتصف القرن التاسع عشر كان نمط الجريمة يتغير؛ فقد زادت الثورة الصناعية من مستوى الرخاء الاجتماعى، وتحول نمط الجريمة فجأة من دوافع البقاء ليصبح نمطاً مغايراً غلب عليه طابع «الجرائم المنزلية» الذى كان يقع فى الأغلب بين أبناء الطبقة المتوسطة المحترمة مثل جرائم: دكتور بالمر، د. بريتشارد، كونستانس كنت، فلورانس براڤو. (والمقابل الأمريكى يشمل البروفيسور وبستر وليزي بوردن). كانت الجرائم التى ارتكبوها تهدف إلى حماية أمنهم الشخصى. كان «تشارلز بيس» لص منازل وقاتل وكان يمارس السرقة ويتبرع بحصيلتها لدعم الطبقة المتوسطة

والتى كانت ملامحها تتحدد فى المواظبة على حضور قداس الكنيسة وترتيب الأمسيات الموسيقية مع الجيران وأبناء المنطقة.

إلا أنه قبل نهاية القرن، بدأ نوع جديد من الجريمة فى الظهور: وهى الجريمة الجنسية. كانت جرائم «چاك» السفاح التى بدأت عام ١٨٨٨ هى الأولى من هذا النوع، ومن العجيب أن معاصرى السفاح لم يتعرفوا على تلك الجرائم على أنها جرائم جنسية، لم يروا فيها إلا أن «چاك» مختل عقلياً. وبدا أن تفسير جرائمه لا يتجاوز كونه شريراً ومختلاً. كان «چاك ربر» بداية طابور طويل من القتلة الجنسيين «المختلين» الذى امتد حتى «هيث» و«جلاتمان» ومازال الطابور يقذف بنماذج مرعبة مثل «ديم كورل» و«چون واين جاسى» و«تيد باندى». ولابد أن نضيف أيضاً إلى نمط الجريمة الجنسية ذلك النمط من القتل الذى يرتكب بدوافع من الغيرة أو الرغبة فى التخلص من شريك العمر من أجل عشيق أو معشوقة مثل «كريبن وباى ووترز» وحالة «تومسون وسندر وجراى».

ولذلك فإن ما لاحظته عام ١٩٥٩، لم يكن إلا انتقالاً من مستوى، إلى مستوى آخر من مستويات الاحتياجات البشرية، والجرائم التى تترتب على هذا الانتقال، وهو نمط جرائم الإحساس بالذات وتحقيق الذات طبقاً لتسلسل الاحتياجات الذى وضعه «ماسلو».

منذ ذلك الوقت وحتى الآن ازدادت الجرائم التى يبدو فيها المجرم وكأنه يشعر بطريقة مشوشة أن المجتمع هو المدان لأنه لم يوفر له الكرامة الإنسانية والعدالة والاعتراف به كفرد له تميزه، كما يملأه يقين أن جريمته لم تكن إلا احتجاج مشروع.

حين عثر عام ١٩٧٠ على «د. ڤيكتور أوتا»، وعائلته مقتولين فى منزلهم بولاية كاليفورنيا، عثر المحققون على رسالة بسيارة الطبيب الرولزرويس مكتوب بها: «اليوم تبدأ الحرب العالمية الثالثة، يشنها عليكم شعوب الوجود الحر... سأقاتل أنا ورفاقى من اليوم وحتى الموت فى سبيل الحرية وضد أولئك الذين لا يدعمون الحياة الطبيعية للبشر على ظهر هذا الكوكب، لابد أن تموت

المادية وإلا انتهى الإنسان».

كان القاتل كما اتضح بعد ذلك شاب يدعى «چون لنلى فريزيار» فى الرابعة والعشرين من عمره من العاطلين المهمشين، وأكد بعض الشهود أنه كان قد أبلغهم قبل ذلك أن عائلة «د. أوتا» كانت «مادية أكثر مما يجب» وأنها تستحق القتل. وفى الحقيقة كانت استجابات «فريزيار» تتميز بنرجسية ذاتية مفرطة لم تتجاوز ذاتية الأطفال التى وصفها «بيكر» قبل ذلك (من نمط: «لقد أعطيته عصيراً أكثر منى». «خذ، إليك مزيداً من العصير»، و«الآن قد أخذت هى عصيراً أكثر ...»)، لقد سيطر عليه أن هناك طريقاً طويلاً عليه أن يقطعه قبل أن يحقق «الأمان» الاجتماعى فى حين كان «د. أوتا» يمتلك منزلاً فخماً به بركة سباحة وتربض فى ممراته سيارة رولزرويس فاخرة.

من الطريف أن «أوتا» ذاته يصلح أن يكون أنموذجاً ومثالاً لتحقيق الذات طبقاً للدوافع التى وصفها «بيكر» وهو دافع «البطولة». كان «أوتا» ابناً لمهاجر يابانى رحل إلى الولايات المتحدة عام ١٩٤١؛ وسمحت السلطات له بالالتحاق بالجيش الأمريكى؛ وكان أخاه الأكبر قد قتل فى معارك الحرب العالمية الثانية فى أوربا. عمل «أوتا» بعد انتهاء الحرب كعامل فى مد قضبان السكك الحديدية كما عمل فترة سائقاً لتاكسى حتى تمكن من الالتحاق بكلية الطب، وفى أخريات حياته حقق نجاحاً كبيراً كجراح عيون. استطاع «أوتا» أيضاً أن يحقق ويشبع مستوى الاحتياج «للانتماء» وذلك من خلال العمل العام، فكان واحد من مؤسسى مستشفى الدومينيكان بمدينة سان كروز، وهو مستشفى يهدف إلى تقديم خدمة طبية دون تحقيق أرباح، وغالباً ما كان المستشفى يوفر الخدمة الطبية بلا أى مقابل لغير القادرين. لم يكن «فريزيار» على علم بأى من تلك الجوانب فى شخصية «أوتا». ومن المحتمل أيضاً أنه لو كان يعلم لما شكلت تلك المعرفة أى فارق لديه، لقد كان ممتصاً تماماً داخل عالمه النرجسى الذاتى الضيق.

من الواضح أن هناك طرقاً متعددة ووسائل مختلفة يحقق بها أفراد الجنس البشرى إشباع الميل والنزعة النرجسية الذاتية أن يكون «الأول» و«الأفضل» بين

بنى جنسه. كان «أوتا» متوازناً وواقعياً، ولذلك استطاع أن يحقق ذاته ويصبح ذو قيمة فى مجتمعه الذى يحيا فيه، بينما غلب على «فريزيار» النزعات الطفولية غير الواقعية، لم يؤد فعله الإجرامى إلى إحراز منفعة لأى أحد، ولا لذاته.

كانت نظرية «ماسلو» عن تسلسل وترتيب الاحتياجات البشرية قد تطورت لديه من خلال مراقبته الطويلة للقرود فى حديقة حيوان «برونكس» منتصف عام ١٩٣٠. كان «ماسلو» فى ذلك العام حائراً بين الجوانب المتعارضة فى نظريات «فرويد» و«أدلر». كان «فرويد» يرى أن كل أنواع العصاب ذى أصل ومنشأ جنسى. بينما ذهب «أدلر» إلى أن حياة البشر ليست إلا حرباً ضد إحساسهم بالدونية وأن الباعث والدافع الرئيسى لسلوكيات البشر الإجرامية هو رغبتهم فى تحقيق القوة.

أذهل «ماسلو» خلال مراقبته لسلوكيات القرود فى حديقة حيوان «برونكس» سلوك الهيمنة لدى القرود وممارستها الجنس بلا كلل. وأدهشه أن السلوك الجنسى لدى القرود بدا كما لو كان بلا تمييز: فقد كانت الذكور تعتلى الإناث أو تعتلى ذكوراً أخرى، كما كانت الإناث تعتلى إناثا أخرى وأحياناً ما تعتلى الذكور. كان هناك أيضاً ميل بارز وواضح إلى ترتيب سيادى، فقد كانت القرود الأكثر هيمنة تستأسد على من هم أضعف. كان هناك ما يثبت صحة نظرية «فرويد» بقدر ما يثبت أيضاً صحة نظرية «أدلر». وذات يوم أنارت بصيرته فجأة رؤية ما، وهى أن القرود تعتلى الأقل هيمنة، سيان كان ذكراً أم أنثى، وتوصل «ماسلو» إلى أن «أدلر» أقرب للحقيقة فيما يخص الدوافع السلوكية.

ولما بدت الهيمنة والسيطرة مفتاحاً لفهم سلوكيات القردة، تساءل «ماسلو» إلى أى مدى تنطبق تلك النظرية على تفسير السلوك البشرى، وحيث أنه كان شاباً وطبيعياً جنسياً، فقد فضل أن يدرس ظاهرة السلوك البشرى على النساء لا على رجال. عدا ذلك، كان على يقين أن النساء أكثر أمانة حين يتحدثن عن الجوانب الخاصة من حياتهن. وبدأ عام ١٩٣٦ فى عقد

لقاءات شخصية مع سيدات من الجامعة حيث كان يعمل؛ كان هدفه معرفة إن كانت هناك صلة ما بين الجنس والسيادة والهيمنة أم لا. وتوصل بسرعة بعد عدة لقاءات إلى أن هناك علاقة قوية وارتباط شديد بين الجنس والهيمنة. وجد أنه يمكن تصنيف النساء إلى ثلاث مجموعات متميزة:

إناث عالية السيادة والهيمنة، وإناث متوسطة السيادة، وإناث ضعيفة السيادة. ووجد أن المجموعة الأولى عالية السيادة أقل عدداً بين المجموعات الثلاث.

وجد أن المجموعة الأولى عالية السيادة تتصف بتشوش الشخصية، وتستمتع بالجنس وتمارسه لذاته ـ بطريقة تبدو معها كصفة ذكورية. كما يملن إلى مداعبة أعضائهن الجنسية وممارسة العادة السرية، كما يملن أيضاً إلى تعدد العلاقات مع الذكور ومرت أغلبهن بخبرات من السحاق وممارسة الجنس مع إناث أخريات.

أما إناث المجموعة متوسطة السيادة فقد كن يتصفن بعلو الحس الرومانسى. وربما تكن لديهن رغبات جنسية قوية، إلا أن تجاربهن الجنسية محدودة فى العادة. وهن دائمي البحث عن الرجل «الصائب» أو الرجل المثالى وهو ذلك النوع من الرجال الذين يهديهن الورود ويصطحبهن إلى العشاء بأحد المطاعم خافتة الإضاءة مع موسيقى جميلة ناعمة.

أما المجموعة الثالثة، ضعيفة الهيمنة، فيتصفن بعدم الميل لممارسة الجنس ويتعاملن معه كضرورة سيئة لإنجاب أطفال، وقد رفضت واحدة من تلك المجموعة ـ مع أن لديها رغبة جنسية قوية ـ أن تسمح لزوجها بمضاجعتها لأنها لا ترغب فى إنجاب أطفال. وتميل تلك المجموعة إلى إظهار قدر مبالغ فيه من الاحتشام، كما تصدمهن مناظر ومشاهد العرى ويعتبرن أن عضو الذكر من الأشكال المقززة (بينما تعتبره المجموعة عالية السيادة شكلاً جمالياً).

واختيار المجموعة ضعيفة السيادة للذكر يحدده الانتماء السيادى. والإناث ذات السيادة العالية يعشقن الذكور عاليوا السيادة، وهو ذلك الصنف من الرجال الذى يجذبهن فى قسوة ويلقيهن على الفراش ويحبون الذكر الرياضى الخشن غير العاطفى. أما النساء متوسطى السيادة فهن يحببن الذكر العطوف

المحب للحياة المنزلية، ذلك النوع الذى يدخن الغليون ويبدو هادئاً متأملاً. وهن يفضلن الرجل العاطفى، إلا أنهن يستقرن مع رجل يعمل بدأب وله عادات واضحة ومحددة. أما الإناث ضعيفات السيادة فهن لا يثقن فى أغلب الذكور مع رغبتهن فى إنجاب أطفال ويوقن أنهن لابد أن يدفعن الرجال إلى الفعل الذى يحقق ذلك، وهن يفضلن نمط السيد المحترم الخجول الذى يعجب بالأنثى على البعد لأعوام طويلة دون أن يجرؤ على المبادرة بالحديث.

إلا أن أهم ملاحظات «ماسلو» المثيرة فهى أن «كل» الإناث، فى كل المجموعات السيادية يفضلن الرجل الذى يتصف بدرجة أعلى من السيادة عما هن عليه. فالمرأة عالية السيادة تقضى أعواماً من عمرها باحثة عن ذكر أعلى منها سيادة وهيمنة ـ فى الوقت الذى تكون فيه مشتبكة مع الذكور فى علاقات متعددة؛ وبمجرد أن تعثر عليه، لا تتركه بعد ذلك أبداً وتتزوجه وتحيا معه فى سعادة، إلا أنها تستمتع باختلاق المشاكل معه، حتى تدفعه أن يكون عنيفاً معها وهو ما ينتهى عادة بما يشبه اغتصابها؛ وهى تجد أن تلك التجربة الجنسية العنيفة أمتعها على الإطلاق. من الواضح أن ذلك النوع من الذكور لا يكون مهيمناً بما يكفى، وهى تستثيره وتستفزه حتى يصل إلى مستوى أعلى من السيادة والهيمنة.

ويبدو أن القاعدة التى تحكم دوام العلاقة هى أن تكون الأنثى والذكر ينتميان لذات المجموعة السيادية.

فالسيدة متوسطة السيادة تصبح عصبية مع الرجل عالى السيادة، والمرأة ضعيفة السيادة ترتعب من الذكر متوسط السيادة. أما بالنسبة للذكور، فقد يظهرون اهتماماً جنسياً بالمرأة ضعيفة السيادة، إلا أن العلاقة لا تستمر حتى مرحلة الإغواء. وظاهرياً قد تميل المرأة متوسطة السيادة إلى رجل عالى السيادة؛ ولكن عند التعامل الحميم عن قرب قد تجده وحشاً لا يتصف بالرومانسية والرقة. وقد يجد الذكر عالى السيادة أن المرأة متوسطة السيادة تصلح «لممارسة الجنس»، إلا أن التعامل الحميم عن قرب يظهر أنها غير مهتمة بهذا الجانب من العلاقة، وتتعامل مع الجنس بشكل عابر كوجبة أو فاكهة غير

ناضجة فى غير أوانها.

لتحقيق علاقة حميمة، يحتاج الطرفان، الذكر والأنثى، أن يكونا من ذات مجموعة الهيمنة، واستطاع «ماسلو» أن يصمم اختبارات نفسية للتوصل لمدى «الفجوة السيادية» بين ذكر وأنثى وتحديد مدى ملائمة الفجوة السيادية لإقامة علاقة مستمرة ومستديمة بينهما.

بعد زمن من وضع كتاب عن أبحاث «ماسلو» يحمل اسم «مسالك جديدة في علم النفس (نشر عام ١٩٧٢)» تبادر إلى ذهنى أن مسألة «الفارق السيادى» تلقى ضوءاً مثيراً على حالات كثيرة من الشراكة الإجرامية.

الحالة الأولى التى أثارت فضولى من هذا النوع هى حالة «البرت. ب. باتريك» وهو محام مغمور من نيويورك، استطاع أن يقنع عام ١٩٠٠ خادم يدعى تشارلز چونز أن يقتل مخدومه بالكلوروفورم السام. كان «چون» يحيا حياة بائسة فى حى حقير من أحياء نيويورك الفقيرة حين انتشله مخدومه الغنى العجوز «ويليام رايس» من وهدة الفقر والحقه بخدمته، كانت كل الظروف تفرض عليه أن يكون شديد الامتنان لمخدومه الذى انتشله من تلك الحياة البائسة، إلا أنه وقع بسرعة تحت هيمنة وسيطرة «باتريك» وخضع تماماً لإرادته فى قتل مخدومه وسرقة ماله. وبعد اكتشاف خيوط الجريمة ألقى القبض عليهما واحتجزتهما الشرطة فى زنزانتين متجاورتين منفصلتين بقضبان معدنية لحين انتهاء التحقيق. وذات مساء ناول «باتريك» «چونز» سكيناً من بين القضبان وقال له «اقطع عنقك بهذا السكين ثم أعده إلىَ لأقطع عنقى من بعدك...»، كان «چونز» تحت الهيمنة الكاملة لباتريك لدرجة أنه لم يتوقف برهة ليفكر كيف سيعيد السكين لـ«باتريك» بعد أن يقطع شرايين رقبته ونفذ الأمر حرفياً وبلا تردد وقام بقطع شرايين رقبته ولم ينتبه أفراد الشرطة إلا على صوت غرغرة احتضار «چونز» وأحبطوا محاولة الانتحار وحكم على باتريك بالإعدام إلا أن استئناف المحاكمة لم يثبت إدانته وأطلق سراحه.

كيف حقق «باتريك» مثل تلك الهيمنة على «چونز»؟

لم تكن هناك أى علاقة جنسية غير سوية بينهما، كما لم يكن يبتز

«چونز» بمعرفته لأسرار خاصة عنه تشكل خطراً عليه. لم يفسر الأمر إلا ما اتضح من خلال تقييم وتحليل محاضر التحقيقات والمحاكمة أن «باتريك» من الشخصيات عالية الهيمنة والسيادة، بينما كان «چونز» بشكل واضح من متوسطى الهيمنة. كانت لجاذبية شخصية «باتريك» وهيمنته فعل السحر على «چونز».

ما أذهلنى وأدهشنى فى حالات عديدة من القتل المشترك، أن أحد الفاعلين يتمتع بسيادة وهيمنة عالية بينما يكون الشريك متوسط أو ضعيف الهيمنة. وعدا تلك الملاحظة اتضح أيضاً أن ذلك التآلف الغريب بين عالى الهيمنة ومتوسط الهيمنة يخلق فى الغالب ميلاً واتجاهاً لممارسة العنف.

فى عام ١٩٤٧، التقى «ريموند فرناندز»، وهو رجل منحرف تخصص فى خداع النساء وإغوائهن، بامرأة تدعى «مارتا بيك»، كنت «مارتا» ممرضة وبدينة تزوجت ثلاث مرات وباءت كل زيجاتها بالفشل. كان «فرناندز» يلتقط ضحاياه من خلال إعلانات «نادى القلوب الوحيدة»، وبعد التعارف يخدعهن ويستولى على أموالهن ويختفى. وحين نشرت «مارتا» إعلاناً فى ذلك الباب طالبة التعرف على ذى قلب يعانى من الوحدة مثلها، التقط «فرناندز» اسمها من بين أسماء عديدة بالباب، لأنها ذكرت فى الإعلان أنها فى السادسة والعشرين من عمرها. ولكن بمجرد أن وقع بصره عليها فى أول لقاء أصابته صدمة: فقد كانت تزن ما يربو على المائتى رطل ولها ذقن مفزعة وفم قاس قبيح وعدا ذلك اتضح له أنها لا تملك مالاً. ولكن حين استجاب لرغبتها وضاجعها، علق بالشص، فقد عشقته «مارتا» إلى حد العبادة بالرغم من شعره المستعار الذى كان يستر به مقدمة رأسه وأسنانه الذهبية الصناعية، مثل لها فرناندز فتى الأحلام اللاتينى الجميل الذى طالما حلمت بالعثور عليه، وأصبحت علاقتهما الجنسية رغبة مستديمة لا تتوقف. وحين حاول «فرناندز» ذات يوم أن يهجرها، أسرعت إلى محاولة قتل نفسها بالغاز وتم إنقاذها. وحين لم يجد مفراً صارحها أن عليه أن يعود إلى نشاطه السابق من إغواء النساء والاستيلاء على أموالهن ليكسب عيشه، وأن طبيعة ذلك العمل تتطلب منه

إغواء السيدات الثريات، ولم ينل ذلك من إصرارها وعزيمتها على امتلاكه بل إنها عرضت عليه أن تصبح شريكته في ذلك النشاط، إلا أنها اقترحت إدخال بعض التعديلات: فبدلاً من الاستيلاء على أموال السيدات والاختفاء والهرب من الأفضل قتلهن لضمان صمتهن للأبد.

وخلال العامين التاليين، كان الشريكان قد قتلا عشرين امرأة على الأقل. كانت آخر ضحية لهما السيدة «دلفن داولنج» من مدينة الشلالات العظمى (جراند رابيدز) بولاية ميتشجان وابنتها الصغرى «رانيل» التي تبلغ عامين من عمرها. انهمكت الشرطة في البحث عن السيدة «داولنج» التي اختفت، بحثوا في منزلها، وعثروا على كتلة أسمنتية حديثة في أرضية قبو منزلها، واتضح أن جثتها كانت مدفونة تحت ذلك المكان هي وابنتها. بعد القبض على «فرناندز» وعشيقته اعترفا بأنهما أطلقا النار على رأس السيدة «داولنج» وأنهما أغرقا الطفلة في حوض الاستحمام بعد يومين من قتل أمها لأنها لم تكن تكف عن البكاء.

وبتعميق التحقيق اتضحت سلسلة الجرائم التي امتدت على مدى العامين السابقين، وحكم عليها بالإعدام وتم تنفيذ الحكم.

بينت دراسة الحالة أن «مارتا» ذات الرغبة الجنسية التي لا تشبع كانت أكثر سيادة وهيمنة من «راى فرناندز» الذى كان عند لقائهما الأول أقرب ما يكون إلى محتال فاشل. كان فرناندز بشكل واضح ضمن المجموعة متوسطة السيادة. والسؤال الذى يطرح نفسه هو لماذا تآلفا هذا التآلف؟ من وجهة نظر «مارتا» كان «فرناندز» ذكراً ذى شخصية متميزة وصاحب ميل جنسى عال. ومن وجهة نظر «فرناندز» فإن إعجابه الشديد بتلك المرأة المرعبة كان من قبيل التملق والمداهنة، وهناك موقف قد يلقى الضوء على ذلك النمط من العلاقات وهو موقف حدث فى قاعة المحكمة؛ فقد حضرت «مارتا» إلى المحكمة مرتدية فستاناً حريرياً وحذاءً أخضر وصبغة شفاه بلون أحمر صارخ؛ واندفعت من باب القاعة مهرولة باتجاه «فرناندز» وأطبقت راحتيها حول وجهه وقبلته بشراهة مرة بعد أخرى بنهم شديد. بمصطلحات ورؤية جنسية كانت هى

الطرف القائد في تلك العلاقة التي جمعتهما. من الواضح أن «فرناندز» لم يكن ليرتكب جريمة قتل واحدة مالم يلتقي بمارتا. ومجمل الحالة ليست إلا مزيجاً من امرأة عالية السيادة وذكر متوسط السيادة أدى ارتباطهما إلى العنف.

مرة بعد أخرى يبرز في جرائم القتل المشترك نفس النموذج والنمط. وهو ما يفسر واحدة من أكثر الجرائم غرابة في القرن العشرين، وهي جريمة قتل ارتكبها كل من «ناثان ليوبولد» و«ريتشار لويب» إذ قتلا صبياً يبلغ أربعة عشر عاماً يدعى «بوبي فرانكس» في مايو عام ١٩٢٤. كان القاتلان ينحدران من أسرتين يهوديتين ثريتين ذاتا أصل ألماني قبل هجرتهما إلى الولايات المتحدة. وكان كلاهما قد أنهى دراسته الجامعية وكانا قد تصادقا حين كان «لويب» في الثالثة عشر و«ليوبولد» في الرابعة عشر. كان «لويب» جميلاً ورياضياً وصاحب شخصية عالية السيادة والهيمنة أما «ليوبولد» فقد كان ذو أكتاف مستديرة وقصير النظر وخجولاً بعكس «لويب» الذي كان جريئاً لدرجة التهور ومقابل استجابته لرغبات «ليوبولد» جعله يوقع عقداً بالشراكة في ارتكاب الجرائم. بدأوا بارتكاب بعض السرقات الصغيرة الناجحة ثم قررا معاً أن التحدي الأكبر هو ارتكاب جريمة قتل كاملة، ووقع اختيارهم على «بوبي فرانكس» ـ وهو صديق شقيق «لويب» الأصغر ـ التقطوا «فرانكس» عند خروجه من باب مدرسته واصطحبوه في السيارة وقتله «لويب» في المقعد الخلفي، بينما تولى ليوبولد القيادة، وتخلصوا من الجثة في مصرف للمياه، ثم حاولا الحصول من أهل الصبي على فدية تحت زعم أنه مختطف، إلا أن عامل في إصلاح خطوط السكك الحديدية اكتشف الجثة التي كانت مازالت مجهولة الهوية ثم عثر المحققون على نظارة القتيل بالقرب من المصرف، وبالرجوع إلى محلات النظارات الطبية تم التوصل إلى هوية القتيل صاحب الجثة. كان للمحاكمة أصداء مدوية؛ فقد بدت الواقعة وكأنها «قتل لمتعة القتل» قام بها شابان فاسدان من أبناء الطبقة الثرية المرفهة. أقر «ليوبولد» في المحاكمة أنه تأثر بأفكار الفيلسوف «نيتشه» حول القوة والعظمة، وحكم عليهما بالسجن مدى الحياة.

وأظهر البحث المتعمق لتفاصيل القضية أن «ليوبولد» كان يطلق على «لويب» اسم «الزعيم» و«الأستاذ» كما كان يشير إلى نفسه بـ «العبد المطيع». كان «لويب» يستمد متعته من سيطرته المطلقة على «ليوبولد»، ربما كان «ليوبولد» أمهر وأذكى كثيراً مما يبدو عليه الأمر، إلا أنه كان مطيعاً طاعة عمياء لإرادة «لويب» فـ «لويب» هو الذى دفعه إلى توقيع عقداً بالشراكة في الجرائم مقابل السماح بعلاقة جنسية بينهما. كان لويب هو الطرف الذى يستمد المتعة من ارتكاب الجرائم، وكان «ليوبولد» يستمد المتعة من العلاقة الجنسية وهيمنة «لويب» ويكتفى بمشاهدة «لويب» وهو يرتكب تلك الجرائم.

من المرجح أن «لويب» لو ظل بمفرده ولم يلتق بـ «ليوبولد» لما كان ارتكب بأى حال جريمة قتل، كان يشعر بمتعة عميقة من هيمنته المطلقة على «ناثان ليوبولد»، ولتعميق المتعة المستمدة من الهيمنة إلى حدها الأقصى كان عليه أن يدفعه أعمق وأعمق باتجاه الجريمة.

من أهم الأمثلة أيضاً على ظاهرة الهيمنة والسيادة وتأثيرها، على طرفى العلاقة قضية جرائم قتل المستنقعات. فقد ألقت الشرطة القبض على «إيان برادى» و«مايرا هندلى» فى أكتوبر ١٩٦٥ بعد بلاغ للشرطة أنهما يخفيان جثة في منزلهما. وبتفتيش المنزل عثرت الشرطة على إيصال من مكتب الأمانات مخبأ فى كتاب دينى، وبالرجوع إلى مكتب الأمانات اكتشف المحققون أن الإيصال خاص بحقيبتين كبيرتين فى خزائن محطة القطار بمدينة «مانشستر»، وكذلك صوراً فوتوغرافية وشرائط مسجلة تربط ما بين «برادى و«هندلى» واختفاء طفلة تبلغ من العمر عشرة أعوام تدعى «ليزلى - آن داونى»، كانت قد اختفت أثناء مشاهدتها مباراة ملاكمة عام ١٩٦٤. وحين كانت الشرطة تبحث في منطقة المستنقعات عثروا على جثة «ليزلى - آن»، كما عثروا على جثة صبى فى الثانية عشر من عمره يدعى «چون كولبرايد». أما الجثة التى عثروا عليها فى المنزل فقد كانت لشاب فى السابعة عشر من عمره يدعى «إدوارد إيڤانز»، وكان قد قتل بتهشيم رأسه بعتلة حديدية. وبمحاكمتهما عن جرائم القتل الثلاث، تبين أنهما مدانان وحكم عليهما بالسجن مدى الحياة.

يعود الفضل في الكشف عن ذلك النموذج النفسي الغريب الذى كان يكمن وراء جرائم قتل المستنقعات إلى الممثلة والكاتبة المسرحية «إميلين ويليامز».

وقع أول لقاء بين «إيان برادى» و«مايرا هندلى» بالمصادفة فى ١٦ يناير عام ١٩٦٠ وكانت «مايرا» تعمل فى ذلك الوقت كموظفة على الآلة الكاتبة فى شركة «ميلوارد» وهى شركة مواد كيميائية فى حى «جورتون» فى مدينة «مانشستر». كانت «مايرا» نموذجاً لفتاة من الطبقة العاملة، كانت قد تحولت إلى اعتناق المذهب الكاثوليكى وتحب الحيوانات وتحنو عليها وتعشق الأطفال. أما «برادى» فقد كان شاباً يتسم بالقسوة يقطن فى حى «كلايد سايد» بمدينة «جلاسجو» وولد عام ١٩٣٨، وكان يكبر «مايرا» بأربعة أعوام كما كانت لديه مشاكل عديدة مع الشرطة منذ أن بلغ الثالثة عشر من عمره، وكان قد قضى عاماً فى إصلاحية «بورستال». كان مغرماً بروايات العصابات والمغامرات، كما كان مولعاً بالكتب التى تتناول ظاهرة النازية وقد كان شديد الإعجاب بالأفكار النازية. قرأ أيضاً للمركيز «دى ساد» رواية «چوستين» وتأثر بشدة بفلسفة دى ساد عن الخلود والجريمة.

تجاهل «برادى» «مايرا» عندما رآها أول مرة؛ فلم تكن تعنى له أكثر من فتاة آلة كاتبة تنتمى إلى الطبقة العاملة وما أكثرهن. وبمرور الشهور نمت لديها الدوافع لإثارة اهتمامه وانتباهه. بدا فى نظرها شبيهاً بـ«ألفيس بريسلى» مع بعض الجموح، كان يركب دراجة نارية ويرتدى سترة من الجلد؛ وتحت السترة كان يرتدى زى العمل المكوى بعناية. فى الثالث والعشرين من شهر يوليو سجلت فى يومياتها التى كانت تحرص على تدوينها: «أتمنى أن يبدأ فى مغازلتى.. مازلت أشعر بنفس المشاعر نحوه». بعد ذلك بأربعة أيام سجلت أنها تبادلت معه الحديث، وأنه ابتسم بارتباك. وبعدها بعدة أيام سجلت: «إيان غير مهتم بالجنس الآخر»، وفى ٨ أغسطس سجلت: «صغر إيان فى نظرى قليلاً»، ولم تذكر سبب ذلك، ولكن قد يعود السبب إلى أسلوبه السيىء فى الحديث الذى صدم مشاعرها؛ وسجلت بعد ذلك: «إيان كثير السباب وفظ»

وهو رد فعل نمطي لأنثى رومانسية متوسطة السيادة تجاه ذكر عالي السيادة، ورومانسيتها تبرز بوضوح من خلال مذكراتها التي حللتها وعرضتها الكاتبة «إميلين ويليامز»، سجلت مايرا بعد ذلك: «أتمنى أن يحبني ويتزوجني في يوم ما». إلا أنه كان من الواضح أنه يتجاهلها، «لم يوجه إليّ أي حديث اليوم». على مدى شهور كانت مذكراتها تتأرجح بين اليأس والرجاء: «إنه يتعمد أن يضايقني، بل يهينني...»، «أنا أكرهه، لقد قتل كل الحب الذي كنت أكنه له»، «أنا أحب إيان من جديد»، «خرجت مع إيان».

كانت «إميلين ويليامز» محققة حين استنتجت من تحليل المذكرات أن «برادي» كان يستمتع بممارسة الهيمنة على «مايرا»، كما كان يستمتع بقدرته على جعلها تعيسة حين يريد وإسعادها عندما يشاء. في أعياد حلول العام الجديد ١٩٦١، اصطحبها «برادي» إلى السينما، وبعد السينما ذهب معها إلى منزلها للاحتفال باللحظات الأولى من العام الجديد ومعهما زجاجة ويسكي. كانت «مايرا» تسكن مع جدتها عند ناصية الشارع؛ عاد بها «برادي» من السينما إلى منزل جدتها في الثانية عشر مساءً، وعلى أريكة في غرفة المعيشة فض بكارتها. وفي اليوم التالي سجلت في مذكراتها: «عملت بشركة ميلوارد اثني عشر شهراً وبالكاد خرجت معه أمس. أتمنى أن نحب بعضنا إلى الأبد وأن نتزوج ونحيا سعداء طول العمر». إلا أنه لم يكن الزواج ما يسعد «برادي» بقدر ما كان يسعده ممارسة السلطة والهيمنة على «مايرا». لقد أكد سيادته عليها بفض بكارتها عند أول لقاء خاص بينهما، فماذا بعد ذلك؟

بدأت بعد ذلك عمليات التطويع والتحويل لشخصيتها. راح يغريها بمشاركته في الإعجاب بالأفكار النازية ـ كان «برادي» يقتني مجموعة كبيرة من الكتب عن النازية ـ وبأفكار المركيز دي ـ ساد. أغلب القراء الذين يشترون كتب دي ـ ساد يشترونها من أجل محتواها الجنسي؛ أما «برادي» فقد كان يقرأها من أجل محتواها الفكري. كان المحتوى الفكري لكتب دي ـ ساد يرى أن كل المجتمعات البشرية فاسدة، وأن الحياة الإنسانية تافهة وعديمة الجدوى؛ وأن الطبيعة تهب وتسلب بلا أي فارق أو تمييز، بل بعشوائية، وأن البشر

يحيون في كون لا يحمل أي معنى، كون خلقته الصدفة المطلقة، وأن الأخلاق ليست إلا وهماً خلقه الحكام الأقوياء ليحتفظوا بالفقراء تحت سيطرتهم ولذلك تبقى المتعة الجانب الوحيد والحقيقي الذي يحمل جدوى ومعنى، وأن الرجل الذي يحقق متعة جنسية بالقوة إنما يحصل على الميزة الطبيعية الوحيدة، كما يتمكن من الهيمنة على الامتياز الوحيد الطبيعي للقوة... وابتلعت «مايرا» التي كانت ترى فيه ذكاءً خارقاً (كان يتعلم الألمانية ليقرأ كتاب كفاحي لهتلر بلغته الأصلية) كل ذلك بانبهار دون تفكير وبلا تردد، ابتلعته بصبر العبد الذي كرس نفسه لطاعة سيده الذي لا يخطيء.

كيف يدفعها أعمق لإحكام سيطرته عليها؟

أخبرها ذات مرة أنه يخطط لسرقة بنك، خبطة كبرى. أصابتها صدمة لأول وهلة، ثم كالعادة، قبلت الفكرة على أنها برهان جديد على تفرده وذكائه وسعة حيلته.. ثم دفعها للالتحاق بنادٍ لتعليم الرماية وأن تشترى مسدساً. في حين انهمك هو في شراء مجلات التصوير الشعبية كما اشترى آلة تصوير بمؤقت، ثم دفعها لارتداء ملابس داخلية فاضحة لا تخفي شيئاً والتقط لها صوراً في أوضاع فاضحة، وباستعمال المؤقت في آلة التصوير، التقط صوراً لهما معاً، السرة على السرة، وفي أوضاع ممارسات جنسية مختلفة وهما يخفيان وجهيهما بأكياس بيضاء. وفي بعض الصور بدت آثار جلدها بكرباج على ردفيها. كان «برادى» يهدف إلى بيع تلك الصور (أن تصبح الصور الفاضحة من المبيعات العادية لدى أغلب وكالات الأنباء) إلا أنه فشل في بيعها لأي جهة.

في تلك المرحلة، لم يكن أمام «برادى» إلا طريقة واحدة يدفع بها «مايرا» إلى الخضوع المطلق: وهو إشراكها في خطة لتحقيق حلم يقظته بارتكاب جريمة قتل. كان السطو على بنك ينطوى على مخاطرة كبرى، وكانت الجريمة التي تحمل قدراً أقل من المخاطرة من ذلك النوع الذي ارتكبه «ليوبولد» و«لويب»، وهي إغراء طفل على ركوب سيارة ثم قتله بعد ذلك.

في مايو ١٩٦٣ اشترت «مايرا هندلى» سيارة صغيرة ـ كانت سيارة

مستعملة خضراء ماركة موريس ـ، بعدأن تلقت دروساً في قيادة السيارات (كان برادى قد تخلى عن قيادة الدراجات النارية بعد تعرضه لحادث بدراجته) . بعد ذلك بشهرين، وفي الثاني عشر من يوليو ١٩٦٣ اختفت فتاة اسمها «بولين ريدى» تبلغ السادسة عشر من عمرها وتسكن في منزل على الناصية التالية لمنزل «مايرا» وكانت علاقتها سطحية بـ«مايرا»، وكان آخر ما عرف عنها أنها كانت في طريقها إلى حفلة راقصة ولم تظهر بعد ذلك أبداً. حين بدأت الشرطة تحرياتها حول جرائم قتل المستنقعات، بدأت بملف اختفاء «بولين ريدى». بدا من المرجح أنها قد أغويت لركوب سيارة. ولما كان من المستبعد أن تقبل ركوب سيارة أشخاص لا تعرفهم، فقدكان الأكثر ترجيحاً أنها ركبت مع أشخاص تعرفهم. كان عدم العثور على جثتها يرجح أنها قد دفنت واضعين في الاعتبار أن معتادى الاغتصاب نادراً ما يقومون بدفن الجثث. كانت الشرطة أقرب إلى اليقين أن بولين واحدة من ضحايا اختفاء إجرامى.

بعد ظهر يوم السبت ٢٣ نوفمبر، قادت «مايرا» السيارة يرافقها «برادى» إلى حى «آشتون اندرلين»، وعرضا على صبى يبلغ الثانية عشرة من عمره يدعى «چون كولبرايد» أن يقوما بتوصيله، كان الولد على وشك اللحاق بالسيارة العامة للعودة إلى منزله، إلا أنه قبل الركوب معهما ولم ير بعد ذلك حياً أبدا. بعد ذلك بما يقرب من عامين أخرجت الشرطة جثته من الموضع الذى دفن فيه بمستنقعات «سادل وورث». كان سرواله ولباسه التحتى محلولان ونازلان حتى ركبتيه. كانت «مايرا» قد سمحت لـ«برادى» أن يلتقط لها صورة وهى راكعة على ركبتيها فوق موضع دفن الصبى.

في ١٦ يونيو ١٩٦٤ غادر صبى يدعى «كيث بينيت» في الثانية عشرة من عمره أيضاً منزل أسرته ليقضى الليل عند جدته في حى «لونج سايت» بمدينة مانشستر ـ كان برادى يسكن في ذلك الحى حتى انتقل ليعيش مع مايرا في منزل جدتها ـ اختفى «بينيت»، مثلما اختفت «بولين ريدى»، ومثلما اختفى «چون كولبرايد». كان «برادى» يداوم على زيارة حيه القديم «لونج سايت» بانتظام ليزور أمه وهو الحى نفسه الذى اختفى منه «كيث بينيت».

في ٢٦ ديسمبر ١٩٦٤، قاد «برادى» و«مايرا» السيارة إلى معرض في حي «انكوتس» بمدينة مانشتسر، والتقطا طفلة في العاشرة من عمرها اسمها «ليزا آن داوني» وعادا بها إلى المنزل ـ كانا قد انتقلا إلى حي «هاترسلي» بعد أن حصلت جدة مايرا على مسكن حكومي ـ ونزعا عن الطفلة ملابسها والتقطا لها صوراً عديدة، كما سجلا صراخها وتوسلاتها لهما أن يتركوها، ثم قتلاها وقاما بدفنها في منطقة المستنقعات بجوار «چون كولبرايد». بعد ذلك، أخذا بطاطين وأغطية وناما فوق موضع دفن الجثث، وكان ذلك جانباً من متعة الإحساس بمعاداة المجتمع، ويشبع لديهم الشعور بأنهم ثوار خطرين.

بعد ذلك بتسعة أشهر ارتكب «برادى» خطأً أدى إلى اعتقالهم، فقد ضم إليهم شاباً يافعاً في مقتبل عمره يبلغ السادسة عشر كمتدرب ناقم على المجتمع يدعى «دافيد سميث». كان «دافيد» قد تزوج «مورين». شقيقة «مايرا» الصغرى بعد أن حملت منه سفاحاً. ومثلما فعلت «مايرا» كان هو الآخر قد تحول عن مذهبه الديني، وكانت له متاعب ومشاكل مع الشرطة، كان شغوفاً بالأعمال المثيرة وعلى استعداد أن يبتلع بشارة الثورة على المجتمع وتحقيق الذات. كان «دافيد» تابعاً ملائماً لبرادى، وسجل هو الآخر في يومياته: «الاغتصاب لا يعد جريمة، وإنما حالة من حالات العقل. القتل هواية ومتعة لا تعادلها متعة» / «الإله خرافة وسرطان ينهش العقل» / «البشر ليسوا إلا ديدان وتافهين، لا يبصرون ولا يساوون خردلة». كان «دافيد» ينصت بشغف وإعجاب إلى حديث «برادى» عن اعتزامه سرقة بنك، وأخبره «برادى» عن حوادث قتل المستنقعات التي قام بها، كما أخبره بأنه توقف بالسيارة ذات مرة في شارع مهجور وأطلق النار على أول عابر للطريق.

في ٦ أكتوبر ١٩٦٥، قرر «برادى» أن الوقت قد حان لضم «دافيد» بطريقة عملية. قام «برادى» و«مايرا» بالتقاط شاب في السابعة عشر من عمره يدعى «إدوارد إيڤانز» من أحد حانات مانشتسر وعادا به إلى سكنهما في«هاترسلي». وفي الحادية عشرة والنصف تطلعت «مايرا» باحثة عن «دافيد»، كان دافيد بالمطبخ حين سمع صرخة عالية ونداء من مايرا« دافيد،

تعال لتعاون برادى». وحين دخل الغرفة وجد برادى يضرب «إيڤانز» ببلطة على رأسه. حين سقط «إيڤانز» بلا حراك، قام «برادى» بخنقه بسلك كهربائى. ثم ناول «دافيد» البلطة قائلاً: «جرب ثقلها»، ثم استعادها منه وعليها بصماته فوق بقع الدماء. قام الثلاثة بتنظيف الغرفة ثم لفوا الجثة فى مشمع من البوليثين، وحين رفعا الجثة تندر «برادى» مازحاً: «أصبح إيدى (تدليل إدوارد) ثقلاً مميتاً» ثم شربوا الشاى، وراحت «مايرا» تحكى عن لحظات حرجة فوجئت فيها برجال الشرطة يطلون برءوسهم من نافذة سيارتها وهى جالسة بها فى حين كان برادى داخل المستنقعات يدفن إحدى الجثث، كانت لحظات عصيبة بالنسبة لها. بعد ذلك غادرهم «دافيد» عائداً إلى منزله القريب ووعدهم بالعودة ومعه عربة يد لنقل الجثة إلى سيارة «مايرا». وحين وصل منزله أصابته نوبة غثيان عنيفة، وأخبر زوجته ـ شقيقة مايرا ـ بكل ما حدث فأسرعت بدورها باستدعاء الشرطة. فى الثامنة وأربعين دقيقة من الصباح التالى دق رجل يرتدى زى موزعى الخبز باب مسكن «برادى» و«مايرا»، وحين فتح «برادى» الباب ـ كان يرتدى سترة علوية فقط ـ قدم الرجل نفسه بأنه ضابط شرطة وأنه أتى لتفتيش المنزل. فى غرفة نوم مغلقة عثروا على جثة «إيڤانز»، وألقت الشرطة القبض عليهم، ولم يدل «برادى» بأى اعتراف رغم وجود الجثة. وأصر على أن الطفلة ليزلى قد جلبها رجلان إلى منزله، وأخذاها معهما عند رحيلهما. أثناء المحاكمة قام الإدعاء بإعادة الاستماع إلى شريط التسجيل الذى كانت تتوسل فيه «ليزلى» إليهما أن يتركاها تعود إلى أهلها، كانت من أشد اللحظات هولاً أثناء المحاكمة، بعدها اعترفت «مايرا» بأنها تشعر بالخجل والعار مما فعلاه بالطفلة «ليزلى» (كانت قد اعترفت قبل ذلك أنها عاونت فقط فى التقاط صور عارية للطفلة)، أما «برادى» فقد ظل على موقفه اللامبالى وأصر على أقواله حتى آخر لحظة، وشرح فى إحدى جلسات المحاكمة أنه يعلم أنه سيدان فى كل الأحوال. فى ٦ مايو ١٩٦٦، قضت المحكمة عليه بالسجن مدى الحياة فى ثلاثة أحكام، وعلى «مايرا» بالسجن مدى الحياة فى حكمين. وبعد صدور الحكم ثارت الأحاديث حول احتمال إطلاق سراح «مايرا»، إلا أن استطلاعات الرأى العام أظهرت استنكاره ورفضه، أما بالنسبة لبرادى فقد كان

اتجاه الرأى العام أنه لا يجب إطلاق سراحه طالما بقيت به أنفاس تتردد.

يبقى اللغز المحورى فى تلك القضية بلا حل.. كيف يمكن لفتاة عاقلة وسوية مثل «مايرا هندلى» أن تشارك بذلك الحماس وتلك المتعة فى جرائم القتل التى شاركت فيها؟

فى الوقت الذى كنت أدرس فيه تلك الحالة (كنت منهمكاً فى ذلك الوقت فى وضع كتاب يحمل اسم مراتب القتلة) قمت بإجراء مناقشة مطولة مع الدكتورة «راشيل بينى»، التى قامت بإجراء مقابلات وجلسات مناقشة مع «مايرا» فى السجن أصبحت بعدها مؤمنة ببراءة «مايرا». كان رأيها أن «مايرا» قد تم إخضاعها. وكتبت فى إحدى رسائلها إلىّ: «مازلت أومن أنه لم يكن لـ «مايرا» أى دور فى عمليات القتل والتعذيب، وسأضع النتيجة النهائية للبحث الذى أجريته فى دراسة كاملة عن التركيبة النفسية لمن يقعون فى «الشرك»، - مثلما حدث بين «راسبوتين» و«سارينا»، و«لويب» و«ليوبولد»، و«هتلر» و«مهوروسيه».

بدا لى أن رؤيتها تنفذ إلى جوهر وعمق الظاهرة؛ إلا أنها فى الوقت نفسه لم تطرح أى إجابة عن كيفية تحول فتاة من حب الحيوانات الأليفة والأطفال إلى شريكة فى ارتكاب جرائم قتل فظيعة شملت الأطفال. أظهرت دراسة شخصيتها أن طفولتها المبكرة تتضمن جزئياً أنها لم تكن «طبيعية» فى داخلها بعكس ما كان يبدو على ظاهرها.

كانت «مايرا» ابنة لزواج مختلط كاثوليكى - بروتستنتى، وانتقلت لتعيش مع جدتها فى سن الرابعة بعد حادث وقع لوالدها جعله معاقاً لا يقدر على الكسب. سيطر على «مايرا» إحساس أن أسرتها لفظتها لصالح أختها الصغرى «مورين». وبتشتتها بين بيتين يبعدان عن بعضهما بضعة مئات من الياردات لم تنعم «مايرا» بحياة أسرية مستقرة بين أب وأم؛ فى الوقت الذى كانت فيه جدتها تحبها حباً جماً فدللتها وأفسدتها. كانت «مايرا» تتمتع بشخصية قوية، وبدا ذلك من تركيبة فكها العريض الصارم واشتراكها فى جمعية لانكشاير للذكاء وقوة الشخصية. أما تقارير مدرسيها فقد ذكرت أنها «متحفظة وغير

اجتماعية» بالرغم من أن زملاء الفصل يذكرون عنها أنها كانت تتمتع بروح الدعابة والهزل. قبل عيد ميلادها الخامس عشر تلقت صدمة نفسية عنيفة. كانت على صداقة بولد فى الثالثة عشر من عمره يدعى «مايكل هيجنز»؛ خجولاً وهشاً ويبدو أنه قد نمت لديه مشاعر أمومة تجاه «مايرا». ذات عصر من يونيو اقترح عليها أن يذهبا للسباحة فى خزان كبير مهجور ملىء بالمياه، ولكنها لم تجد لديها رغبة لذلك. ذهب الصبى بمفرده وحين كان يسبح ويلهو أصابه تقلص عضلى فى ساقه فغرق ومات؛ وحين ذهبت مايرا للبحث عنه وجدت الشرطة تحيط بجثته بعد انتشالها من الخزان. أصابتها صدمة عنيفة. وقضت أياماً تجمع بعض النقود لشراء إكليلاً من الزهور لحضور مراسم دفنه. وظلت مرتدية ملابس سوداء حداداً عليه شهوراً طويلة وتحولت إلى فتاة مكتئبة ومنطوية يغلب عليها الحزن والصمت. ثم تركز رد فعلها إزاء تلك الصدمة فى التحول إلى المذهب الرومانى ـ الكاثوليكى. هجرت الدراسة بعد الجنازة بعدة أسابيع والتحقت ببعض الوظائف المكتبية ووجدت أنها وظائف مملة إلى أبعد حد فاعتادت التغيب عن العمل، ولذلك لم تستمر فى وظيفة واحدة أكثر من شهر أو نحو ذلك. بعدها اعتادت الذهاب إلى المراقص وغيرت لون شعرها مرات عديدة؛ إلا أنها لم تسمح لأى شاب أن يقيم علاقة متحررة معها فقد كانت تتمسك بقدر من الاحتشام والتحفظ، وخطبت لفترة قصيرة وهى فى سن السابعة عشر، إلا أنها رفضت مشروع الزواج لأنها وجدت أن الخطيب «تغلب عليه الطفولة». وحين صدمت سيارة كلبها ومات، غاصت من جديد فى حالة من الاكتئاب والآلام النفسية العميقة.

كانت مشكلة «مايرا» من نوعية المشاكل التى تعانى منها الفتيات ذوات الإرادة القوية. وبالنسبة للشباب، لا تعد الإرادة القوية للفتاة من الصفات الأنثوية المرغوبة. الصورة الذهنية لدى الذكور عن الأنثى تتكون من الرقة واللطف والنعومة. أما الأنثى قوية الشكيمة والتى لا حيلة لها فى كونها ذات إرادة فإنها تشعر بنفاذ صبر مع الذكور الذين من عمرها وبالمثل يجدها أغلب الشباب فتاة لا تطاق وتجدهم الفتاة بدورها لا يطاقون. ولا يمنع ذلك بالطبع أنها تتطلع إلى العثور على الرجل المناسب ـ خاصة أن «مايرا» كانت تتمتع

بغرائز أنثوية عالية تتوق إلى تكوين أسرة. أما إرادتها القوية فقد منعتها فقط من أن تكون موضع تجارب للذكور، كما منعتها من المرور بالتجارب الجنسية التي تمر بها الفتيات منعدمات الإرادة والأضعف والأتفه واللاتي يمارسن تلك التجارب الجنسية في كل ليالي الأسبوع. حين كانت تصادف رجلاً يثير إعجابها ،كان من الصعب عليها أن تظهر ما يثير انتباهه، كاصطناع الرقة وتسبيل الجفون أثناء الحديث، بل كان العناد الأصيل في شخصيتها يتوهج، أو تتلفظ بما يثبت أنها تعرف أكثر وأفضل منه. كانت أشد الناس عداوة لنفسها.

من المحتمل أن الانطباع الأول لـ«برادى» عن «مايرا» أنها من الساقطات خشنات المظهر، أي من ذلك النوع من النساء الذى يمكن أن يمزق الذكر إرباً في الفراش. وبعد أن اتضح له أن تلك الفتاة ذات الفك العريض مغرمة به حل محل عدم ارتياحه الغامض إحساس بالقبول؛ وكلنا يتعذر علينا ألا نجد جوانب جيدة في الناس الذى يعجبون بنا. لاحظ «برادى» أنها تبدو منحدرة من أصل ألماني - بدت في نظره بشكل ما كواحدة من حارسات معسكرات التعذيب الألمانية. وبدأ يستمتع باللعبة الجديدة، مثلما يتلذذ صائد الأسماك بمناوراته التي يقوم بها قبل اصطياد سمكة السالمون، واستمد متعته من استمرار الشد والإرخاء لأطول فترة ممكنة. تحدثت إليه في يوليو فأظهر ضيقاً. في أغسطس لاحظت أن: «إيان ينظر إليّ نظرات مختلسة» ومنذ ذلك الوقت، سارت الأمور صعوداً وهبوطاً؛ وذات يوم أصابته نزلة برد فقامت بتمريضه ورعايته، وفي اليوم التالي عاملها بجفاء ووقاحة فأحست أنها تكرهه من أعماقها. وبالرغم من أن الرحيل أكرم من البقاء، فإن الأمور لم تكن لتمضى إلى الأبد على الوتيرة نفسها، فبعد ذلك بخمسة أشهر في احتفالات رأس السنة اصطحبها وخرجا معاً لأول مرة ومثلها مثل «مارتا بيك»، وجدت فجأة فتى أحلامها الذى طال انتظاره. كانت المرحلة التي تلت ذلك هي أصعب المراحل فهماً. كيف استطاع أن يحولها إلى قاتلة؟

لابد أن الصدمة النفسية المبكرة التي ترتبت على موت صديقها الأول «مايكل هيجنز» قد لعبت دوراً في هذا التحول. لقد تركت جرحاً نفسياً لم

يندمل، إلا أن موقف «برادى» المتشدد تجاه الموت لعب دوره أيضاً فى التنفيس عن تلك العقدة، كما لعبت كتب معسكرات الاعتقال والتعذيب وموسيقى النازى العسكرية وتسجيلات خطب «هتلر» دوراً كبيراً فى بث روح من الحيوية خفف كثيراً من التأثير الاكتئابى لتلك الذكرى.

لو كانت «مايرا» من ذلك النوع الكفؤ من الفتيات اللاتى يستمتعن بالأعمال المكتبية، كان كل ما حدث بعد ذلك من المستحيل أن يقع. إلا أن العمل المكتبى كان يصيبها بالملل والضجر؛ فراحت تفقد وظيفة بعد أخرى بسبب غيابها المتكرر عن العمل.

كان «برادى» يمر بالمرحلة نفسها، فقد كان يفقد وظيفة بعد أخرى، إلا أنها كانت جميعاً أعمالاً بدنية شاقة، حتى وصل إلى تلك الوظيفة فى الشركة التى تعمل بها «مايرا»، وبدا له ذلك العمل كموظف مخزن مرضياً للغاية وأقل عناء كما كانت تغييراً فى نوعية العمل تاق إليه. أما العلامات المبكرة لعدم ثباته وقلقه الدفين فقد ظهرت من خلال عدم التزامه الدائم بمواعيد العمل وميله لاختلاق الفرص للتغيب عن مكتبه والتوجه إلى مكاتب الرهانات. أما درج مكتبه فلم يخل أبداً من كتب تتحدث عن النازية ونادراً ما كان يتبادل الحديث مع زملاء العمل وكان يقضى وقت راحة الغداء فى قراءة كتب عن جرائم الحروب. كان منسحباً تماماً إلى داخل عالمه السحرى الخيالى. أطلق على «مايرا» اسم «هيس» لإعجابه الشديد بـ«رودلف هيس» نائب هتلر. ويوضح كل ذلك كيف تحولت «مايرا» إلى عبدة مخلصة له، إلا أن أياً من تلك الأسباب لا يعد سبباً حيوياً وفاصلاً. فالتفسير الأساسى يكمن فى إدراك أنها كانت من النوع متوسط السيادة مقابل شخصية «برادى» الذى كان عالى السيادة والهيمنة. كانت - بالرغم من صلابة رأيها - نموذجاً نمطياً لموظفة الآلة الكاتبة التى تتوق لأن يحتويها رجل قوى ولكنه مهذب. أما «برادى» فقد كانت بالنسبة إليه عامل اختزال ومحفز للتحول من شاب خيالى إلى قاتل. كما أن ارتباطهما معاً لم يكن حباً بقدر ما كان سعياً من جانبه للسيطرة على «مايرا». وبالرغم من أن هذا التفسير يعد تبسيطاً زائداً؛ إلا أن الذكورة الجنسية تحتوى

على قدر كبير من «صراع القوة»، فحين ينتمى الذكر إلى المجموعة عالية السيطرة والسيادة، فإن ممارسته لتلك السيادة على الأنثى تشكل المصدر الرئيسى لمتعته فى هذا النمط من العلاقات.

تقدم تلك الملاحظات رؤى مهمة فى أبحاث الجريمة التى تحدث عند المستوى الرابع الذى وضعه «ماسلو»، وهو مستوى «غرور الذات» أو الإحساس العالى بالذات. إلا أن هناك تساؤلاً يظل بلا إجابة: وهو تساؤل يدور حول التركيبة النفسية «للخاضع» والتى قد تشكل دوافعه للمشاركة فى ارتكاب جريمة. ففى حالة «ليوبولد» و«لويب»، أو «برادى» و«مايرا»، قد يبدو أن هناك تفسيراً لتوفر علاقة جنسية بين الشريكين فى كل حالة على حدة، وهو ما يدفع إلى الاعتقاد بالمساواة والمشاركة فى المسئولية. ولكن تظهر حالة مثل حالة «ألبرت. ت. باتريك» لتربك ما توصلنا إليه من نتائج، ففى الحالة الأخيرة لم تكن هناك علاقة جنسية ولذلك يظل التساؤل السابق بلا إجابة. فحين استدعى «باتريك» «تشارلز چونز» أول مرة، كان يريد الحصول من «تشارلز» على معلومات قد تفيده فى قضية متداولة ضد «ويليام رايس» الذى يعمل «تشارلز» لديه ورفض «تشارلز» بسخط واستنكار أن يفعل ذلك ولكنه لسبب ما لم يخبر سيده «ويليام رايس» بذلك. كان «باتريك» قد نسج بمهارة بعض خيوط الهيمنة على «تشارلز». ولما استدعاه من جديد؛ راح رفضه للاقتراح يتهافت ويضعف، وفى النهاية استسلم تماماً لتحريض «باتريك»، وقام بتقليد توقيع مخدومه على رسالة لاستخدامها ضده فى المحكمة. بعد ذلك بستة أشهر كان «تشارلز» قد وضع السم لمخدومه فى الشراب، بالرغم من أنه كان يدين لمخدومه بكل شىء أقلها انتشاله إياه من وهدة الفقر. قد يفترض أن «تشارلز» كان لديه من الأسباب ما يدفعه إلى كراهية مخدومه؛ وقد يتبادر إلى الذهن أن الرجل العجوز كان من المصابين بالشذوذ الجنسى. إلا أن ذلك كله بافتراض صحته (وهو غير صحيح) لا يفسر بأى شكل ذلك التصاعد فى الخضوع الذى أدى بـ«تشارلز» إلى الموافقة بلا تردد على الانتحار بقطع شرايين رقبته أثناء اعتقاله هو و«باتريك» رهن التحقيق.

هذى الحالة تستدعى إلى ذاكرتى قصة حالة إجرامية أخرى وقعت فى منتصف عام ١٩٣٠ ، عن امرأة كانت تستقل القطار المتوجه إلى مدينة «هيدلبرج» ـ لاستشارة طبيب بتلك المدينة عن آلام تنتابها بمعدتها ـ وتبادلت الحديث مع مسافر آخر بالقطار، وادعى الرجل أنه يعالج الآلام بطريقة طبيعية. أكد لها ذلك الرجل وكان يدعى «فرانز والتر» أن باستطاعته شفائها من آلام معدتها، وحين توقف القطار فى إحدى المحطات، دعاها إلى تناول القهوة معه، وبالرغم من أنها لم تكن لديها رغبة لتناول القهوة إلا أنها تركت نفسها للإغراء. بينما كانا سائران على رصيف المحطة أمسك يدها، وقالت عن ذلك فيما بعد «بدا لى بعد أن أمسك يدى أننى فقدت إرادتى وفقدت أى سيطرة على نفسى، شعرت بمشاعر غريبة وأننى مصابة بدوار»، بعد أن وصلا إلى «هيدلبرج» اصطحبها إلى غرفة، ووضعها فى غشية تنويم ببعض اللمسات من أصابعه على جبهتها، ثم اغتصبها. حاولت أن تدفعه عنها، إلا أنها لم تكن قادرة على الحركة. ذكرت عن ذلك الموقف فيما بعد: «حاولت أن استجمع قواى مرة بعد أخرى لأقاومه، إلا أننى لم أقدر على تحريك إصبع واحد، ربت على جبهتى بأصابعه وقال: ستنامين نوماً عميقاً، أنت لا تستطيعين الصراخ، ولا أن تفعلى أى شىء آخر، ثم ثنى كفى وذراعى خلفى وقال: أنت لا تستطيعين الحركة الآن. وحين تستيقظين لن تتذكرى أى شىء مما حدث».

بعد ذلك استحوذ عليها «والتر» تماماً وجعلها تهب نفسها لأى رجل، بعد أن يذكر للرجل كلمة الأمر التى تجعلها فى غشية وغير قادرة على الحركة. وحين تزوجت بعد ذلك، دفعها إلى محاولة قتل زوجها بوسائل مختلفة مرة بعد أخرى إلا أن تلك المحاولات باءت بالفشل. ملأ الشك زوجها بعد المحاولة السادسة لقتله ـ حين وجد سلك كوابح دراجته النارية مقصوصاً، مما تسبب فى اصطدامه بسيارة، ثم هربت بثلاثة آلاف مارك كانت له وعلم بعدها أنها توجهت إلى معالج مجهول. بعد أن أبلغ الشرطة بكل الوقائع شك رجال الشرطة أنها تتعرض للتنويم، وبعد القبض عليها نجح طبيب نفسى يدعى «لودفيج ماير» فى فك أسر ذاكرتها، والقى القبض على «والتر» وحكم عليه بالسجن عشرة أعوام.

كيف استطاع «والتر» أن يخضعها لسيطرته بتلك السرعة وتلك السهولة؟ من الواضح أنها كانت امرأة ذات حيوية نفسية متدنية وذات قابلية عالية للتحريض، إلا أنه في الوقت ذاته يبدو من الصعب تصديق أن مجرد الإمساك بيدها كاف لإحداث التنويم والغشية.

وفي الحقيقة، هناك أدلة كثيرة على إمكانية تحقيق التنويم بالقوة الذهنية المجردة دون تلامس.

في عام ١٨٨٥، وجه طبيب يدعى «چيبير» الدعوة إلى عالم النفس الفرنسي «بيير چانيه» إلى مدينة «الهافر» لمشاهدة تجاربه على مريضة تدعى «ليوني» كانت «ليوني» شخصية قابلة للتنويم بشكل مدهش، كما كانت تطيع الأوامر الذهنية التي يصدرها إليها «چيبير» عن بعد. كان «چيبير» يضعها في حالة الغشية والثبات بمجرد لمس يدها، إلا أن عالم النفس «چانيه» أظهر أن بإمكانه وضعها في حالة الثبات بمجرد أن يفكر في ذلك. وفي مناسبة أخرى استطاع استدعاء «ليوني» من مسافة بعيدة عن طريق أمر ذهني. اكتشف «چيبير» أن عليه أن يركز ذهنه بشدة حتى يتمكن هو الآخر من إصدار أوامر ذهنية مجردة إلى «ليوني»، وأنه إذا كان مشغول البال بأمر آخر كان يفشل في تحقيق ذلك ـ وهو ما يدفع إلى الاعتقاد بأنه كان يوجه نوعاً من الطاقة أو «الشعاع» إلى ذهنها.

وفي عام ١٩٢٠ أجرى العالم الروسي «ل. ل. ڤاسيليڤ» تجارب مماثلة على مريضة تعاني من شلل هيستيري في الجانب الأيسر من جسمها، أخضعها أولاً للتنويم ثم أصدر لها أمراً ذهنياً بأن تؤدي حركات مختلفة بكل أعضاء جسمها بما فيه الجانب المشلول؛ وأطاعت المريضة ونفذت كل الأوامر (في عام ١٨٩٠ قام الدكتور «بول چوار» بإجراء التجربة نفسها باختلاف أن المريض لم يكن منوماً بل كان معصوب العينين فقط، واكتشف أن الأوامر الذهنية تتم الاستجابة لها حين يكون تركيزه العقلي عالياً جداً). مرة أخرى حكى «ج. ب. بريستلي» أنه كان يحضر ندوة ثقافية، وأخبر صديق له أن سيجعل إحدى الحاضرات تغمز له بعينها دون سابق معرفة بينهما، واختار إحدى الحاضرات

وكانت سيدة كئيبة الملامح، وركز ذهنه ونظره باتجاهها حتى غمزت له بعينها فجأة. بعد ذلك أخبرته أنها أحست بإلحاح نفسي سخيف أن تغمز له بعينها حين كان ينظر إليها.

وسيان قبلنا أم لم نقبل مفهوم أن التنويم إلى حد ما نوع من «التخاطر» الذهني، لا يوجد أدنى شك حول وجود ذلك التأثير، ولا حول الطبيعة المحيرة للظاهرة بأجمعها.

فالحيوانات على وجه التخصيص من السهل تنويمها، وهي حقيقة كان أول من سجلها عالم رياضيات يدعى «دانييل شوينتر» عام ١٦٣٦.

لاحظ «شوينتر» أنه لو تم تثبيت قطعة خشب صغيرة معقوفة على منقار دجاجة، فإن الدجاجة تثبت عينيها على قطعة الخشب ثم تدخل في حالة غشية وسبات. وأنه بالمثل لو أمسك دجاجة ولامس منقارها بالأرض ثم رسم خطا بقطعة طباشير على الأرض بدءاً من نقطة التلامس فإنها تظل ثابتة على وضعها نفسه دون حركة. بعد ذلك بعشرة أعوام وصف قس چزويتي يدعى «أثناسيوس كيرشر» تجربة مماثلة أجراها على الدجاج، في تلك التجربة وضع رأس الدجاجة تحت جناحها ثم أرجحها عدة مرات في الهواء؛ ولاحظ أنها تظل بعد ذلك على الوضع الذى تترك فيها دون قدرة على الحركة (مازال القرويون الفرنسيين يستخدمون تلك الوسيلة حين يشترون دجاجاً حياً من السوق لإبقائه ساكناً). واكتشف دكتور «جولش» أن الضفادع يمكن تنويمها وذلك بقلبها على ظهورها ثم النقر بالإصبع على موضع المعدة، كما أن الطرقعة المفاجئة بالأصابع فوق رأس الضفدعة من الممكن أن تؤدى إلى النتيجة نفسها.

سرطان البحر أيضاً من الممكن تنويمه وذلك بالنقر الخفيف على صدفته من الرأس باتجاه الذيل، ومن الممكن إفاقته من غشيته بالنقر في الاتجاه المعاكس. وفي كتاب «تنويم الإنسان والحيوان» (نشر عام ١٩٦٣) يصف كاتبه «فيرنيك إندراس ڤولجيزى» كيف يقوم الإفريقيون بتنويم الأفيال، فهم يربطون الفيل أولاً إلى شجرة ثم يقوم الوطنيون بالتلويح أمام عينيه بفرع شجرة غزير الأوراق للأمام والخلف في الوقت الذى يدمدمون فيه بلحن رتيب ممل أحادى

النغمة، وفى الحال ترمش عيناه ثم يغمضهما ويظل بعدها هادئاً ساكناً، ثم يربط بعد ذلك إلى فيل آخر مدرب ليعملا معاً فى مختلف الأغراض المطلوبة، ولو عاودته حالة الثورة والهياج، تكرر الخطوات نفسها، وتأتى التجربة ثمارها فوراً.

وصف «ڤولجيزى» أيضاً الطريقة التى تسلب بها الأفاعى فريستها من الكائنات المختلفة القدرة على الحركة، وبغض النظر عن شيوع تلك القصص على ألسنة العجائز من الريفيات، فقد سجل كثير من العلماء تلك الحقيقة، فالأفعى يمكنها أن تسلب الضفادع والأرانب وكائنات أخرى قدرتها على الحركة بمجرد تسليط نظرة حادة على عيون ضحاياها ـ وفى تلك النظرة توسع الأفعى حدقتى عينيها إلى أقصاها ـ ويصحب تلك النظرة إصدار فحيح مخيف. إلا أن «ڤولجيزى» رأى بنفسه ـ كما سجل ذلك تصويراً ـ ضفدعة كبيرة تفوز فى معركة «التنويم» على ثعبان. ومرة أخرى راقب سحليتين تواجهان بعضهما لمدة عشر دقائق بلا أدنى حركة، كلاهما متحفز لأقصى درجة، ثم تقدمت إحداهما ببطء وقامت عن قصد بالتهام الأخرى بادئة برأسها. مرة أخرى يتضح أنها كانت معركة مواجهة فى التنويم.

ومن الواضح أن ما يحدث فى مثل تلك الحالات أن واحد من الكائنات يخضع إرادة الكائن الآخر لإرادته هو. ولاحظ «ڤولجيزى» أيضاً أن التنويم من الممكن أن يحدث بعد صدمة مفاجئة. فقد يحدث مثلاً لطائر بعد جذبه بعنف مفاجئ، أو إصدار صوت عال مفاجئ. ولاحظ بفطنته أن إحداث التنويم والغشية له علاقة بالخوف المفاجئ ـ الخوف المفاجئ يتسبب فى إفراز كميات كبيرة من هرمون الأدرينالين تسرى فى الدم، وبدلاً من تحفيز الكائن، فإنها تشل حركته. (كلنا مررنا بحالات من الإحساس بالضعف الشديد والوهن المفاجئ إثر خوف لحظى وطارئ).

كيف يمكن أن نفسر ظاهرة التنويم؟

من المعروف أن الأجسام البشرية تشبه الآلات إلى حد بعيد؛ والإرادة هى التى تقود تلك الآلة البشرية. فى التنويم، تستولى على إدارة الآلة إرادة أخرى.

عندما يملأنى العزم والتصميم، أرفع درجة حيويتى الذهنية وأركزها، وفى التنويم يحدث العكس؛ تختزل الحيوية الذهنية فجأة إلى حدها الأدنى كما «يتشتت» الانتباه، فى تلك الحالة «تطيع الآلة» إرادة المنوِّم كما تطيع السيارة إرادة سائق آخر غير سائقها.

هناك جانب آخر يختص بتلك الآلية لابد من ذكره، فحين نركز انتباهنا على هدف مهم فإننا نوجه إليه كل انتباهنا، تماماً مثل رجل الإطفاء الذى يوجه فوهة خرطوم الماء إلى مركز اللهب. فى تلك الحالة لا أسمح لنفسى بالتشكك فيما أفعله، كما لا أسمح بتسلل التراخى، ولا أسمح لتركيزى بالانسحاب والتقهقر إلى عالمى الداخلى الخاص، لأن كل ذلك سيؤدى إن حدث إلى إضعاف قوة وحيوية تركيزى على الهدف كما تقل قوة ضخ المياه على مركز الحريق. لو تخيلنا الثعبان فى مواجهة الضفدع، أو السحليتين المتواجهتين فى تحفز مطلق، سنجد أنهما مثل رجلى إطفاء يوجه كل منهما فوهة خرطومه نحو الآخر. من يتشكك منهما قبل الآخر، ومن يقل تركيزه بانسحابه إلى عالمه الداخلى الخاص يصبح الضحية والفريسة.

وهناك مرجع آخر ومصدر مهم فى مسألة التنويم هو العالم «بيرنارد هولاندر»، وهو يذكر فى كتابه «التنويم والتنويم الذاتى» (نشر فى لندن عام ١٩٢٨) أن حالة التنويم تعد إلى حد بعيد حالة من «الانفصام الشديد». وعلى ذلك فحين يحملق تلميذ يستولى عليه الملل وهو فى غرفة الدراسة إلى خارج نافذة الفصل ويشرد ذهنه فإنه فى تلك اللحظات لا يفكر فى شىء معين وهو فى الوقت نفسه فى حالة مخففة من حالات التنويم، ويكون المدرس محقاً حين يصيح «إصح يا چون». فالتلميذ يكون قد انسحب إلى عالمه الشخصى ولكن بغير تركيز ذهنى على مسألة بعينها، كما لو كان يحاول أن يتذكر شىء ما. يبدو التنويم كحالة يكون فيها الذهن «فى مكان آخر» ولكنه ليس فى مكان محدد على وجه التخصيص.

ويثبت كتاب «ڤولجيزى» بوضوح شديد أن هناك جانباً عجيباً خاص بالعقل. فالفيل الهائج يصرخ ويشب وهو فى حالة هياج وثورة - ويبدو هذا

طبيعياً ومقبولاً أو يمكن تفهمه ـ ثم يتحول إلى حالة من الهدوء والاستئناس المطلق بعد التلويح بغصن شجرة أمام عينيه وذلك أمر مذهل ومحير. وكذلك السحالي ـ بل حتى التماسيح ـ يمكن وضعها فى حالة غشية بالضغط الرقيق على عنقها، ويبدو لنا ذلك بدوره غير حقيقى، فما الذى تفعله الطبيعة لتجعل تلك الكائنات على تلك الحالة من الضعف؟

يبدو أن الإجابة على ذلك التساؤل تكمن فى أن ذلك الضعف ليس «إرادياً» من جانب تلك الكائنات بما فيها البشر. وهذا الضعف مثله مثل ارتكاب جريمة، فهى غلطة، صفة سلبية ظهرت فى سياق عملية تطور وتنمية الصفات الإيجابية الأخرى. فمن أجل بناء وخلق آلية معقدة ـ ويبدو أن ذلك هدفاً أساسياً ـ تخلق الحياة آليات أخرى مقابلة. وكلما تعقدت الآليات، بات مصاحباً لها عيوب وأخطاء موازية ومساوية. فكلما زادت ضخامة السيارة وتجهيزاتها تستهلك وقوداً أكثر؛ والأمر كذلك فى الكائنات الحية الضخمة فهى تستهلك فى سياق أنشطتها كثيراً من الحيوية. ولو كبلت تلك الحيوية فجأة أو تلاشت لا يصبح للكائن إرادة حرة.

والإنسان كما يشير «ڤولجيزى» أكثر تعقيداً بمراحل كثيرة من الطيور والحيوانات إلا أن المبادئ نفسها تنطبق عليه. لقد لاحظ «ڤولجيزى» أن أكثر البشر قابلية للتنويم هم أولئك المتصفون بـ«تركيبة عصبية». فالأشخاص الأذكياء المهرة ذوى الحساسية المفرطة أسهل كثيراً فى تنويمهم عن الأغبياء غليظى الحس. لقد لاحظ أن شديدى الحساسية عادة ما تكون أكفهم رطبة حتى إنه يمكنه من مجرد مصافحة شخص ما معرفة إن كان من الممكن تنويمه أم لا. وهو يشير إلى أولئك الأشخاص ذوى القابلية العالية للتنويم باسم «ذوى النفسية السلبية». أما الأشخاص ذوى الكفوف الجافة كما يستشعرها بالمصافحة فيطلق عليهم «النشطين نفسياً» وهم فئة قابلة أيضاً للتنويم ولكن بتعاون كامل من الشخص ذاته، وأحياناً بالاستعانة بتيار كهربائى بسيط.

والملاحظة السابقة التى سجلها «ڤولجيزى» ذات أهمية فائقة، فهى تعنى أن الأذكياء المهرة ذوى الحساسية العالية دائماً ما يكونون على درجة منخفضة من

الحيوية، فهم يتركون أنفسهم للاستسلام للملل ويتكدرون بسهولة أكثر من غيرهم، ويشبه ذلك وجود تيار ماء ضعيف غير كاف لإدارة الطاحونة المائية. ولأن حيويتهم النفسية أقل مما يجب أن تكون عليه، فإنه يصبح من السهل اختزالها إلى مستويات أقل بالإيحاء، ثم سحبهم بعد ذلك وإدخالهم فى حالة من الغشية.

لقد سجل «هاينز همرشلاج» فى كتابه «التنويم والجريمة» حالة معالج نفسى دخل فى مناقشة حول التنويم فى أحد الفنادق. واستدار مسلطاً نظره بثبات على شاب قريب كان جالساً على أريكة؛ وبادره الشاب بالحديث قائلاً: «لا تنظر إلىَ بهذه الطريقة، لم أعد قادراً على تحريك ذراعى» ثم غرق فى حالة ثبات وعيناه مغلقتان. كان ذلك إيحاءً ذاتياً تماماً. ويحكى «همرشلاج» قصة طريفة أخرى عن أحد خفيفى الظل - ربما كان طالب طب - نوّم فتاة كانت فى حالة هيستيرية اسمها «بولين» فى أحد الأقسام بالمستشفى الذى كان يتدرب به وأمرها أن تذهب فى الساعة الرابعة من بعد ظهر ذلك اليوم لاحتضان راهب المستشفى. وحين حاولت الفتاة مغادرة القسم فى الساعة الرابعة منعتها الممرضات إلا أنها قاتلت بشراسة لتحقيق غرضها. وشك أحد الأطباء أنها تحت تأثير تنويمى ووضعها تحت التنويم من جديد وجعلها تحكى له ما حدث من المنوم الأول فأحضروه لكى يزيل أثر الأمر الذى أمرها به، إلا أن الفكرة ظلت تسيطر عليها من آن لآخر حتى سمحوا لها فى النهاية باحتضان الراهب الذى تفهم المشكلة.

فى حالة مثل الحالة السابقة تكمن المشكلة فى أن الحالة العقلية والذهنية للفتاة أثناء نوبة الهيستيريا تكون فى حالة أقرب إلى النوم ويكون الذهن فى تلك الحالة على الحدود الفاصلة بين النوم واليقظة. أى أنها فى حالة ذهنية «أقل حيوية». ولهذا السبب فهى تعيش فى حالة مستمرة خارج إطار الواقع، كما أن فشلها فى البداية فى تحقيق احتضان الراهب اختزل حالتها الذهنية إلى حالة من العصاب، وبدون تحريضها بوسيلة ما لبذل جهد أكبر لرفع حيويتها الذهنية، فإنها تظل فى حلقة مفرغة، فالعصاب يختزل حيويتها الذهنية ويجعل العالم

بالنسبة إليها غير واقعي وتراه غير حقيقي، ويجعلها إحساسها المتدني بالواقع تشعر أن لا شيء يستحق الاهتمام، فتزيد اللاواقعية والعصاب.

ومدرس الفصل الذى يصيح «إصح يا چونز» هو فى الحقيقة يطلب من «چونز» أن يزيد من طاقته الذهنية ويركزها، أن يرفع من درجة حيوية الذهن.

توصل «ڤولجيزى» إلى النتائج نفسها مستعيناً بنثر قليل من حامض الكبريتيك المخفف على الضفادع بعد وضعها فى حالة غشية. فما الذى يحدث بالضبط حين يوقظ شخص فجأة من حالة الثبات والغشية؟ تتحطم الحلقة المفرغة؛ فالذات الأساسية، الذات التى تتوافق وتستجيب للعالم الخارجى، تقفز فجأة إلى انتباه الشخص.

من الممكن توضيح المسألة بشكل أدق بالاستعانة بمصطلحات «تومسون ج. هدسون» الذى وضع كتاباً رائعاً ومتميزاً عام ١٨٩٣ أسماه «قانون الظاهرة النفسية» (كلمة نفس تعنى ببساطة هنا الذهن والعقل). كان «هدسون» طالباً يدرس علم التنويم وقدم للعالم ذلك المفهوم المثير من أن للبشر ذهنان أو «ذاتان»: هما الذهن الموضوعى والذهن الذاتى فالعقل الموضوعى هو العقل الذى يحتوى على ويتعامل مع الجانب العملى من الحياة، وهو الجانب الذى يتعامل ويتوافق مع المشاكل الخارجة عن الذات. أما الذهن أو العقل الذاتى فهو موجه إلى الداخل، وهو يتعامل ويتوافق مع المشاكل الداخلية، وهو الذى «يكثف» الطاقة حين نحتاج إليها. (وكما سنرى فيما يلى، فإن الأبحاث الحديثة ترى أن الذهنين أو «الذاتين» يقعان فى النصفين الأيسر والأيمن من المخ على الترتيب). وبالتالى يصبح المنوِّم هو «العقل الموضوعى» للمنوَّم، ويطيع المنوَّم أوامر المنوِّم كما لو كان المنوِّم عقله الموضوعى ذاته.

حين يغطس الطالب فى أحلام اليقظة، فإنه يكون قد انتقل إلى العقل الذاتى، وتدفعه صيحة المدرس المفاجئة إلى الانتقال إلى الواقع والعالم الحقيقى، إنه يوقظ العقل الموضوعى.

وهنا نصل إلى أهم النقاط حيوية فى الموضوع بأجمعه. فأنت لا تحتاج أن تكون فى حالة «فصام» أو أحلام يقظة حتى تكون منوماً أو فى «غشية»، فكر

مثلاً في الحالة الافتراضية التالية:

أنت متعجل تريد أن تصل بسرعة إلى موقع عملك لأنك تأخرت عن الموعد المحدد وهناك حالة ازدحام شديد وبطء في حركة المرور. كل إشارة مرور حمراء كأنها معادية لك ويزداد غضبك وغيظك بمرور الوقت. تتحول إشارة المرور بعد زمن تخاله دهراً من الأحمر إلى الأخضر، إلا أن السيارة التي أمامك لا تتحرك. حين تكون على وشك إخراج رأسك من نافذة سيارتك لتسب سائق السيارة التي أمامك، يلتفت فجأة برأسه تجاهك وتكتشف وأنت في قمة الغيظ أنه رئيسك في العمل. في أقل من لحظة يتلاشى غيظك، فما الذي حدث؟ الغيظ والتوتر أدخلاك في حلقة مفرغة من التوتر الداخلي المتزايد، ويؤدي ذلك بدوره إلى المبالغة في حكمك على الأمور، أي تصبح أحكامك شخصية وذاتية. وغيظك الشديد من المرور وإشاراته التي توقفك غير منطقي تماماً، فالسيارات الأخرى التي تسلك الطرق المتقاطعة مع طريقك لها الحق نفسه أن تمر في اتجاهها أيضاً. وإشارات المرور تعمل بطريقة آلية؛ أي أنها لا تتحول إلى اللون الأحمر لأنها تراك قادماً.

وفي اللحظة التي تدرك فيها أن من أوشكت على سبه هو رئيسك في العمل يحل الواقع فجأة على ذهنك مثل طرقعة أصابع المنوِّم فوق رأسك. وهي اللحظة التي تنكسر فيها الحلقة المفرغة ويحل بسرعة عقلك الموضوعي محل عقلك الذاتي. لقد كنت على وشك اقتراف فعل أو التلفظ بسباب قد يترتب عليه فقدك لوظيفتك أو على الأقل حرمانك من فرص الترقي في عملك بسبب نوبة من نوبات الغيظ والغضب. وتطلق زفرة ارتياح إنك انتبهت لشخصية رئيسك في اللحظة المناسبة. يشبه ذلك إلى حد بعيد أنك كنت نائماً أو منوماً وأوقظت. لذلك فالتنويم ليس ببساطة حالة من الثبات، فهو كما يذكر «هولاندر» حالة من الفصام ـ أي الوقوع في مصيدة الحلقة المفرغة للذهن الشخصي، وفقد الصلة بعالم الواقع.

وهناك تماثل واضح بين الحالة السابقة وذلك الغيظ الأعمى الذي استولى على «تشارلز مانسون»، و«چون فرازيير»، وعلى «إيان برادي»، ويؤدي ذلك

إلى إدراك أن «الهيمنة التنويمية، التى مارسها «مانسون» على اتباعه، وتلك التى مارسها «برادى» على «مايرا هندلى»، كانت هيمنة تنويمية صادرة عن أشخاص منوّمين. وكما حدث مع فتاة الهيستيريا بالمستشفى التى أصرت على احتضان راهب المستشفى، كان «مانسون» هو الآخر محاصراً ذاتياً داخل عالم غير واقعى.

هل يعنى ذلك أن المجرم «ليس مسئولاً عن جريمته»؟

كلا، على الإطلاق.

لأن الحلقة المفرغة بمفهوم أساسى، اختيار ذاتى. حين ينتابك الغضب فى زحام المرور، فأنت تستسلم لغضبك بدلاً من أن تقنع نفسك بطريقة واقعية أنك بذلك الغضب إنما تستهلك طاقتك النفسية بلا طائل. جزء منك يظل منفصلاً. ولكن إن تحول الغضب ليصبح عادة، فإن ذلك الجزء المنفصل يفقد القوة تدريجياً، ويصبح منغمساً فى الغضب. تلك الآلية يمكن أن نراها بوضوح فى رواية ديستويفسكى الشهيرة «الجريمة والعقاب» فـ«راسكلينكوف» يزداد غضبه وضيقه من فقره، ومن إحساسه باعتماده فى حياته على أسرته الفقيرة، وأخذ ذلك بالتدرج يدخله فى آلية الحلقة المفرغة حتى أوصله ذلك إلى مرحلة رأى فيها أن قتل العجوز المرابية أمر مبرر ومشروع للاستيلاء على ما كنزته من أموال.

إن جوهر «التنويم» هو «إغلاق» جزء أو جانب من الواقع، أن ترفض الاعتراف بوجوده ـ وهو فى الحالة التى نتحدث عنها من رواية «دستويفسكى» أن المرابية العجوز كائن بشرى مثله تماماً. وتظهر أحداث الرواية أن «راسكلينكوف» يستيقظ ببطء بعد أن قتلها ليدرك ذلك.

كل ذلك يظهر بشكل حاسم أن كل الجرائم تحتوى على عنصر من «التنويم الذاتى».

فى دراسة لـ«إريك كاهلى» عن النظم الشمولية المعاصرة تحمل اسم «البرج والهاوية»، يحكى فى أحد فصولها عن المذبحة التى وقعت بقرية فرنسية

اسمها «أورادور ـ سورجلان» في يونيو عام ١٩٤٤ والتى ارتكبتها قوات «هتلر» الخاصة ضد سكان القرية. رداً على نشاط رجال المقاومة الفرنسية فى المنطقة قام الجنود الألمان بجمع كل سكان القرية وأمروهم بالتوجه إلى ساحة السوق. ثم فصلوا النساء والأطفال وساقوهم إلى كنيسة القرية. لم يصب أى أحد بالفزع حتى تلك اللحظة فقد كان الألمان يضحكون ويمزحون ويداعبون الأطفال. ثم، وعند إشارة معينة من القائد، فتح الجنود النيران على الرجال المتجمعين وقتلوهم حتى آخر رجل. وأضرموا النار فى الكنيسة التى جمعوا بها النساء والأطفال وأحرقوهم أحياء. حين حاول بعض الأطفال الفرار من النيران كان الجنود يمسكونهم ويلقون بهم داخل الكنيسة المشتعلة. وذكر رجل سويسرى شهد المذبحة بقوله: «أنا مقتنع أن أولئك الجنود لم يشعروا بأى كراهية تجاه الأطفال الفرنسيين حين كانوا يحملونهم ويداعبونهم، ولو جاءتهم أوامر عكسية كانوا سيستمرون فى مداعبة الأطفال واللعب معهم». ولكن كان الجنود الألمان «تحت تأثير الأوامر»، وكان للأوامر نفس تأثير التنويم المغناطيسى.

لقد «أغلق» الجنود واقع أن الضحايا نساء وأطفال وقاموا «بواجبهم» المخادع، والمحتال يخدع ضحاياه بالطريقة ذاتها؛ وهو قد يشعر بمشاعر حقيقية وحميمة من الود تجاه ضحاياه، وهو بدوره يتودد إليهم حتى يكتسب ثقتهم. إلا أن النية المضمرة فى خداعهم تظل كما هى ولا تتأثر بمشاعر الود التى أحسها تجاههم فى لحظة ما.

كذلك عائلة «مانسون» التى قتلت الممثلة الشهيرة «شارون تيت» وضيوفها فقد قاموا بعملية القتل وهم فى حالة «إغلاق» للواقع. و«مايرا هندلى» التى عاونت «برادى» فى قتل الأطفال كانت محبة جداً للأطفال، وحين علمت أن كلبها قتله رجال الشرطة رحمة به بعد أن حقنوه بمخدر انفجرت فى ثورة هائلة وهى تصرخ فيهم: «لستم إلا مجموعة من القتلة سفاكى الدماء». لأسباب ما أصبحت «مايرا» شخصيتان.

وبالرغم من أن الجريمة ـ خاصة جرائم العنف ـ تحتوى على ذلك العنصر من

«الانفصام» أو «الاختلال» إلا أنها أيضاً (الجريمة) محاولة للفكاك من تلك الحالة. لقد علق القاتل الجنسى «چون كريستى» بعد أن قام بخنق واغتصاب إحدى ضحاياه قائلاً: «مرة أخرى شعرت بذلك الهدوء وتلك الإثارة الجميلة الممتعة، لست نادماً على ما فعلت». لقد أزال القتل كل التوتر الذى جعله محاصراً فى حلقة مفرغة بين انفعالاته ورغباته، لقد استيقظ من جديد بعد ارتكاب إحدى جرائمه كما يستيقظ التلميذ فى الفصل من شروده على صيحة المدرس «إصح يا چونز».

يمكن أن نتبين نفس العنصر فى الجرائم الصغيرة التى ارتكبها «ليوبولد» و«لويب» قبل أن يصل بهم الأمر إلى قتل «بوبى فرانكس». كان «لويب» هو الذى يشعر «بالإثارة» بارتكاب الجرائم؛ كانت الجرائم تمثل له المقابل للعبة الروليت الروسية المميتة والتى يشعر معها بالارتخاء والراحة العميقة بعد كل فوز أو نجاة. (على كل الأحوال، كان القبض عليه فى جريمة سرقة يعنى بالنسبة له ولأسرته عاراً كبيراً وخزياً اجتماعياً). كانت الجريمة هى وسيلة «لويب» لإفراغ التوتر وإيقاظه وإعادته إلى الواقع.. مرة أخرى كما يوقظ تلميذ الفصل من شروده. ويمكن أن يكون ذلك أيضاً مفتاحاً لفهم حالة جرائم المستنقعات. فحين قتل «برادى» «إدوارد إيڤانز» وهى آخر جرائمه، كان يحاول أن يورط «دافيد سميث» بهدف ضمه إليه وتكوين عصابة إجرامية، أما الهدف الأبعد فهو القيام بعمليات سطو على البنوك. فإذا افترضنا أنه كان يخطط للسطو على البنوك من البداية، فإنه كان يعتبر أن عمليات القتل ليست إلا تدريباً لتحقيق الجريمة «الكبرى». كان قصد «برادى» أن يحقق ذاته كمعادٍ للمجتمع، أى ما يطلق عليه فى الثقافة الإنجليزية «عدو المجتمع رقم واحد» مع فارق أنه مثله مثل «تشارلى بيس»، كان يأمل ألا تنكشف جرائمه ويحيا عمره فى سعادة بما حققه من مكاسب، فقد رأى أن الجريمة وسيلة للحياة تنطوى على تحفز وإثارة بالغة.

يمكننا أن نلاحظ جانب آخر مثير فى ذلك النمط. فعلى أى مستوى من مستويات الاحتياجات البشرية، تحتوى الجرائم على عنصر يصل بها إلى

المستوى التالى فى ترتيب تلك الاحتياجات. جرائم «تشارلى بيس» كانت جرائم تهدف إلى الحصول على القوت الضرورى للبقاء على قيد الحياة، وهو دافع قوى للحصول على الأمان والمأوى. أما الجرائم «المنزلية» العديدة مثل جرائم د. «بريتشارد» و«كونستانس كنت» و«اديليد بارتليت» فتحتوى على عنصر مغاير وهو عنصر قوى من السادية يصل بها إلى المستوى الجنسى. كذلك جرائم «چاك» السفاح الجنسية تحتوى بدورها على عنصر قوى من الاستعراض ـ فى طريقة خزن الجثث ورسائله الغامضة إلى الشرطة ـ يصل بها إلى المستوى التالى من مستويات الاحتياجات البشرية وهو مستوى تحقيق الذات وغرور الذات، ومثلها أيضاً جرائم «مانسون» و«برادى» تحتوى على قدر مشوه من تحقيق الذات، يصل بهـا إلى المستوى الأخير من مستويات الاحتياجات البشرية وهو مستوى الخلق والإبداع. (فى كتابى المسمى «مراتب القتلة» صنفت أمثال أولئك القتلة كمغتالين وهم الذين يقتلون كوسيلة عنيفة للتعبير عن الذات)، ويمكن أن نجد علاقة وثيقة وواضحة بين مثل تلك الجرائم وبين ما يطلق عليه الفن العنيف لرسامين من أمثال «مونك» و«إنسور» و«تسوتين» أو «بولوك».

هناك حالة تتجاوز كل الأشكال الأخرى، وتجسد الجريمة التى تصل إلى تحقيق المستوى الأخير من مستويات الاحتياجات البشرية وهو مستوى الخلق والإبداع أى تصبح فيه الجريمة «عملاً إبداعياً»، وهى حالة غير مشهورة خارج الدولة التى وقعت فيها وهى «السويد»، وقد تفيد كمثل توضيحى لتأكيد الخيوط الرئيسية للفرضيات السابقة، إنه دكتور «سيجفارد ثورغان»، الذى اقترب أكثر من «تشارلز مانسون» من تحقيق حلم ثورة الرجل الوحيد.

ففى عام ١٩٣٠، صدمت مدينة «سالا» وهى مدينة صغيرة قريبة من «ستوكهولم» بموجة من الجرائم التى لم تعتدها. بدأ الأمر فى ١٦ نوفمبر عام ١٩٣٠ بالعثور على جثة عامل كان يعمل فى مزرعة ألبان يدعى «سڤين أريكسون» وكانت الجثة ملقاة فى بحيرة شبه متجمدة بالقرب من مدينة «سالا»؛ كان «أريكسون» قد اختفى قبل يومين من العثور على جثته أثناء عودته

من عمله بمزرعة الألبان. كانت هناك آثار أعيرة نارية بالصدر ـ ومن الواضح أنه كان مشتبكاً مع قاتليه في صراع عنيف حيث كانت ملابسه ممزقة في مواضع مختلفة، كما كان وجهه مصاباً بكدمات وسحجات. وكشف تشريح الجثة أنه كان مازال حياً حين ألقوا به في البحيرة بعد إطلاق النار عليه. لم تكن السرقة دافعاً للقتل حيث عثرت الشرطة على أجره الأسبوعي موجوداً بحافظة نقوده. وذكرت زوجته أنه كان يعاني من بعض نوبات التوتر العصبي حتى إنه لجأ إلى طبيب لمعالجته من تلك النوبات إلا أنها لم تذكر أي سبب يدفع بأي إنسان إلى قتله. وبذلك لم يجد رجال الشرطة أي مفتاح يمكن أن تحل من خلاله لغز تلك الجريمة.

خلال العامين التاليين وقعت جرائم أخرى لم تكن معتادة في مدينة «سالا»، كان منها ثلاث جرائم سطو. وجريمتي سرقة سيارات. ويبدو أن الفاعل كان حذراً بطريقة غير معتادة أو محظوظاً أكثر مما يتمنى، لأن الشرطة لم تجد خيطاً واحداً يدل على الفاعل في أي من تلك الجرائم.

وفي الساعات المبكرة من صباح ١٥ سبتمبر عام ١٩٣٣، أسرع رجال الإطفاء لمكافحة حريق شب في منزل في وسط المدينة. كان المنزل يخص مسئولاً عن أحد المحاجر وهو رجل غني يدعى «إكسيل چيلبرج». كانت النيران شديدة إلى درجة تعذر معها إنقاذ أي إنسان من داخله. وبعد إخماد النيران تم إخراج جسدين متفحمين وكانتا لچيلبرج صاحب المنزل ومدبرة المنزل. وبفحص الجثث وجد أنهما كانا مصابان بأعيرة نارية في الرأس، وبدا أن الدافع للجريمة السرقة فقد كان «چيلبرج» قد أعد أجور عمال المحجر في اليوم السابق على الحريق وحفظها في خزانة المنزل، ويبدو أن المعتدين قد أجبروه على فتح الخزانة حيث وجدت مفتوحة وخالية بين الأنقاض. في العام التالي وقعت بعض حوادث السطو إلا أنها لم تكن على نفس الدرجة من الخطورة، إلا أن أهل المدينة الصغيرة اضطروا إلى تكوين مجموعات مراقبة للمرور في شوارعها ليلاً. وفي ١٢ أكتوبر عام ١٩٣٤، لاحظت إحدى تلك المجموعات أن منزل السيدة «تيلدا بلومكفست» تشتعل به النيران فأطلقوا أجراس الإنذار، وتم

السيطرة على الحريق وقاموا بإنقاذ سائق السيدة وزوجته من المنزل كما عثروا على جثة صاحبة المنزل بغرفة نومها ولم تكن هناك آثار عنف. ولم يحدد تشريح الجثة سبب الوفاة بشكل مؤكد، كل ما أمكن تحديده أنها ماتت مختنقة مع أن الحريق لم يصل إلى غرفتها ولا حتى دخان الحريق كما أثبت تحديد زمن الوفاة أنها ماتت قبل اشتعال النار في المنزل. أما الدافع فقد كان بغرض السرقة فقد كانت السيدة «بلومكفست» أرملة غنية في الستين من عمرها، وتبين أن أموالها ومجوهراتها قد اختفت. وذكر من يعرفونها أن حالتها الصحية كانت متردية، وأن اهتماماتها انحصرت في الروحانيات وممارسة اليوجا. ومرة أخرى وجد رجال الشرطة أنفسهم أمام طريق مسدود.

بدأ الحظ في التغير في ١٩ يونيو ١٩٣٦ مع العثور على عامل تسوية أحجار بناء على مشارف المدينة بعد أن أصيب بأعيرة نارية. كان عائداً على دراجته إلى المحجر حاملاً معه رواتب العاملين. إلا أن الحظ ابتسم لرجال الشرطة هذه المرة حيث كان هناك شاهداً رأى ما وقع. كان الشاهد رجلاً عجوزاً وكان يتمشى بحديقة منزله حين مر القتيل «بترسون» أمام منزله على دراجته، بعد لحظات سمع صوت الطلقات النارية فخرج إلى الشارع مستطلعاً فرأى رجلين يجران «بترسون» إلى حافة مصرف المياه ثم ركبا سيارة أمريكية سوداء وفرا بها من مكان الحادث فالتقط بسرعة أرقام السيارة. بعدها بساعات مات «بترسون» دون أن يعود إلى وعيه؛ كان مصاباً بطلقات نارية في صدره وبطنه.

لم تزود أرقام السيارة رجال الشرطة بدليل مفيد فقد كانت السيارة التى تحمل الرقم الذى ذكره الشاهد غير أمريكية الصنع كما كانت موجودة بمرئب صاحبها طول يوم الحادث ولم تغادره وكان لدى مالكها أدلة قاطعة وشهود على صحة ذلك. ولكن كان هناك بلاغ عن سيارة أمريكية برقم مشابه كانت قد سرقت من مدينة أخرى وكان من الواضح أن أرقام لوحاتها قد بدلت. قرر رجال الشرطة المناورة بإثارة فزع الجناة فصرحوا للصحف أنهم يبحثون عن سيارة شيفروليه تم تغيير أرقام لوحاتها ـ وذكروا الرقم ـ وأعلنوا أنهم ينوون تفتيش كل مرائب السيارات. ونجحت الخطة، ففى اليوم التالى عثروا على

السيارة المسروقة مهجورة على جانب الطريق بالقرب من مدينة «سالا». كانت أرقام اللوحة قد بدلت بطريقة غير متقنة وبدأ رجال الشرطة فى بحث شامل ومتأن لكل مرائب السيارات ومحلات أشغال المعادن. وأخيراً، توصلوا إلى ما يبحثون عنه، فقد اعترف عامل شاب أنه هو من قام بتزوير أرقام لوحة السيارة حين كان يعمل بمرئب سيارات يدعى صاحبه «إريك هيد ستروم»، وهو رجال أعمال فى مدينة «كوبنج» القريبة من «سالا». وطبقاً لاعتراف العامل فإنه عمل لدى «هيد ستروم» لبضعة أيام فقط طلب منه أثناءها تغيير أرقام السيارة وقد لبى له طلبه دون تردد، وبعد ذلك سأله «هيد ستروم» إن كان يرغب فى المشاركة فى سرقة مندوب بنك فطلب منه أن يمهله فترة للتفكير، وفى اليوم التالى اتصل به وأخبره أنه قد عثر على عمل آخر.

توجهت الشرطة لاستجواب «هيد ستروم» فى منزله، وكان شاباً ذى مظهر جيد ويتمتع بسمعة طيبة، إلا أنه عند استجوابه أنكر كل ما ذكره العامل. ولكن فى اللحظة التى غادر فيها رجال الشرطة منزله أسرع إلى الهاتف وطلب من مركز الهاتف إيصاله برقم فى «ستوكهولم». استعانت الشرطة بموظف مركز الهاتف وتبين أن صاحب رقم «ستوكهولم» طبيب نفسى يدعى «سيجڤارد ثورنمان». وتذكر الشرطى الذى عاين أول حادثة قتل فى مدينة «سالا» التى راح ضحيتها عامل مزرعة الألبان «سڤن أريكسون» أن زوجة القتيل كانت قد أخبرته أنه استشار طبيباً فى الأعصاب قبل مصرعه بفترة. وبسؤالها عن اسم الطبيب ذكرت أن اسمه «سيجڤارد ثورنمان». فى اليوم التالى استدعى محققى «ستوكهولم» الطبيب «ثورنمان» مدعين أنهم يجرون بحثاً عن العصاب والجريمة.

كان «ثورمان» ضئيل البنية، شاحب الوجه، ذو فم رقيق حازم وذقن منسحبة إلى الداخل مع تراجع خط الشعر مما جعل جبهته تبدو عريضة بالنسبة إلى وجهه الضئيل. كان فى أواخر العشرينيات من عمره. وطلب المحققين فحص ملفات مرضاه إلا أنه مانع بشدة، وحين رضخ فى النهاية، اكتشف المحققون أن «سڤن أريكسون» كان من مرضاه، كذلك كانت السيدة «بلومكفست».

تم استدعاء «هيد ستروم» للتحقيق، فى الوقت الذى قامت فيه الشرطة بتفتيش منزله. أصر فى التحقيق أن معرفته بدكتور «ثورنمان» سطحية وأنهما كانا زملاء دراسة وأنه كان يستشيره أحياناً فى بعض الأمور وأثناء التحقيق جاءت مكالمة تليفونية تبلغ المحققين أن رجال الشرطة عثروا على بندقية فى مرأب سيارته وأنها من ذات العيار الذى قتل به أريكسون وبمواجبة «هيد ستروم» بذلك قرر أنه سيعترف بكل شىء. اعترف أن الدكتور «ثورنمان» وراء كل تلك الجرائم وأنهما تعارفا أثناء دراستهما بجامعة «أوبسالا» حين جمعهما معاً الاهتمام بظاهرة التنويم، قال إنه وجد فى «ثورنمان» شخصية آسرة وذات هيمنة، وأنهما درسا معاً السحر والأديان والفلسفة، كان ذلك فى منتصف العشرينيات، كان «ثورنمان» عدا ذلك مسحوراً بالجريمة، وكانت وسيلته المحببة لقتل وقت الفراغ تدبير وتخطيط «الجرائم الكاملة»، واشترك معه «هيد ستروم» فى تلك الهواية، وفى عام ١٩٢٩ اقترح «ثورنمان» أن الوقت قد حان لتنفيذ جريمة كاملة لا يكتشف فاعلها وهو ما خطط له باتقان فى خياله طوال الأعوام السابقة، وكان حضور «أريكسون» العامل فى مصنع الألبان إليه كمريض هو ما أوحى له بالبدء بمصنع الألبان، كان «ثورنمان» يعالج «أريكسون» بالتنويم المغناطيسى، واستطاع أن يخضعه ليكون رجلهم داخل المصنع.

فى اللحظة الأخيرة وقبل الشروع فى التنفيذ غير «أريكسون» رأيه. وخشى «ثورنمان» أن يبلغ أريكسون الشرطة أو أن يخبر زوجته ويفتضح أمره، لذلك استدعى «هيد ستروم» واثنين آخرين من الاتباع الذين طوعهم وكلفهم بقتله. ومنذ ذلك الوقت، راح «ثورنمان» يكلفهم بارتكاب الجرائم التى كان يخطط لها بدقة متناهية، كما اشترك معهم بنفسه فى جريمة قتل وسرقة «إكسل چيلبرج» ارتدى ومعه «هيد ستروم» زى الشرطة (كان «ثورنمان» قد كلف مصمم أزياء مسرحى بحياكتها) حتى يأمن لهم «چيلبرج» ويفتح لهم باب المنزل فى ساعة مبكرة من الصباح. ثم قاما بقتل «چيلبرج» وزوجه بأعصاب هادئة، ثم أشعلا النار بالمنزل.

أما «تيلدا بلومكفست» فقد وقع عليها الاختيار بعد أن علم منها «ثورنمان» أثناء جلسات العلاج بالموضع الذى تحتفظ فيه بمجوهراتها وكانت أيضاً تحت التنويم حين علم منها بذلك المكان السرى. كان قتلها نموذجاً فريداً للتخطيط الجيد، فقد أحدث فتحة لا ترى في جدار غرفة نومها (كان المنزل مبنياً من الأخشاب مثل غالبية المنازل في اسكندنافيا) وأوصلا تلك الفتحة بخرطوم مطاطى يمتد من ماسورة عادم سيارة، فماتت مختنقة بعوادم غاز السيارة أثناء نومها، ثم استولوا على المجوهرات وأشعلوا النار بالمنزل.

وبمواجهة «ثورنمان» باعترافات «هيد ستروم» التى سجلها كتابة ووقع على صحتها، قرر «ثورنمان» أنه سيعترف. بعد ذلك كتب «ثورنمان» قصة حياته وهو فى السجن. واتضح من تلك المذكرات أنه عانى فى طفولته من عقدة نقص بسبب بنيته البدنية الضئيلة وصحته المعتلة. كان بشكل منفرد وبعمق وبشغف شديد مهتماً بالسحر والتأمل والتصوف لنيل القوة، قوة الإرادة والروح. فى الثالثة عشر من عمره أى عام ١٩٢١ بدأ التجريب بالتنويم ونقل الأفكار عن بعد مع زملاء آخرين وقرأ بشراهة كثيراً من كتب التصوف وممارسة السحر. فى سن السادسة عشر قابل رجل دانمركى غامض كان ماهراً فى اليوجا. فى عام ١٩٢٩ ادعى أنه كان فى «كوبنهاجن» وانضم إلى مجموعة تهتم بالسحر يديرها ذلك «الدانماركى» الغامض. فى طريق عودته لـ «استوكهولم»، كان قد بدأ فى تكوين مجموعته السحرية الخاصة، وصار يجمع كل أنواع الناس ويؤثر فيهم بطرقه الخاصة ثم يجعلهم يقسمون يمين الولاء له وأن يدينوا له بالطاعة العمياء وأن يحافظوا على سر الجماعة.

كان وضعه كقائد لجماعة السحرة يشعره بذلك الإحساس بالقوة الذى طالما تاق إليه وحلم به. استغل التنويم فى إغواء الفتيات القاصرات، ثم يتخلص منهن - طبقاً لاعترافاته - بتسليمهن إلى عصابات الرقيق الأبيض وشبكات الدعارة. كان باقى الجماعة يتعرضون لجسات تنويم وأعمال «التدريب على السحر» (بكل ما يتضمنه ذلك من معان). كان «ثورنمان» شاذاً جنسياً، ودخل فى علاقة حميمة مع عضو إحدى العصابات، وحين حلت بذلك الصديق ضائقة

مالية، خشي «ثورنمان» من افتضاح علاقتهما - كان الشذوذ الجنسي مازال محرماً في السويد في الثلاثينيات من القرن العشرين - فدفع بصديقه إلى الانتحار بعد جلسات من التنويم أوحى إليه فيها أن الخلاص في الانتحار. وفي عام ١٩٣٤، وضع عضو آخر من أعضاء الجماعة في حالة تنويم عميق ثم قام بحقنه بسم قاتل.

كان هدف «ثورنمان» أن يجمع ثروة ثم يهاجر إلى أمريكا الجنوبية. وحقق من عمليتي القتل اللتين نفذهما في مدينة «سالا» وراح ضحيتهما «إكسال چيلبرج» و«تيلدا بلومكفست» مالاً وفيراً. إلا أن «العملية الكبرى» التي كان يحلم بتحقيقها وخطط لها بشكل جيد كانت سرقة بنك يقع في المبنى نفسه الذي يضم مبنى بريد «ستوكهولم» المركزى. قامت جماعته بسرقة كمية من الديناميت - ٣٦ كيلو جراماً - وطبقاً للخطة تقوم الجماعة بنسف مبنى البريد المركزى بالديناميت، وأثناء الفوضى التي تتبع ذلك وتعم المنطقة إثر الانفجار يقومون بسرقة البنك بسهولة. واتضح أيضاً من مذكراته أنه كان متورطاً في تهريب المخدرات.

بدأت جلسات محاكمة «ثورنمان» في يوليو ١٩٣٦ ومعه «هيد ستروم» وثلاث شركاء آخرين ساعدوا في قتل «أريكسون» و«باترسون». وحكم عليهم جميعاً بالسجن مدى الحياة، وبعد ستة أشهر أصابت «ثورنمان» نوبة جنون راح ينزلق إليها بسرعة فنقل إلى مصحة أمراض عقلية تابعة للسجن.

تلقي حالة «ثورنمان» ضوءاً قوياً على الفجوات والمكونات الخفية الكامنة بالتركيبة النفسية للقاتل الذي يقوم بالقتل عند مستوى تحقيق الذات وهو المستوى الرابع من مستويات الاحتياجات البشرية. فقد كان «ثورنمان» من نمط المجرمين الذي تمنى كل من «تشارلز مانسون» و«إيان برادى» أن يكونا. لقد كانت «هيمنته» على جماعته الإجرامية (العصابة) التي كونها «كاملة». وقبلته الجماعة بلا تردد ولا تشكك قائداً لها؛ وخضعت له الفتيات والنساء خضوعا مطلقاً ثم كان يتخلص منهن بدفعهن إلى البغاء. تحققت له كل أسباب متعة ممارسة القوة على آخرين، في الوقت نفسه لم يكن يبال بالمشاعر الإنسانية.

فحين أصبح صديقه المقرب الذى كانت تربطه به علاقة جنسية حميمة يشكل خطراً عليه، قام بقتله مثلما يقتل الكلب الميئوس منه. وحين كانت الجماعة تقوم بعملية سرقة، كانت تقوم بالقضاء على الشهود، حتى لا تترك أى ثغرة يمكن من خلالها التعرف عليهم (أيقن «ثورنمان» بعد القبض عليهم أن فشل «هيد ستروم» فى مراعاة تلك القواعد هو الذى أدى إلى كشفهم). لقد شق «ثورنمان» طريقه الخاص إلى «البطولة» والإحساس بالتفرد، وفى سن الثامنة والعشرين كان قد حقق إشباع الإحساس بالقيمة الذاتية. ولكن، لماذا اختار الجريمة، إذا كان من الشخصيات الذكية؟

بلا شك لعب الضيق العميق، الناتج عن الإحساس بالدونية المترسب من الصغر نتيجة ضآلة حجمه وتهافت صحته دوراً فى ذلك التحول إلى الجريمة. إلا أننا يمكننا أن نكتشف سبباً آخر. فمن بين وسائل تحقيق «التفرد»، نجد أن النجاح فى الجريمة «يضمن» تحقيق ذلك. قد يكون ثورنمان» قد سعى إلى تحقيق التفرد والتفوق فى المجال الطبى، وقد يكون قد سخر ذاته ليصبح قائداً روحياً ومرشداً كأستاذ فى فلسفة السحر؛ وربما كان قد وجد أيضاً فرصة للتعبير عن ذاته من خلال الكتابة. كل ذلك كان يتطلب مجهوداً مضنياً وزمناً طويلاً من الكد والدأب إلا أنه كان يحمل أيضاً احتمال فشل التحقق. لذا كان أسهل كثيراً ترتيب جريمة ناجحة من صياغة نظرية ناجحة أو إصدار كتاب جيد. كل ذلك يعنى أن «القائد الإجرامى» من الممكن أن يحقق لنفسه الإحساس بالتفرد بأقل تكلفة وأقل عناء. إلا أن المجتمع يرفض هذا النوع من التفرد؛ ويصر على معاملته فى هذه الحالة بلا أى قدر من الإعجاب أو التقدير. وباقتراف جرم يحتل صدر صفحات الصحف ويروع المجتمع، فإن ذلك لابد أن يقابله استنكار ورفض. أما دوافعه هو فتنحصر فى محاولةدفع المجتمع لإدراك أن هناك بين تلك الجموع من أفراد المجتمع فرداً يستحق أن يرهبه المجتمع ويخشى ذكائه وبأسه، فرداً يستحق التقدير.

هناك بالطبع عيب خطير يغشى كل زعيم إجرامى عاجلاً أم آجلاً، فلاستحالة أن يحظى باعتراف المجتمع أو رضاه واستحالة أن يكون محط إعجابه

طالما ظل مجهولاً، فإنه يدفع ثمناً غالياً لنيل ذلك الإعجاب واندفاعه إلى أن يكون معروفاً، أى إلقاء القبض عليه وتسليط الأضواء عليه، ويشعر أنه قد حقق ذاته من خلال نيل إعجاب قلة قليلة ـ فى حالة «ليوبولد» و«لويب» وحالة «برادى» و«مايرا هندلى»، بالكاد كان هناك فرد آخر أو شريك معجب بالبطل المجرم ويعترف بتفرده. ويفسر ذلك لماذا يبدو بعض زعماء الإجرام وكأنهم يشعرون بمتعة وسعادة بعد القبض عليهم، فهاهم فى نهاية الأمر تخلصوا من وطأة الإحساس أنهم نكرات لا يشعر بهم أحد ولا يعرفهم أحد. لم يكتب «ثورنمان» اعترافاته فقط؛ ولكنه حولها لتصبح سيرة ذاتية كاملة، شرح من خلالها بفخر تفاصيل جرائمه. وتلك هى السخرية الكامنة فى دور «القائد الإجرامى»؛ فطالما لم يقبض عليه يظل مليئاً بمشاعر الإحباط، وهو ذات الإحساس الثقيل الذى لا يمكن احتماله بتجاهل المجتمع أو جهله بوجود عبقرية متميزة بين أفراده، وهو الإحساس ذاته الذى قاده إلى ارتكاب تلك الجرائم فى المقام الأول. ربما كان إدراك ذلك التناقض السخيف والمضحك هو الذى أدى إلى تقويض حالة «ثورنمان» العقلية وانهيارها فى النهاية.

وتوضح حالة «ثورنمان» بشكل جيد المشكلة التى حيرتنى وأثارت انتباهى حين كنت عاكفاً على وضع كتابى «موسوعة القتل» والكتابين التاليين له. لقد كان «ثورنمان» على يقين أنه يعمل بإرادة حرة تماماً، وأن ما يفعله يظهر «تفرده» وعبقريته. ولكن حين نراه من منظور أنه جزء من «نمط» إجرامى، فإن ذلك يظهر أنه لم يكن «متفرداً» ولا «حراً»، فأى الاعتبارين أصدق؟

إن ذلك يجعلنا نسلم باعتبار «شكسبير» و«بيتهوفن» كجزء من نمط تاريخى لعبقرية عصرهم، لأننا، كما يشير «برنارد شو» نحكم على الفنان من أعلى نقطة لقمة إنتاجه، ونحكم على المجرم فى أحط وأدنى لحظاته.

الخلق والإبداع يحتويان ويتضمنان مجهوداً ذهنياً وعقلياً معيناً، أما التدمير فلا يحتوى على أى منهما.

لقد طرح السؤال ذاته عالم الاجتماع «إميل دوركايم» عام ١٨٩٠ فى دراسة له عن الانتحار. إلا أن أبناء جيله من علماء الاجتماع تشككوا فى إمكانية

دراسة الانتحار بطريقة علمية منهجية لأن كل حالة انتحار تتضمن وتنطوى على سبب مختلف. إلا أن «دوركايم» لم يوافقهم على ذلك ودلل على صحة منهجه بأن معدل الانتحار ثابت فى كل مجتمع على حدة؛ وبالتالى فهو لا يرتكز على أسباب فردية وشخصية. أى هناك قوانين خفية وأسباب مستترة لابد من العمل على إجلائها، وعدا ذلك، هناك نماذج واضحة. فالذين يعانون «الوحدة» يقتلون أنفسهم بمعدل أكبر من أولئك الذين ينتمون إلى مجموعة أكبر، والعلمانيين يزيد بينهم معدل الانتحار عن البروتستانت المؤمنين بعقيدة دينية. وكذا يزيد معدل الانتحار بين البروتستانت عن الكاثوليك، ويزيد بين الكاثوليك أكثر مما هو بين اليهود الذين كان معدل الانتحار بين أفرادهم فى الإحصائية المسجلة عام ١٨٨٠ أقل نسبة بين كل المجتمعات والطوائف لأن اليهود لديهم ذلك الإحساس القوى بالترابط الاجتماعى.

ولاحظ «دوركايم» نوعاً من الانتحار يشبه إلى حد بعيد «الجريمة بلا دافع»؛ وأطلق على مثل ذلك النوع من الانتحار «الانتحار الشاذ» وهو انتحار ارجعه إلى افتقاد القيم والمبادئ. ووجد أن غير المتزوجين تزيد بينهم نسب انتحار أعلى من التى بين المتزوجين. وعدا ذلك تقل نسب الانتحار أثناء الحروب بشكل مذهل؛ وتزداد النسبة من جديد فى أوقات السلم والرخاء. (فى عام ١٩٨١ أظهرت سجلات مستشفى لبنان للأمراض العقلية وأثناء الحرب الأهلية أن حالات الدخول إلى المستشفى تزداد أثناء فترات وقف إطلاق النار وأنها تقل حين يبدأ القتال من جديد) من ذلك استنتج «دوركايم» أن البشر فى حاجة إلى كوابح اجتماعية ليظلوا فى حالة توازن عقلى. الانتحار إذن «عمل اجتماعى» وليس دافعاً فردياً. توصل «دوركايم» أن هناك «تيارات انتحارية» فى المجتمع تؤثر بصورة آلية على الأفراد وتدفع عدداً منهم إلى الانتحار، ويمكن تطبيق نفس القواعد على «الجريمة بلا دافع»، وهو نمط الجريمة الذى يرتكبه أفراد لا جذور اجتماعية لهم مثل «ثورنمان» و«مانسون» و«برادى» و«فرازيير».

لقد وصلنا فى هذا الفصل إلى موضع نرى منه بدقة الخطأ الذى وقع فيه «دوركايم». لقد اعتقد أن درجة التكيف الاجتماعى للفرد هى العنصر المحدد للانتحار (أو الجريمة، حيث نرى لاحقاً أن هناك ارتباط وثيق بينهما). ولكن

فى دراستنا للعلاقة بين الجريمة والتنويم بينت أن عنصر التكيف الاجتماعى وحده يفشل فى تفسير لب المشكلة وجوهرها. حقيقة يقدم المجتمع ويشكل القيم والأخلاق والمبادئ والسلوك السوى للفرد؛ وتخلق تلك القيم لدى الفرد إحساساً «بالواقع» الذى يعد عنصراً ضرورياً ولازماً لمنع كلاً من الانتحار والجريمة. ولكن الحقيقة الغريبة والتى تناقض ما سبق وتبدو واضحة من دراسة التنويم وهى أن إحساسنا بالواقع من الممكن أن ينهار بسهولة. يحدث ذلك فى الدجاج بخط طباشير على الأرض أو بقطعة خشب معقوفة التى تثبت على منقارها، وفى الضفادع ينهار الواقع بسهولة وتدخل فى حالة تنويم بالنقر الخفيف على معدتها. فى البشر، نجد أن المسألة أكثر تعقيداً، ولكن ليس إلى حد بعيد. يتحدث «ڤولجيزى» عن «قانون الانعكاسات النقطية» الذى يقرر أن أى مؤثر صوتى أحادى النغمة ويؤثر على نقطة واحدة من المخ بإلحاح ينتج عنه نوم إجبارى.

وبالمثل، لا تستطيع عيوننا البشرية التركيز لفترة طويلة على نقطة ثابتة غير متحركة؛ فهى تتشتت بسرعة مع التركيز. وعلى عكس ذلك تماماً فإن الحركة المفاجئة تهز «الذات المسيطرة» لتيقظها من جديد، أى «لتعيدنا إلى الواقع».

إن الإحساس بالواقع هو الذى يخلق الفارق بين الانتحار أو التمسك بالحياة. ولذا فقد كان «دوركايم» على خطأ. «فالتيارات الاجتماعية» الانتحارية موجودة فعلاً كما ذكر، إلا أنها تعد سبباً ثانوياً فى الجريمة والانتحار. أما السبب الأولى والجوهرى فيجب أن نبحث عنه فى التركيبة النفسية للبشر.

هل يعنى ذلك أن معارضى «دوركايم» كانوا على حق؟

بالطبع لا، لأنهم أيضاً كانوا مخطئين حين افترضوا أن الانتحار لا يمكن فهمه وتفسيره على أسس نفسية، وقد بين «دوركايم» خطأ ذلك الافتراض. الانتحار لا يمكن فهمه إلا على أسس اجتماعية ونفسية معاً.. لو كان علينا أيضاً أن نفهم ونفسر الأنماط الرئيسية للسلوك الإجرامى - وبالتالى نعرف كيف يمكن مقاومتها - فإن البحث عن الأنماط والنماذج لابد أن يستمر على المستويين معاً - النفسى والاجتماعى.

الإنسان العنيف

في ١٣ ديسمبر عام ١٩٣٧ ، استولى الجيش الإمبريالي الياباني على مدينة «نانكنج» في وسط الصين، وبعد اقتحام المدينة بدأ الجيش الياباني في ارتكاب ما وصف بأنه «أبشع المجازر الجماعية في العصر الحديث». وبدأوا بحملة قتل واغتصاب وتعذيب استمرت على مدى شهرين. تخلص الجنود الصينيين من زيهم العسكري واختلطوا بالسكان المدنيين ظناً منهم أن اليابانيين لن يمسوهم بسوء طالما لا يحملون سلاحاً. إلا أن الجنود اليابانيين قاموا بجمع كل من طالته أيديهم وأبادوهم في جماعات بالرشاشات الثقيلة سريعة الطلقات. ثم كوموا الجثث - ما يربو على عشرين ألف جثة - في أكوام وسكبوا عليها النفط وأضرموا فيها النيران. كان هناك مئات من الجرحى مازالوا أحياء إلا أن النيران تكفلت بإنهاء حياتهم.

ولأنه لم يكن بإمكان الجنود اليابانيين تمييز الجنود الصينيين الذين تخلصوا من زيهم العسكرى من بين المدنيين فقد أبادوا الجميع ؛ قاموا باغتصاب ما يربو على عشرين ألف أنثى تراوحت أعمارهم بين الحادية عشر والثمانين، وانتزعوا أحشاء كثيرات منهن بعد اغتصابهن، أما من بقى منهن على قيد الحياة فقد قاموا بالانتحار العشائرى الجماعى، وهو السلوك الصينى التقليدى للنساء فى مثل تلك المواقف. أما الأولاد فى سن الدراسة فقد علقوهم من أيديهم لأيام، ثم قام الجنود اليابانيون باستعمالهم كأهداف حية فى التدريب على القتل بسناكى البنادق. وقعت فى أيدى «رودس فارمر» وهو صحفى كان يعمل فى شنغهاى صوراً لتلك المذابح الجماعية للأولاد، وهم يطيحون برءوسهم بالسناكى، وصوراً لاغتصاب النساء، وحفر دفن جثث الإعدام الجماعى، كان قادة الجنود يحثونهم على تطوير غريزة القتل بطعن الصينيين وهم مكتوفى الأيدى. حين نشرت تلك الصور على صفحات مجلة «لوك» الأمريكية انتابت العالم صدمة نتج عنها موجة عالمية من الإدانة مما دفع الحكومة اليابانية لاستدعاء قائد قواتها فى الصين إلى طوكيو لامتصاص موجة الامتعاض العالمى. الطريف أن الجنود اليابانيين كانوا هم من قام بالتقاط تلك الصور معتقدين أن تلك الأفعال مجرد انتقام بسيط من الصينيين. على مدى شهرين كان اليابانيون قد قتلوا خمسين ألف مواطن صينى فى «نانكنج» وحدها، وحوالى مائتى ألف فى المقاطعات المحيطة بها (اختلف الصينيون واليابانيون عام ١٩٨٢ حول مسألة إعادة كتابة التاريخ وقدر الجانب الصينى عدد قتلاه على أيدى اليابانيين بثلاثمائة وأربعين ألف مواطن).

كانت العاصمة «بكين» تقع على بعد ستمائة ميل إلى الشمال الغربى من مدينة «نانكنج» المنكوبة، وكانت «بكين» هى الأخرى تعانى من الاحتلال اليابانى، أما قرية «تشو ـ كو ـ تيين» التى تقع على بعد ثلاثين ميلاً جنوب غربى «بكين» فقد كانت تحت سيطرة الوطنيين الصينيين، وكان بتلك القرية فى ذلك الوقت فريقاً دولياً من العلماء توصل إلى كشف كان له صدى عالمى خاصة بين علماء الآثار والتاريخ البشرى. فى عام ١٩٢٩ ، اكتشف عالم الحفريات القديمة «باى ـ ون ـ تشنج» فى كهف قريب من مدينة «تشو ـ كو ـ تيين» جمجمة بشرية قديمة، كانت أقرب إلى جمجمة الشمبانزى منها إلى جمجمة الإنسان. وأعلن

العالم الكاثوليكي «تيلهارد كاردان» إن تلك الأسنان لكائن من صائدى الفرائس، كان الجمجمة تتميز بجبهة مائلة للخلف، مع بروز عظام الحاجبين، وذقن منحدرة للخلف، أما فراغ الجمجمة الذى كان يشغله المخ فهو ضعف حجم فراغ جمجمة الشمبانزى. وباكتشاف مزيد من الجماجم والأطراف والأسنان فى باقى كهوف المنطقة، أصبح من الواضح أن ذلك الكائن الصائد كان يمشى منتصب القامة. فى بداية الكشف بدا للعلماء أن ذلك الكائن شكل وسيط بين القردة والبشر الحاليين ـ وهو ما دفع بالأنثروبولوجيين المبكرين مثل «هايكل» إلى تسميته «الحلقة المفقودة» ـ كانت نظرية الحلقة المفقودة مطروحة قبل ذلك بخمسين عاماً بعد العثور على عظام ما أطلق عليه العلماء «الإنسان القرد» فى جزيرة «جاڤا». وجد العلماء أن الرجل القرد الذى عثروا على عظامه فى كهوف الصين ينتمى إلى الجنس نفسه. إلا أن كهوف «تشو ـ كو ـ تين» الصينية حملت دليلاً آخر يظهر أن ذلك الكائن لم يكن الحلقة المفقودة. فإنسان «بكين» كان يعد أماكن للنار واستخدمها لإنضاج طعامه. كانت الوجبة المفضلة لديه كما يبدو لحوم الصيد والطرائد المطهية على النار وعلى ذلك فقد كان أكثر رقياً مما اعتقد العلماء عند بداية الكشف. ذلك الكائن الذى عاش منذ ما يربو على نصف مليون عام مضى، كان بشراً حقيقياً.

كان ذلك الكائن من أكلة لحوم البشر أيضاً. فالأربعين جمجمة التى عثر عليها فى كهوف «تشو ـ كو ـ تين» كانت محطمة جميعاً من عند قاعدتها، مما يسمح بوجود فراغ يكفى لإدخال اليد لاغتراف المخ من داخل الجمجمة. وأعلن «فرانز فايد نسرايخ» وهو العالم المسئول عن ذلك البحث أن تلك المخلوقات قد ذبحت عمداً، ثم سحبت إلى داخل الكهوف وشويت وأكلت. من الذى أكلهم؟ من المفترض بالطبع أنهم رجال طائفة أخرى من رجال «بكين» القدماء. فى كهوف أخرى بالمنطقة وجدت عظام أخرى لبشر ما قبل التاريخ، ووجدت مع تلك العظام أيضاً دلائل تدل على أنه كان من أكلة لحوم بنى جنسه؛ ولكن إنسان ما قبل التاريخ ظهر على مسرح الأحداث بالأرض منذ ما يربو على أربعمائة ألف عام؛ ولا يمكن اعتباره متهماً بأنه كان أول من بدأ من السلالة فى أكل لحوم رفاقه من البشر.

الدليل الذى نستمده من كهوف «تشو ـ كو ـ تين» يوضح أن إنسان «بكين» كان يهاجم ويصارع الحيوانات المتوحشة التى كانت تحتل تلك الكهوف وقام بطردها منها، وبعد ذلك، قاتل بنى جلدته من البشر وأكلهم. وبينما كان الكُتّاب حول العالم يتساءلون كيف لبشر متحضرين مثل اليابانيين أن يرتكبوا تلك المذابح البشعة فى مدن الصين، كانت مكتشفات كهوف «بكين» تدفع بإجابة مريرة إلى الحلق: وهى أن البشر كانوا منذ ظهورهم يقتلون بعضهم بعضاً، ومازلوا حتى عصورنا الحالية.

فى عصرنا، تبدو هذه الإجابة غير جدلية أى غير قابلة للنقاش، كما خفتت أصوات معارضيها؛ فالتهديد بالإبادة النووية كان اتهاماً يحمل وجهة نظر متشائمة عن الجنس البشرى. وفى عام ١٩٣٧ قوبلت فكرة الإنسان القرد القاتل معارضة قوية من العلماء. وطبقاً للنظرية التى كانت سائدة منذ عام ١٨٩٠، فإن الإنسان منتصب القامة قد تطور بسبب ذكائه، وأنه بدأ حياته ككائن وديع يأكل النباتات، مثله مثل أخيه الغوريللا، ثم تعلم فى مجرى الزمن تلك المهارات مثل الصيد والزراعة ثم صنع الحضارة. فى كتابه عن إنسان بكين، لم يذكر الدكتور «هارى. ل. شابيرو» أحد علماء موقع «تشو ـ كو ـ تين» سبب تحطم قواعد تلك الجماجم؛ ومال إلى الاعتقاد بأنهم قد تحطموا بسبب صقوط الصخور عليها وطبقات الركام التى دفنتها. إلا أن أدلة وبراهين جديدة راحت تحاصر وجهة النظر القديمة عن تطور الإنسان اللطيف الذكى. فمع البدايات المبكرة لعام ١٩٢٤، اكتشف عالم الأحياء القديمة «ريموند دارت» جنس أقدم من «الإنسان القرد» أطلق عليه اسم «استرالو بيثيكاس» (أو الرجل القرد الجنوبى). وفى أواخر عام ١٩٤٠، عند إجراء بعض الفحوص فى موقع من مواقع الرجل القرد الجنوبى بالقرب من مدينة «ستيركفونتين». وجد «دارت» كثيراً من الجماجم المحطمة لقرود البابون. ووجد بالموقع عظمة ساق لبقر الوحش، وفجأة طرأ على ذهنه خاطر، رفع الهراوة العظمية لبقر الوحش ونزل بها بكل قوته على إحدى جماجم قرود البابون، نتج عن تلك الضربة حفرة بالجمجمة، وكانت الحفرة التى أحدثها مماثلة تماماً للحفر الموجودة فى باقى الجماجم. وبذلك توصل «دارت» إلى اكتشاف نوع السلاح الذى قتل به

الإنسان الأول قرود البابون. كانت الهروات العظمية المماثلة موجودة أيضاً فى كهوف «بكين» وكانت هى أيضاً سلاح رجل «بكين» القديم.

فى عام ١٩٤٩ نشر «دارت» بحثاً تضمن كل مكتشفاته عن الرجل القرد الجنوبى (استرالو بيثيكاس) الذى كان يحيا على الأرض منذ مليونى عام مضت. أوضح فى البحث أن ذلك الإنسان القديم قد توصل إلى استعمال الموجودات الطبيعية كسلاح. ولم يأخذ البحث نصيبه من الاهتمام اللائق من الأوساط العلمية ولم ينظر إليه أحد بالجدية الواجبة. فى عام ١٩٥٢ نشر بحثاً آخر أسماه «التحول الافتراسى - من القرد إلى الإنسان» وهو بحث أزعج محرر مجلة «النشرة الأنثروبولوجية واللغوية» التى نشرت البحث، وقدم للبحث بملحوظة يخلى فيها مسئولية المجلة عن تلك الآراء. فى ذلك البحث قدم «دارت» وجهات نظر وطروحات ثورية ورائدة ذكر فيها أن الإنسان القرد الجنوبى قد حقق تقدماً على باقى أجناس القردة لسبب واحد وهو أنه تعلم أن يقتل بأداة. وذكر أن أجدادنا الأوائل تعلموا أن يقفوا ويسيروا على ساقين لأنهم احتاجوا إلى أيديهم ليحملوا بها الهراوات العظمية.

حلت الأطراف الأمامية محل الأنياب والأسنان لتمزيق هبر اللحم من أجساد الحيوانات المقتولة، لذلك تحولت الأسنان إلى حجم أصغر كما تحولت المخالب لتصبح أظافر.

كان ضرب حيوان بهراوة أو قذفه بها من مسافة أو قذفه بالأحجار يتطلب نوعاً جديداً من العمل المتناسق والمتسق بين اليدين والعينين؛ لذلك بدأ المخ فى التطور.

فى الوقت الذى كان فيه «دارت» يضع بحثه، كان هناك برهاناً مهماً يدعم وجهة النظر القديمة التى كانت ترى أن «الذكاء جاء أولاً». كان ذلك البرهان هو الجمجمة المشهورة المسماة بجمجمة «بيلتداون» التى اكتشفت فى حفرة طمرها الحصى عام ١٩١٣. كان فك الجمجمة يشبه فك القردة، إلا أن تجويف المخ كان بنفس حجم تجويف مخ الإنسان المعاصر. بعد ذلك بأربعين عاما، كشفت الاختبارات التى أجريت بالمتحف البريطانى أن جمجمة «بيلتداون» لم

تكن إلا خدعة كبرى ـ فقد كانت جمجمة إنسان حديث أما الفك فقد كان لقرد، وصبغ كليهما بمواد كيماوية ليتخذا اللون ذاته.

جاء كشف الخدعة في العام نفسه الذى نشرت فيه أبحاث «دارت». ودعم ذلك وجهات نظره إلى حد بعيد. كان مخ «الإنسان القرد الجنوبى» أكبر من مخ قرد، إلا أنه كان بالطبع أصغر من مخ الإنسان المعاصر. في بدايات عام ١٩٦٠، صدر كتابان يتناولان وجهة النظر المزعجة عن غريزة القتل لدى البشر. كان الكتاب الأول هو «الأجناس الإفريقية» الذى كتبه «روبرت أردرى»، والثانى كان اسمه «عن العدوان» الذى كتبه «كونراد لورينز». كلاهما ذهب إلى أن البشر قد تطوروا بسبب عدوانيتهم، وأننا لا يجب أن نندهش ولا نستنكر قيام الحروب، ولا وقوع الجرائم ولا السلوك العنيف لأن العدوانية العنيفة مكون جوهرى لدى البشر. أما الفصل الأخير من كتاب «أردرى» فقد كان يحمل عنواناً يبعث على الاكتئاب والإحباط فقدكان «أبناء قابيل».

إلا أن «أردرى» و«لورينز» كانا متفائلان بشكل ما، فقد رأى «لورينز» أن عدوانية البشر من الممكن أن تقنن في مسارات أقل خطورة مثل أنواع الرياضة والسعى إلى الاكتشاف والبحث ـ بينما أعلن «أردرى» (وكان إعلانه بمثابة أمل أكثر منه قناعة) أن غريزة البشر للنظام والتحضر لا تقل عن غريزتهم للتحطيم والتدمير والقتل، حتى إنه أنهى كتابه بفقرة ملغزة عن وجود قوة غامضة يمكن أن يطلق عليها «الحافظة للأجناس»، وهي قوة فوق الطبيعة والحياة، تسعى للنظام. إلا أنه يمكن القول إن مجمل الكتابين كان متشائما بشكل واضح.

ينطبق الأمر نفسه على وجهة النظر التى قدمها «آرثر كوستلر» في كتابه «شبح في الآله» (١٩٦٧)، ذكر كوستلر في كتابه: «يتفرد البشر منتصبى القامة في المملكة الحيوانية بنقص الغريزة التى تمنعه من قتل بنى جنسه» (كان بإمكانه أن يضيف أيضاً أنه واحد من مخلوقات قليلة لا توجد لديها غريزة تمنعها من أكل لحم بنى جنسها ـ الكلاب مثلاً لا يمكن إجبارها أو دفعها إلى أكل لحوم الكلاب). ويفسر «كوستلر» ذلك بأن مخ البشر يتطور بحماقة. وأنه

يتكون من ثلاثة أمخاخ، أحدهما فوق الآخر على التوالى : فمخ الزواحف، فوقه مخ الفقاريات، وعلى قمتهم جميعاً القشرة المخية البشرية الجديدة. والنتيجة كما يذكر عالم وظائف الأعضاء «ب. د. ماكلين» أنه عندما يطلب الطبيب النفسي من أحد مرضاه أن يسترخي على أريكة الفحص فكأنه يطلب منه أن يتمدد هو وحصان (فقاريات) وتمساح (زواحف).

لقد تطور العقل البشرى بمعدل يصعب تصديقه خلال النصف مليون عام الماضية حتى أن علماء وظائف الأعضاء يشيرون إلى ذلك المعدل بأنه «انفجار التطور العقلى» كما يقارنون نموه بنمو الأورام. أما المشكلة، كما يذكر «كوستلر»، فتكمن فى أنه بدلاً من تحول مخ قديم بدائى إلى مخ حديث كما تحول الطرف الأمامي للزواحف ليصبح جناح طائر أو يد بشر، كان تطور المخ غير ذلك تماماً إذ أنه حدث بإضافة تركيب جديد على قمة التركيب السابق البدائي وتداخلت صفات وقوى ووظائف كل منهما فى الآخر. وبذلك نكون أجناساً غير متزنة ولا متوازنة من الكائنات، إذ تنهار الأسباب العقلية أو المنطقية أمام الانفعالات.

«ولوصفها بلا تزويق: ترك التطور بضعة مسامير محواه سائبة ومفكوكة فيما بين القشرة المخية العاقلة وبين سرير المخ أو المخ البدائى القديم الأول»، والنتيجة أن البشر تنتابهم «نوبات خطرة من جنون العظمة» التى تفسر ميلهم إلى تدمير ذاتهم وتدمير جنسهم.

بالطبع كانت هناك آراء مضادة لذلك التشاؤم. فى كتاب «تشريح التدمير البشرى» (١٩٧٤) الذى كتبه «إريك فروم»،وهو أحد تلامذة «فرويد»، نجده يعارض «دارت» و«لورينز» و«أردرى» ويرد عليهم بأنه لا يوجد دليل أن أجدادنا الأوائل كانوا عدوانيين أو ميالين للقتل بصفة جوهرية. ويذكر «كلنا نتساءل مفكرين، إن كان البشر المعاصرين المتحضرين ميالين للحرب والقتال، فإلى أى مدى كان ميل الإنسان الأول للقتل والحرب؟ والنتائج التى توصل إليها [كوينسى] «رايت» فى دراسته عن الحرب تؤكد أن أكثر البشر بدائية أقلهم ميلاً للحرب، وأن النزعة والميل للحرب والقتل لم تنم إلا متناسبة مع درجة

التحضر».

وفى حلقات تليفزيونية تحت اسم «صناعة البشرية» (أذيع عام ١٩٨١) أكد «ريتشارد ليكى» وهو ابن عالم الأنثروبولوجيا «لويس ليكى» (الذى ذاعت شهرته بسبب أبحاثه حول الرجل القرد الجنوبى وارتكز عليها «أردرى» لإثبات وجهة نظره) أكد معارضته لنظرية القرد القاتل الذى تطور وأصبح أباً للبشر. وذكر فى تلك الحلقات أن كل ما نعرفه عن الإنسان البدائى يثبت أنه عاش فى سلام مع العالم المحيط به ومع جيرانه؛ وأنه لم يصبح قاسياً إلا عند تحوله للحياة فى مدن، وأنه بذلك التحول أصبح أشد قسوة وأكثر تدميراً. وهى وجهة النظر نفسها التى آمن بها «فروم» وقدمها فى كتابه «تشريح التدمير البشرى».

إلا أن عنوان كتاب «فروم» يظهر أن «أردرى» و«لورينز» و«كوستلر» لم يكونوا بعيدين تماماً عن الحقيقة. لقد ذكر فروم فى ذلك الكتاب: «يختلف الإنسان عن الحيوان فى حقيقة واحدة وهى أن الإنسان قاتل». «فهو الكائن الوحيد من الثدييات العليا الذى يقتل ويعذب أفراداً آخرين من بنى جنسه وبلا سبب». والكتاب كله مكرس للإجابة على هذا التساؤل: لماذا يعد الإنسان الكائن الوحيد الذى يقوم بقتل وتعذيب الآخرين من بنى جنسه؟

إن إجابة «فروم» تميل بشدة إلى الارتكاز على آراء «فرويد» إلى أن البشر لم يخلقوا للحضارة، كما لم تخلق الحضارة للبشر، فهى تزعجه وتخيفه عند كل منعطف من منعطفاتها وتؤدى به إلى العصاب النفسى وتدمير الذات. ويرى فرويد أن البشر الأوائل قضوا أعمارهم يجرّون بعضهم البعض من شعور رأسهم، ضاربين أعداءهم بالهراوات، وأن كوابح الإنسان المعاصر تمنعه من إتيان نفس السلوكيات وهو ما يصيبه بالعصاب والخلل النفسى. كما يقترب «فروم» فى آرائه إلى حد كبير من آراء «هـ. ج. ويلز» التى عبر عنها قبل ذلك بثلاثين عاماً فى أهم كتبه (وأكثرها عدم شيوع) وهو كتاب «٤٢ إلى ٤٤» الذى كتبه عند منتصف الحرب العالمية الثانية وحاول «ويلز» فى ذلك الكتاب أن يجيب على ذلك التساؤل: لماذا البشر على تلك الدرجة من القسوة

والتدمير. يقول عن ذلك: «إننا نعلم أن صائدى السهوب العظمى فى أوربا بين الأحقاب الجليدية كانوا يتمتعون بشخصية اجتماعية تعيش فى جماعات بلا عنف زائد».

ومثل «فروم» و«ليكى»، اعتقد «ويلز» أن المشكلة بدأت حين انتقل الإنسان للمعيشة فى تجمعات كبرى فى مدن حيث «تجمعوا فى التصاقات واتصالات لم يؤهلهم ماضيهم لها. وأن الحضارات المبكرة لم تتطور ببطء لتكون مجتمعات حضرية، بل كانت زحامات محتكة ببعضها كان لابد أن ينتج عنها ردود أفعال عنيفة غير مسبوقة»، كما أمسك بالسلطة وسيطر على الثروة رجال لا يتصفون بالرحمة وكان على باقى التجمعات أن نعيش فى أكواخ. تلك هى رؤية «ويلز» عن كيفية تحول البشر إلى قتله.

أدهشت «ويلز» القسوة البشرية، وأورد ملاحظة هامة، وهى أننا حين نسمع عن عمل من أعمال القسوة فإن رد فعلنا يكون إحساساً بالغضب والغيظ ونسارع إلى القول: «أتعلم ماذا أحب أن أفعل بذلك القاسى المتوحش؟». ويكشف رد فعلنا أن «الفعل الانتقامى هو حقيقة من حقائق سلوك الحيوان البشرى». عندما نسمع عن واقعة تتسم بالقسوة، ينتابنا فوراً الإحساس أن هناك فارقاً بيننا وبين ذلك الذى ارتكب فعلاً قاسياً وأن المشكلة بالضبط تكمن فى افتقاد الإحساس بالرفقة الإنسانية أو الانتماء لنفس الجنس البشرى.

إلا أننا نوقن أن «الإحساس بالرفقة والانتماء للجنس البشرى» لا يشكل أى دافع لاستجابة طبيعية من أحد أفراد الجنس البشرى تجاه فرد بشرى آخر. فذلك الإحساس لا ينتابنا إلا تجاه المقربين منا ومن وعينا، بينما تتطلب مجهوداً حقيقياً من التخيل حتى نخلق هذا الإحساس تجاه بشر آخرين على الجانب الآخر من العالم - بل حتى على الجانب الآخر من الشارع. لقد أكد «سارتر» فى كتابه «نقد المسألة الدياليكتيكية» على أن كل البشر أعداء طبيعيين لبعضهم البعض. لو خرج واحد يتمشى بين الحقول فى أحضان الطبيعة، فإنه يكره وجود بشر آخرين أثناء تجواله، ويرى أن الطبيعة ستكون أكثر جمالاً وجاذبية لو خلت من وجود الآخرين. وحين يقف فى صف انتظاراً للحافلة العامة، فإن

كل شخص آخر فى الحافلة ليس أكثر من معادٍ ـ حتى المحصل من الممكن أن يصيح به «لا توجد أماكن خالية» حين يهم بالصعود إلى الحافلة. المدينة المزدحمة بل حتى المحلات الشاملة كلها غير محببة لأن كل واحد من أولئك الناس يريد دوراً أو يتصارع للحصول عليه. لو كان بإمكان الفرد أن يمتلك قوة سحرية بالتفكير المجرد، سيجعل الآخرين يذوبون أو يتلاشون فى الهواء ـ أو ربما يفعل مثلما فعل بطل قصة «ويلز» الذى كان يصنع المعجزات، يرسلهم جميعاً إلى «تمبوكتو» فى وسط الصحراء الكبرى.

برز ذلك بوضوح قاس فى دراسة «كولين تيرنبول» عن قبيلة إفريقية نزعت الحكومة ملكيتها لأرضها، وتحمل الدراسة اسم «شعب الجبل». ففى الحرب العالمية الثانية رحلت قبيلة «آى. ك» من الأرض التى عاشوا عليها من قديم الزمن وكانوا يعيشون فى تلك المنطقة على الصيد، تم الطرد بقرار حكومى لتحويل منطقتهم إلى منطقة مفتوحة للصيد. وضعوهم فى منطقة أخرى بعيدة لزراعتها ولكنها كانت منطقة شحيحة الأمطار. ونتيجة للحياة الصعبة القاسية شحيحة الموارد فى الأرض التى نقلوا إليها فقدوا كل المشاعر الإنسانية التى كانت سائدة بينهم قبل ذلك. أصبحوا يغذون الأطفال حتى سن الثالثة، ثم بعد ذلك يلقون بهم خارج الأكواخ ليتولوا أمر أنفسهم ويدبروا طعامهم. وأصبحوا يتركون كبار السن جوعى حتى الموت. فى قرية «آى. ك» الجديدة أصبح كل فرد يهتم بأمر نفسه فقط. طفلة صغيرة تخلص منها أبواها، ظلت تعود إلى الكوخ، طلباً للعطف والرعاية والحب، قام أبواها نتيجة لعودتها المتكررة بحبسها فى مكان مغلق، ظلت حبيسة حتى ماتت جوعاً. أم أخرى راحت تتطلع إلى طفلها بلا مبالاة وهو يزحف تجاه نيران معسكر القرية الجماعية حتى وضع يده فى النار، تعالت ضحكات الآخرين حين صرخ الطفل من احتراق يده، بدا على الأم السرور أن طفلها كان سبباً لإضحاك الآخرين. ولما أرسلت الحكومة معونات غذائية، ذهب الأقوياء لحمل تلك المعونة، وفى طريق العودة أجبروا أنفسهم على التقيؤ لإفراغ امعاءهم مما أكلوه ليأكلوا ما تبقى من المعونة قبل عودتهم إلى القرية، وحين أصر واحد منهم على الاحتفاظ ببعض الطعام لامرأته المريضة وطفله الصغير سخروا من ضعفه وحماقته.

خرج بعض الباحثين ـ مثل «أردرى» ـ باستنتاجات عامة مما حدث لقبيلة «آى. ك»، وهى أن القيم الإنسانية سطحية جداً ولا تصمد طويلاً وأن الإيثار ليس أصيلاً ولا طبيعياً لدى البشر. وهذه الاستنتاجات غير منطقية ولا حقيقية بالطبع، كل منا يمكن أن يخرج بنفس الاستنتاجات من حقيقة جوهرية وهى أن أغلبنا يتعكر مزاجه حين نجوع وحين نكون مجهدين ومتعبين. وفى حالة قبيلة «آى. ك» كانت الصدمة الحضارية شديدة ومفاجئة، لقد كانوا صيادين أباً عن جد، وكانت حياتهم نسق من التعاون الحميم، يشمل النساء والأطفال وكبار السن، وأدى حرمانهم المفاجئ من نسق حياتهم إلى تحويلهم إلى حالة من عدم التآلف مع نمط الحياة الجديد المفاجئ. ويبقى السؤال المهم الذى يجب طرحه عن الجنس البشرى فى مثل تلك الأحوال، والسؤال لا يكون بالطبع إلى أى مدى يمكن دفعنا إلى حالة من عدم التآلف ونبذ الدوافع النبيلة والقيم وفقدان السيطرة على الذات؟ السؤال الحقيقى الذى يجب طرحه هو إلى أى مدى يكون بقدرتنا تحقيق عكس ذلك؟ أى استعمال الذكاء البشرى للخلق والإبداع فى ظروف طارئة مستجدة والتعاون للتغلب على تلك الظروف.

إن الحالات السلبية مثل قبيلة «آى. ك» لا تبرهن على شىء أكثر مما كنا نعرف من قبل وهو أن الجنس البشرى يتصف بأنانية مفرطة وحب للذات بلا حدود، خاصة إذا وصلت الأحوال إلى صراع من أجل البقاء.

هناك بشر بدائيون يمارسون عادة قتل الأطفال وقتل كبار السن. فى كتاب «شعوب الصيد» (ص ٣٢٩) يصف كاتبه «كارلتون. س. كوون» أن عادة قتل المسنين لأنفسهم سائدة بين هنود الكاريبو فى خليج «هدسون» حين لا تصل القطعان الموسمية للغزلان والأيائل وتصبح القبيلة مهددة بالموت جوعا. وبعد أن يقتل كل كبار السن أنفسهم، يكون الدور على الأطفال الإناث. يقول «كوون»: «إنها عملية مؤلمة للنفس وموجعة للقلب لأن كل إنسان يحب الأطفال». كما يصف «چون فايفر» مؤلف كتاب «ظهور الإنسان» (ص ٣١٦) أن الوسيلة الوحيدة لتنظيم النسل بين سكان استراليا الأصليين هى قتل المواليد، وأن من ١٥ إلى ٥٠ بالمائة من المواليد يقتلون، وأن ذلك القرار تتخذه

الأم وتقوم بتنفيذه بنفسها، وتقوم بقتل الوليد بعد ساعة من ولادته كما نقتل القطط الوليدة غير المرغوب فيها.

هناك عنصر غريزى آخر يساعدنا على فهم طبيعة الإجرام البشرى: وهو عنصر الكره الغريزى للأغراب. فى كتابه «العقد الاجتماعى» يشير «أردرى» إلى أن كراهية الأغراب غريزة أساسية بين الحيوانات، وذهب إلى أنها ربما تستند إلى عوامل چينية فى تركيب الكائن. كل المخلوقات تميل إلى التجمع فى جماعات صغيرة أو قبائل ويتمسكون ببعضهم البعض. كما لاحظ «داروين» أيضاً فى مزرعة ماشية فى «أوروجواى» أن القطيع المكون من عشرة آلاف رأس كان ينقسم أثناء الرعى إلى مجموعات تتكون كل منها من خمسين إلى مائة رأس. وحين كانت تهب الأعاصير وتتشتت الماشية، كانت تتجمع بعد الإعصار فى نفس المجموعات وبالحيوانات ذاتها التى كانت متآلفة قبل الإعصار، ورأى «داروين» أنه من المحتمل أن ذلك الميل الغريزى ليس إلا وسيلة طبيعية لحماية صفات ذلك النوع، فلو ظهر چين يحمل صفة جديدة، فإنه سيظل موجود ومتوارث بين نفس المجموعة بدلاً من توزعه وتشتته بين قطيع بأكمله.

فى دراسة أخرى عن مناطق «الجيتو» السوداء بمدينة «شيكاغو» أظهرت الدراسة أنها ليست إلا تجمعات كالقرى أو الجزر المنعزلة. بل إن المجتمعات المتنقلة والمرتحلة من مكان لآخر تميل إلى تكوين مجموعات شبه مستقلة محدودة العدد مكونة «قبيلة». وذكر «ديزموند موريس» فى كتابه «حديقة الحيوان البشرية» أن العدد يتراوح عادة بين خمسين ومائة فرد فى كل مجموعة والغريب أن ذلك الرقم يتفق مع عدد الحيوانات من الماشية الذى ذكره «داروين». أيضاً تتآلف كل مجموعة فى شكل الزى ونمطه والألفاظ واللوازم اللفظية، وتتمتع الجماعة بإحساسها المشترك وتأكيدها على ميزة انتمائها لبعضها، كما تتبنى موقفاً معادياً للأغيار من خارج الجماعة. وأظهرت دراسة «هال» لجماعات شيكاغو السوداء أنه غالباً ما تنشب حرب عصابات بين جماعات «الجيتو» السوداء. ويساعدنا ذلك على فهم كيف قاد النازى اليهود إلى معسكرات الاعتقال. لم تكن أيديولوجية «هتلر» العنصرية لتأخذ ذلك

المسار بسهولة إن لم تكن كراهية الغرباء مكون أصيل وجزء من ميراثنا الغريزى.

فى كتابه عن الإبادة على أسس عنصرية «الهولوكوست والنخبة الألمانية» يعلق البروفيسور «راينر س. بوم» على لا مبالاة المسئولين الألمان الذين كانوا مسئولين عن معسكرات الاعتقال، بأنهم لم يكونوا معادين للسامية بتعصب مسعور، ولا كانوا يعانون من شهوة للدم، أما ما كان يثير الرعب منهم فهو أنهم لم يكن لديهم أى مشاعر تجاه النساء والأطفال الذين كانوا يسوقونهم فى قطعان إلى ناقلات الماشية. ولو افترضنا أن ذلك يعود إلى الأيديولوجية النازية الشريرة فإننا بذلك نبسط الأمور أكثر من حقيقتها، فالبشر لا يحتاجون إلى أيديولوجية شريرة أو سيئة لدفعهم إلى ارتكاب سلوك غير إنسانى؛ لأن هذه المشاعر تسيطر علينا بسهولة وبدون أى أيديولوجية لأن كل منا يحيا فى حالة من الاهتمام بالذات والانشغال بها تجعل الجار فى نظرنا شىء غير حقيقى ولا واقعى. يؤكد ذلك المذبحة التى تعرض لها الفلسطينيين فى معسكرين من معسكرات اللاجئين وهما معسكرى «صبرا» و«شاتيلا» فى بيروت فى سبتمبر عام ١٩٨٢ . كان المقاتلون الفلسطينيون قد وافقوا أن يتم ترحيلهم عن بيروت بعد معاناة وطأة الحصار الطويل الذى فرضه الإسرائيليون عليهم، وكان فى مفهومهم أن نساءهم وأطفالهم لن يتعرضوا لأذى. فى يوم السبت ١٨ سبتمبر صدمت العالم مذبحة قامت بها بها عناصر من حزب الكتائب المسيحى اللبنانى الذين قاموا بقتل المئات من النساء والأطفال والشباب غير المحاربين الموجودين بمعسكرى صبرا وشاتيلا للاجئين الفلسطينيين وتمت المذبحة فى حماية القوات الإسرائيلية التى كانت تحاصر المعسكرين وهم الذين سمحوا لقوات الكتائب المسيحية بدخول مخيمات اللاجئين للقيام بتلك المذبحة، وبينما كان الذبح والقتل يجرى على قدم وساق داخل المخيمات، أرسل مبعوث الأمم المحدة بالمنطقة رسالة إلى الجنرال شارون قائد القوات الإسرائيلية المحاصرة لبيروت قال فيها: «لابد أن توقف هذه المذبحة البشعة.. أنت تسيطر على كل المنطقة ولذلك أنت مسئول عما يجرى...».

ما صدم العالم ومنهم آلاف من الإسرائيليين الذين تظاهروا فى تل أبيب أن اليهود الذين كانوا ضحايا معسكرات الإبادة النازية هم الذين رتبوا لهذه المذبحة للفلسطينيين. تحليل «بووم» يصدق هنا أيضاً كما كان صادقاً بشأن معسكرات اعتقال «بيلسن» و«بوخنفالد» فى ألمانيا، المشكلة ليست مشكلة «شر» بقدر ما هى لا مبالاة بالغير. أغلب القتلة الجماعيين ومن قاموا بارتكاب عمليات إبادة جماعية على مسار التاريخ لم يكن لديهم مشاعر تجاه ضحاياهم تماثل مشاعرهم تجاه زوجاتهم وأطفالهم، تماماً كما يشعر آكل اللحم بعدم وجود رفقة بينه وبين البقر والأغنام التى يأكل لحمها.

فى عصرنا الإنسانى، تبرز تلك الجوانب المرعبة، ونخرج منها بدرس: لكى تكون إنسانياً بحق فإن ذلك يتطلب مجهود حقيقى وصادق وترويض للإرادة أكثر من مجرد تلك الافتراضات الضبابية الغامضة عن «الاهتمام المتبادل».

من خمسة آلاف عام مضت لم يكن أحد يطرح ذلك التساؤل؛ فقد كان يحكهم قانون كراهية الغرباء كما كانوا على يقين أن الاهتمام المتبادل لا يوجد إلا بين الأقارب والجيران المباشرين.

كما سنرى، فهناك دلائل لا نهائية على الازدياد البطىء والمطرد للإجرام من عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد وحتى الآن. كما بدأ الوازع الدينى القديم فى الظهور منذ ذلك الوقت، وكان الدافع الذى جعل البشر يتجمعون معاً فى مدن ولم يكونوا قادرين فى البداية على تحمل المشاق والضغوط الجديدة التى خلقها التجاور الزحامى اللصيق. فى كتابه عن «الطبيعة الحيوانية والطبيعة البشرية» يعلق البروفيسور «و. هـ. ثورب» على ندرة العدوان فيما بين جماعات الشمبانزى وفيما بين جماعات الغوريللا، ويتساءل: لماذا يختلف البشر عن ذلك؟ إلا أنه بعد ذلك يرد على التساؤل الذى طرحه بإبراز حقيقة مهمة وهى أنه بينما يوجد عنف قليل بين مجموعات الحيوانات فى الغابة البرية، فإن ذلك يتغير حالماً تحفظ تلك الحيوانات فى الأسر وتتعرض لظروف غير مواتية من نقص الطعام وضيق المساحة التى يتحركون فيها، فى مثل تلك الظروف تظهر فجأة القدرة على العدوان. وهذا ما حدث للبشر حين أصبحوا من سكان المدن. كما

كانت الحاجة إلى تأمين مناطق لتلبية الاحتياج المتزايد للطعام والاستيلاء على مناطق تخص مدناً أخرى مجاورة دافعاً للبشر لخوض الحروب، وعدا ذلك كان لابد من الدفاع عن المدن ببناء الأسوار المنيعة وخلق ذلك بدوره عنصراً جديداً تماماً، وهو التزاحم داخل تلك الأسوار، ويبدو الآن مؤكداً، أن ذلك العنصر وهو التزاحم داخل مساحات ضيقة،حوّل البشر إلى معتادى إجرام.

لم ينتبه أحد إلى تأثير التزاحم فى إنتاج التوتر والعنف إلا فى السنين الأخيرة. فى عام ١٩٥٨ قام العالم «چون كريستيان» بدراسة عن الغزلان التى تعيش على جزيرة «چيمس» فى خليج «تشيزابيك» حين لاحظ أن الغزلان تموت بأعداد كبيرة. كان هناك حوالى ثلاثمائة غزال على الجزيرة؛ فى العام التالى مات منها مائتان وعشرون غزالاً لأسباب مجهولة. وأظهر تشريح ما بعد الوفاة تضخم الغدد الكظرية (غدة فوق الكلية) وهى الغدد المفرزة لهرمون الأدرينالين الذى يسبب حالة التحفز لدى الكائنات. كانت جزيرة چيمس تبلغ نصف ميل مربع، أى أن نصيب كل غزال من تلك المساحة كان يزيد قليلاً عن خمسة آلاف ياردة مربعة. كان من الواضح أن تلك المساحة لا تكفى فالغزالان تحتاج على الأقل إلى عشرين ألف ياردة لكل منها. وحين زاد عددها عن ثمانين. أصابتهم أعراض من التوتر والضغط العصبى أدى إلى إفراز الأدرينالين بكميات كبيرة فماتت الغزلان. وضبط عدد السكان من الغزلان نفسه على المساحة بطريقة آلية.

قام عالم نفس يدعى «چون. ب. كالهون» بإجراء تجربة مماثلة بتربية فئران برية نرويجية فى حظيرة. كانت الحظيرة على مساحة ربع فدان ويمكنها أن تستوعب خمسة آلاف فأر. وبمعدل المواليد المعتاد لدى الفئران كانت الحظيرة ستمتلىء بعشرة أضعاف ذلك العدد خلال عامين. إلا أن عدد الفئران ظل ثابتا عند المائتين.

أجرى «كالهون» بعد ذلك تجربة نمطية تقليدية باستخدام الفئران النرويجية. وضع عدد من الفئران فى أربعة أقفاص متصلة ببعضها من الداخل. كان القفصان الطرفيان اللذان لكل منهما مدخل واحد هما «السكن الأفضل»-

لأنه يمكن حمايتهما بسهولة والدفاع عنهما . وبمجرد بدأ التجربة استولى على السكن الأفضل فئران من ذوى السيادة العالية بحاشيتهم من الإناث . وأجبرت باقي الفئران أن تتحرك ، وتعيش في الأقفاص الوسطي التى كان الازدحام بها شديداً . وكان من بين ساكنى الأقفاص الوسطى فئران ذات سيادة نسبية (لاحظ كالهون أن عدد الفئران عالية السيادة يبلغ واحد من كل عشرين ـ أى خمسة بالمائة) ولكن بسبب الازدحام لم يستطيعوا أن يؤسسوا موطنا خاصا فى الأقفاص الوسطى أو منطقة سيادة . ولما زادت حدة التزاحم ، أصبحت الفئران عالية السيادة أكثر إجراماً ، كونوا جماعات وانهمكوا فى اغتصاب الإناث والمثلية الجنسية وأكل الفئران الأخرى . فى ظروف الحياة الطبيعية للفئران فإنها تمارس طقوس من التودد والتحبب تجاه بعضها البعض . أما فى تلك التجربة فقد كانت الفئران التى تحولت لممارسة العدوان تشق طريقها بالقوة إلى الإناث ويغتصبونها ويأكلون صغارها . أصبحت الأقفاص الوسطى كما ذكر «كالهون» بالوعة سلوكيات .

ومنذ صدور كتاب «لورينز» «عن العدوان» أصبح علماء الأخلاق يحذرون من مخاطر الخروج باستنتاجات عن السلوك البشرى استرشادا بما يتوصلون إليه عن السلوك الحيوانى ؛ ولكن فى مثل تلك الأحوال المتماثلة ، فإنه يستحيل أن نجد وسيلة لتجنب ذلك . إننا نعلم جميعاً أن أحياءنا العشوائية الفقيرة المكتظة بالسكان توفر كل الأسباب المؤدية للجريمة والعنف .

وتظهر تجربة أخرى أجراها «كالهون» فى المعهد القومى للصحة النفسية فى «ميريلاند» أن الأقلية عالية السيادة محرومة من المنافذ العادية التى تمارس فيها ذلك التسيد بلا عنف ولا ضر ؛ فتتحول تلك الطاقة السيادية إلى أنواع وأشكال من العدوان بلا تمييز . ويعلق على ذلك «ديزموند موريس» فى كتابه «حديقة الحيوان البشرية» قائلاً : «تحت الظروف العادية ، وفى أماكنها الطبيعية ، لا تمزق الحيوانات البرية بعضها ، ولا تمارس الاستمناء ، ولا تهاجم صغارها ، ولا تصاب بقرحة المعدة ، ولا تعانى من الفيتشية ، ولا السمنة والترهل ، كما لا تكوّن ثنائيات شاذة جنسياً ، ولا تمارس القتل للتقل . لا نحتاج

إلى تأكيد أن كل ذلك يقع بينهم، ويحدث لهم، ويمارس الحيوان فى الأسر كل أنواع الشذوذ». ودفع ذلك «موريس» أن يعلق قائلاً إن المدن حدائق حيوان بشرية. السبب يكمن فى أن حدائق الحيوان أو البشر تفرز الجريمة والعنف حين تكبت الميل إلى التسيد وتسد أمامه منافذ تصريفه بشكل طبيعى فيتحول إلى أحد أشكال العنف، يذكر الشاعر «ويليام بلاك»: «حين يحبس الفكر فى أعماق الكهوف، سيمد الحب جذوره إلى أعماق الجحيم».

بالرغم من كل ذلك، فإن التحذير من استخلاص نتائج عن الحيوانات وتطبيقها على السلوك البشرى يستحق أن يوضع فى الاعتبار بجدية شديدة. لأننا لا نجد أن كل مدينة كبيرة فى العالم «بالوعة» عنف وشذوذ. عدد منها كذلك بالفعل، ولكن هناك مدن أخرى مثل «هونج كونج»، حيث نتوقع أن نجد «عَرَضْ الفئران المتسيدة»، إلا أنها على العكس من ذلك تتمتع بمعدل جريمة منخفض للغاية.

فى كتاب «أردرى» «العقد الاجتماعى» وفى الفصل الذى يحمل عنوان «المساحة الشخصية» يذكر تجربة قام بإجرائها عالم النفس «أغسطس كنزل» عام ١٩٦٩ الذى أجرى التجربة على بعض سجناء السجن الفيدرالى. كان يضع السجين فى غرفة واسعة خالية ثم يدخل «كنزل» الغرفة ويتقدم باتجاه المسجون ببطء خطوة بعد أخرى، وكان كل مسجون قد أوصى أن يصيح به «قف» حين يشعر أن «كنزل» أصبح على مسافة منه غير مريحة له نفسياً. كان المساجين الذين لا يشى تاريخهم بالعنف يحتاجون «مساحة شخصية» تقدر بعشرة أقدام مربعة. إلا أن المساجين الذين كانوا أصحاب سجل طويل وحافل من العنف ظهر رد فعلهم عن طريق انقباض عصبى فى قبضاتهم كأنهم يهمون بالضرب حتى حين كان «كنزل» مازال على مسافة بعيدة منهم؛ كان ذلك النوع من البشر يحتاج إلى «مساحة شخصية» لا تقل عن أربعين قدماً مربعاً.

يبدو أن ذلك يدعم نظرية المساحة الشخصية إلا أنها تطرح سؤالاً وهو لماذا يحتاج بعض المجرمين مساحة أكبر من غيرهم؟ والإجابة لا تتطلب إلا قدر بسيط من الذكاء. عندما أكون متوتراً وقلقاً أكون أقرب «للانفجار» أكثر مما أكون

مرتخياً هادئ الأعصاب. قد يعود توترى إلى أسباب كثيرة مختلفة: مثل الجوع، أو إجهاد العمل، الإفراط فى الشراب، المخاوف الكثيرة المختلفة وعدم الرضى، يؤدى كل ذلك كما حدث لغزلان «السيكا» إلى ضخ كميات عظمى من هرمون الأدرينالين إلى مجرى الدم، وينتج عن ذلك التوتر الطويل المستمر تشحم الكبد ونزيف داخلى فى الغدة الكظرية المفرزة للأدرينالين والغدة الدرقية والمخ والكليتين. كل ذلك ينتج عن التوتر الذى يفرز هرمون الخوف (الأدرينالين).

فى كتاب «القبيلة البيولوجية» (ص ٢٢٨) الذى كتبه «جوردون راترای تايلور» نجده يذكر أن ذلك السبب هو ما يدفع إلى الانتحار الجماعى لدى نوع من الفئران القارضة (اللاموس)، وهو رد فعل ناجم عن التزاحم المترتب على زيادة أعدادهم. ويذكر أيضاً كيف كان الأسرى من الجنود الأمريكيين لدى كوريا يموتون بعد نوبات تشنجية أو يتحولوا إلى كائنات متهالكة، وأطلق على هذا المرض أو العرض اسم: «الاستسلامية».

ولكن، كلنا ندرك أن رؤيتنا الشخصية هى التى تحدد درجة توترنا. أى أننى «اسمح» لبعض المضايقات أن تجعلنى أشعر بالغضب وفقدان الصبر. فحين يشدنى رنين جرس الهاتف عن آلتى الكاتبة أثناء كتابة موضوع مهم يتطلب التركيز لخامس مرة فى الصباح قد أصيح فى نفاذ صبر «اللعنة، هذا غير معقول» وأشعر بتوترى يتزايد، أو قد أتبنى موقفاً معاكساً يرى أن هذه المقاطعات المستمرة لعمل مهم أقوم بإنجازه تدفع بالفعل إلى الضيق إلا أنها لا يمكن تجنبها، بطريقة إرادية أهدئ من نفسى. إنه قرارى فى النهاية.

وهنا يبدو أن آلية الطاقة تعمل من خلال قوة وقوة مضادة، مثل باب مرأب السيارة الذى يفتح ويغلق بتوازن الأثقال. للتبسيط دعنا نشير إلى تلك القوى بأسماء رمزية مثل قوة التوتر (القوة ت) وقوة السيطر على الذات (القوة س). القوة ت تعمل على تشتت وعدم ثبات عالمنا الداخلى. بينما القوة س تعمل على دعم الثبات وكبح الانفعال.

ونشعر بتزايد القوة حين نشعر بحاجة شديدة للتبول، فى تلك اللحظات

أجد قوة متزايدة بداخلى تجعلنى لا أشعر بالارتياح وحين يدوم عدم الارتياح لفترة طويلة، فإن الإحساس لا يعود محدوداً بمثانتى البولية، بل يزداد معدل خفقان القلب، مع سخونة فى الوجه ويبدو أن طاقاتى تتمدد كأنها تحاول الفرار.

تخيل على وجه آخر ما يحدث حين تكون مهتماً بشدة بأمر ما، فى ذلك الموقف «احبط طاقاتى» والطف من عدم صبرى واركز انتباهى، وبإيجابية أطبق قوة مضادة لقوة عدم الثبات والتشتت. فإذا كنت على سبيل المثال استمع إلى موسيقى هادئة فإننى استعمل القوة المضادة حتى أصل إلى حالة من «الرضى» العميق، إلى حالة من الإدراك أدق من الشعرة.

حين ننظر إلى المشكلة بهذه الطريقة، يمكن أن نرى أن «القوتين» هما القوتان الحاكمتان للوجود البشرى. فمنذ الدقيقة الأولى التى استيقظ فيها فى الصباح أبدأ فى التعرض لمختلف المؤثرات التى تراكم التوتر، وأرصد لحظة بعد أخرى تلك التوترات واستخدم القوة س للسيطرة عليها و ـ لو أمكن ـ أوجهها فى قنوات فى أغراض إيجابية بناءة. يميل البيولوجيون إلى إنكار وجود إرادة حرة؛ إلا أنه من الصعب وصف الموقف الذى أفسره إلا على ضوء ممارسة الاختيار المستمر لحظة بلحظة. فالضعفاء من البشر الذين لا يبذلون جهداً للسيطرة، يقضون حياتهم فى حالة دائمة من عدم الارتياح، مثلهم مثل من يريد أن يهرع إلى الحمام لإفراغ مثانته. يذكر «بلاك» فى روايته «تزواج الجنة والجحيم»: «إن أولئك الذين يكبحون رغباتهم، إنما يفعلون ذلك لأنهم ضعفاء بما يكفى لأن يفعلوا ذلك» وهى إحدى المقولات العديدة التى تتصف بالألغاز والغموض (فى الحقيقة، ذكرها «بلاك» على لسان الشيطان فى الرواية). لقد كان «بيتهوفن» مشهوراً بانفجاراته العصبية وسرعة غضبه؛ إلا أن «قواه الإحباطية» كانت أيضاً عالية بما يكفى لتوجيه انفعالاته المشتتة وتحويلها إلى الخلق والإبداع الموسيقى.

من الواضح أن غزلان السيكا، والفئران النرويجية، والقوارض، وأرانب الجليد والكائنات الأخرى التى لاحظ العلماء أنها تموت من التوتر، تفتقد

القدرة على السيطرة على القوة المحبطة. ومن المؤكد أن كل الكائنات تحتاج إلى بعض من تلك القدرة، وإلا فقدوا بالكامل إمكانية تركيز طاقاتهم وتوجيه أنشطتهم. ولكننا نجد أن ذلك التحكم لدى الحيوانات لا يظهر إلا من جانب مؤثرات خارجية فقط. فحين نشاهد قطة تراقب مدخل جحر الفأر، أو كلب يقف خارج منزل بانتظار خروج كلبة، فى مثل تلك الحالات التى يتوفر بها مؤثر خارج الذات يظهر كلاهما سيطرة مذهلة على الذات مع الحفاظ على درجة عالية من الانتباه والتركيز (وهذا هو الوعى المركز) لساعات متتابعة وربما لأيام. ولكن فى عدم وجود مؤثر خارجى يظهر على الحيوان علامات السأم والملل أو يقعى نائماً. البشر هم الحيوان الوحيد الذى يتطلب نمط حياته استعمال دائم ومستمر للقدرة الكابحة.

يمكننا على ضوء ذلك عرض مشكلة قبيلة «آى. ك» على وجهها الصحيح فلم يكن لديهم إمكانية تنمية القدرة الكابحة فيما يختص بالمشاعر والأحاسيس الشخصية. فهم كصائدين وملتقطى ثمار كانت حياتهم تتسم بالبساطة مثلهم مثل الحيوانات التى كانت تشاركهم المعيشة فى المنطقة التى كانوا يحيون بها أولاً. وحين تم نقلهم إلى مكان آخر واجهوا موقف بيئى ومعيشى يتطلب وسائل تحكم وسيطرة مختلفة على الذات، وحين لم تكن تلك الوسائل موجودة لديهم بسبب نشأتهم أصبحوا ضحايا قواهم الذاتية، أى قوى عدم الثبات و«الاستسلامية».

كل ذلك يثبت أنه حتى فى تجربة «كينزل» على المساجين، لم تكن «المساحة الشخصية» هى جوهر الأمر. يمكن التأكد من ذلك بتكرار التجربة نفسها ولكن بطريقة مختلفة بإجرائها مع طفل وهو ما يجعل النتيجة أوضح. أطلب من الطفل أن يقف فى منتصف الغرفة، ثم اتجه إليه من طرف الغرفة على يديك وركبتيك وتقدم منه ببطء مزمجراً ومصدراً ضجيجاً وأصواتاً مفزعة. أول رد فعل يظهر على الطفل هو الإثارة والمرح وبمجرد أن تقترب منه تبدأ أصوات ضحكه تتحول إلى ضحك هستيرى، وعلى مسافة معينة تجده يستدير ويهرب مفزوعاً. الأطفال الأكثر ثقة سيبدأوا بالجرى تجاهك عند درجة اقتراب معينة ـ

هذا الاندفاع نحوك ليس إلا وسيلة يؤكد بها الطفل لنفسه أن من يخيفه ليس إلا أباه.

الآن، اعكس الموقف، وخذ مكانه فى منتصف الغرفة، بينما بعض الكبار الآخرين يزحفون نحوك وهم يصدرون أصواتاً مخيفة عالية. ستلاحظ بغرابة أنه بالرغم من أنك مصمم التجربة، إلا أنك تشعر بنبضة انزعاج مع ازدياد تدفق الأدرينالين وخفقان القلب.

إلى حد بعيد، نجد أن آلية عدم الثبات آلية ذاتية تعمل من تلقاء نفسها.

لديك الفرصة أيضاً لمعرفة وملاحظة الدرجة والمدى الذى يمكنك أن تستعمل فيه آلية السيطرة وتطبقها. التهديد المتخيل يولد نبضة حث على الفرار ويرفع درجة التوتر الداخلى. وأبسط طريقة لتسريب هذا التوتر أن تشق له منفذاً للخروج وإن رفضت وقاومت تسريب التوتر الداخلى ستلاحظ محاولات آليات الثبات ـ القوة س ـ للسيطرة على قوى عدم الثبات، التى تدفع أمامك بالعديد من الاختيارات والبدائل لكل موقف يبعث على التوتر وهذا يعتمد على مدى اختيارك أن تمارس تلك السيطرة. تستطيع بطريقة إرادية أن توقف انسياب التوتر، بل يمكنك ببعض التدريب والتمرين أن تمنع حدوثه على الإطلاق.

لقد سنحت لى فرصة لملاحظة تلك الآلية فى مدينة ملاهى، كانت هناك سينما صغيرة تعرض أفلاماً صممت خصيصاً لإصابة المشاهدين بالخوف ودوار الحركة. كان على المشاهدين الوقوف أمام شاشة كبيرة جداً ومنحنية كجزء من جدار أسطوانة. ويبدأ العرض بمشاهد لعربات تنحدر على قضبان حديدية. وعربات جليد تجرى على مسطحات ثلجية ثم تفاجئ بمنزلقات جليدية من فوق جبال شاهقة؛ ومع الحركة التصويرية سرعان ما يشعر المشاهدون أن الأرض تجرى من تحت أقدامهم ويصبحون جزءاً من الصور سريعة الحركة. بعد عشرين دقيقة أو نحو ذلك بدأت أشعر أنى أركب تلك العربات، واستطعت أن أقاوم الإحساس بالتمايل والترنح. وبالرغم من ذلك وقرب نهاية الفيلم لم أستطع أن أمارس السيطرة أكثر من ذلك؛ كان المشهد لسيارة تندفع مسرعة

على طريق سيارات بسرعة فائقة، عند تقاطع طرق مالت بنفس السرعة متجهة نحو سيارة واقفة تنتظر فتح إشارة المرور. مددت قدمى بصورة آلية لأضغط بدال كابح السرعة وكأننى أقودها، فترنحت وسقطت بين يدى سيدة سيئة الحظ كانت تقف ورائى.

ما حدث هو أن فجائية مشهد الاندفاع للاصطدام جرنى إلى ما بعد النقطة التى صممت آلية السيطرة على نفسى عندها، أما فى العشرين دقيقة السابقة فقد كنت أمارس سيطرة أعلى كثيراً من المعتاد. فى أحوال مماثلة ـ يحدث شىء مماثل لسكان المدن كل يوم ـ فنحن نميل إلى الشعور بأن كل سيطرة أمر «نسبى» وربما تكون لهذا السبب غير ذات جدوى. وهذا الخطأ ـ الذى يسهل الوقوع فيه ـ هو جوهر العقلية الإجرامية. فالمجرم يتخذ قراراً بإلغاء السيطرة. وهو لا يرى سبباً وجيهاً لإضاعة الوقت لتأسيس مستوى عال من السيطرة على الذات ولينشغل الآخرين بذلك كما شاءوا. والنتيجة بالطبع سيئة بالنسبة للمجتمع، إلا أنها أكثر سوءاً للمجرم نفسه. فالمجتمع على كل الأحوال يستطيع أن يستوعب بعض العنف، أما بالنسبة للفرد غير المسيطر على ذاته فإنها تعنى تدميراً ذاتياً كاملاً حتى آخر المدى.

حين نلاحظ التوازن المستمر بين القوة ت (توتر) والقوة س (سيطرة) يمكن أن ندرك أثر القوتان على تطورنا البشرى. فحين تتعرض الغزلان والقوارض لازدحام بيئى، فالنتيجة الحتمية هى ازدياد قوى عدم الثبات داخل تلك الكائنات مما يؤدى إلى زيادة إفرازات هرمون الأدرينالين؛ والوصول إلى نقطة معينة من التوتر يصل بها إلى الموت. لابديل لذلك، كما لا توجد وسيلة ولا إمكانية لتطوير قدرة التماسك والسيطرة فهى تنقصها الدوافع. وحين تجمع البشر للمعيشة فى مدن، كان هناك دافع هو الحماية المتبادلة. وكان من نواتج ذلك تطور مجموعة من الشذوذ الذى وضع قائمته «ديزموند موريس» مع ظهور «النموذج الإجرامى». إلا أن سكنى المدن أدت أيضاً إلى زيادة قوة الثبات والسيطرة، وتطوير مستوى من السيطرة على الذات تتجاوز أى قدرة لحيوان آخر.

من خلال هذا التطور، استطاع الإنسان التوصل إلى أهم مكتشافاته؛ وهو أن السيطرة ليست قيمة سلبية. فأى فرد كان، مجبر على إجادة جانب تقنى صعب ـ مثل العزف على آلة موسيقية ـ يعلم أن بداية التعلم تنطوى على قدر كبير من القلق والتوتر والخوف، وتبدو له المهمة صعبة كمن يضعه على ظهر جواد برى. ثم بعملية من اللاوعى، تبدأ السيطرة والتمكن. وهنا يسود إحساس حذر من التألق الداخلى والرضا حين يبدأ الإحساس بالنجاح. ثم فجأة تماماً، يتحول الخوف إلى إحساس بالقوة والسيطرة، وينزل عليه إحساس مماثل لإحساسه حين يكتشف أن الحصان البرى ليس إلا داجناً وأليفاً وتحول إلى خادم مطيع لا يقدر بثمن. إن قوة التماسك ليست نظاماً دفاعياً ذاتياً، ولا وسيلة «لتخطى» مصاعب مفتعلة أو تبدو ضخمة. بل هى القدرة على الغزو وقهر صعوبة لتغيير الحياة.

بمجرد أن يتوصل أفراد البشر إلى هذا الاكتشاف، فإنهم يتطلعون حولهم باحثين عن مجالات جديدة لقهرها. ويفسر لنا ذلك كيف أن البشر هى المخلوقات الوحيدة التى تبحث عن المشاق والمصاعب للإحساس بمتعة التغلب عليها: هناك من يتسلق الجبال «لأنها موجودة هناك»، وهناك من يحاول تسجيل أرقام قياسية فى الدوران حول العالم بمركب شراعى بسيط وبيد واحدة. إن زيادة القوة س متعة فى حد ذاتها. وارتكز الفيلسوف المعاصر «لودفيج ويتنشتاين» فى فلسفته على مقارنة الرياضات المختلفة واللغة. لقد أكد أنه لا يوجد عنصر جامع شامل يربط بينها إلا عنصر الصبر. وبالطبع يمكننا أن نرى أن ذلك غير حقيقى، فكل الرياضات لها هدف عام: هو زيادة القدرة على التماسك والثبات فى مواجهة قوى عدم التماسك. كل الرياضات صممت لخلق توتر، للشعور بمتعة السيطرة على التوتر (ومن هنا، كانت المقولة الشهيرة أن معركة واترلو قد حسمت فى ملاعب إيتون).

التميز الرئيسى فى تطور الإنسان أنه المخلوق الوحيد الذى تعلم أن يحيا ويزدهر بالتوتر، وهو يحول التوتر إلى قدرة خلق وإبداع؛ وإلى رضا منتج، والظاهرة المثيرة للدهشة أن كثير من البشر المعرضين لمستويات عالية من التوتر

يتمتعون بصحة طيبة بشكل غير عادى. فى دراسة صحية أجرتها شركة «بيل» للهاتف اتضح أن من يعانون من ضيق شرايين القلب بلغ ثلاثة أضعاف بين الرجال العاديين مقارنة بأولئك الذين يشغلون مناصب تنفيذية وإدارية عليا. والسبب، كما توصل إليه الباحثون أن أصحاب تلك المناصب التى يصاحبها كثير من التوتر ذوى شخصيات سيادية وأن ذلك يمكنهم من احتمال التوتر.

وهناك تفسير آخر لا يقل قيمة ووضوحاً وهو أن أولئك الأشخاص قد حازوا تلك المناصب بتطوير قدرتهم على مجابهة المشاكل واحتمال التوتر. كما أظهرت دراسة بريطانية عن الأشخاص الذين وردت اسماءهم فى موسوعة «من هو» وهى موسوعة عن المتميزين من الرجال النتيجة نفسها: فكلما زاد تميز فرد، زاد العمر المفترض تحسن أيضاً مستواه الصحى. ومن هنا يتبين أنه ليس أمراً سلبياً أن نتعلم «احتمال التوتر». الفائزين بجائزة «نوبل» كما وردوا فى ترتيب منح الجائزة كان لديهم أسبابهم لتحمل التوتر ومن أهمها الإحساس والإيمان العميق بهدف. وأيد ذلك د. «جيفرى جراى» فى مؤتمر الجمعية البريطانية للطب النفسى فى ديسمبر ١٩٨١ حين ذكر فى ذلك المؤتمر: هناك اتجاهات متزايدة هذه الأيام لاستعمال العقاقير المهدئة للتوتر، إلا أنه يجب على البشر أن يتشربوا ضغوط أعمالهم ومهنهم، وأن ينموا احتمالهم للضغوط. إن الفئران التى وضعت فى ظروف تخلق توتراً وتم حقنها بالمهدئات تفاعلت بكفاءة أقل من الفئران التى لم تعط أى عقاقير مضادة للتوتر. كانت الفئران التى لم تعط مضادات للتوتر أشد «صلابة» وطورت وسائل ضد الظروف الصعبة التى تخلق ذلك التوتر؛ والإنسان هو الحيوان الوحيد الذى تعلم أن يحول التوتر والضغط النفسى لإرضاء ذاته، يتيح لنا كل ذلك أن نفهم الجانب المختلف فى المجرم عن باقى البشر. فالمجرم مثل الفئران التى حقنت بالفاليوم (مهدئ التوتر)، فهو يفشل فى تطوير «مقاومة التوتر» لأنه تعود على تسريب توتره بدلاً من تعلم كيفية السيطرة عليه. الإجرام اختزال واختصار للطرق. ينطبق ذلك على المجرمين الذين لا يتصفون بالعنف كما ينطبق على المجرمين العنيفين. فالجريمة بشكل أساسى ليست إلا بحثاً عن «الطريق الأسهل».

لو أخذنا فى الاعتبار افتقار البشر الطبيعى للإحساس بالغير لهالنا أن المدن الكبرى ليست بالعنف المتوقع. ويعود ذلك ـ وهو أمر غريب ـ إلى أن البشر ليسوا قساة بالسليقة، بل اجتماعيين بالسليقة ويستجيبون للتقدم الاجتماعى لدى الآخرين بالتعاطف والتفهم.

إذا جلس فردان متجاوران فى حافلة عامة فإنهما يظهران قدراً من التعاطف بمجرد أن ينظر كل منهما إلى عين الآخر. وأسهل كثيراً أن تكتب رسالة مليئة بالغضب والسخط من الذهاب وقول نفس العبارات والألفاظ للشخص ذاته. لأنه بمجرد أن تطالع الوجوه بعضها بعضاً تبدأ فى تلمس وجهة نظر الآخر.

أما ما يجافى المنطق حقيقة فهو أن الجنود الألمان الذين كانوا يقذفون الأطفال الهاربين من الكنيسة التى أحرقوها إلى داخل الكنيسة فى قرية «أورادور» الفرنسية إبان الاحتلال النازى لفرنسا، فهم بشكل مؤكد أزواج جيدون وأباء محبوبين من أطفالهم. كذلك الجنود اليابانيون الذين جعلوا من الأطفال الصينيين أهدافاً حية للتدريب بسناكى البنادق والذين كانوا يبقرون بطون بنات المدارس بعد اغتصابهن كانوا يحتفظون بصور أطفالهم فى حقائبهم العسكرية.

فكيف يمكن أن نفسر ذلك؟

هل البشر حقيقة أكثر شراً من النمور والعقارب؟

ربما تضمنت نتائج التجربة التى أجراها البروفيسور «ستانلى ميلجرام» فى جامعة «هارفارد» إجابة على التساؤل السابق. كان الهدف من التجربة تحديد إمكانية تحريض «البشر العاديين» لممارسة تعذيب الغير. أوهم المجموعة التى سيجرى عليها التجربة أنه يهدف إلى معرفة إن كان العقاب يزيد قدرة إنسان ما على التعلم أم لا. وكانت الوسيلة هى توصيل جهاز صدمات كهربائية بإنسان يمثل دور الضحية، ثم يطلب من كل فرد من أفراد التجربة أن يصيب الضحية بصدمات كهربائية متدرجة الشدة. كان الضحية فى حقيقة الأمر أحد الممثلين البارعين وكان بإمكانه أن يصرخ بإتقان كأنه يتعرض لصدمات كهربائية حقيقية. وأخبر البروفيسور «ميلجرام» أفراد التجربة أن الصدمات

لن تسبب آثاراً سيئة مستديمة للضحية الذى يتعرض للعقاب ثم أصاب الضحية بصدمة على سبيل التوضيح قوتها ٤٥ ڤولت ليثبت لهم أن كل شيء طبيعي وحقيقي. الغريب حقاً أن العدد الأكبر من أولئك الناس العاديين سمحوا لأنفسهم أن يزيدوا من قوة الصدمات حتى وصلوا بها إلى ٥٠٠ ڤولت بالرغم من الصرخات المروعة التى أطلقها الضحية وبالرغم من تضرعه وتوسله لهم أن يرحموه ويخففوا الصدمات، ولم ترفض إلا نسبة قليلة الاستمرار فى تلك التجربة. وعند تسجيله لنتائج التجربة فى كتاب يحمل اسم «طاعة السلطة» أوضح «ميلجرام» كنه ذلك الدافع مستشهداً بالجندى الأمريكى الذى شارك فى مذبحة «ماى ـ لاى» فى «ڤيتنام» والذى ذكر أنهم بعد أن تلقوا الأمر من الملازم «كالى»، أدار مدفعه الرشاش الثقيل وحصد الرجال والنساء والأطفال حتى الرضع منهم، وحين سأله المذيع الذى أجرى المقابلة: «كيف استطعت وأنت أب أن تطلق النار على الرضع؟» وكانت إجابة الجندى: «لا أدرى ـ المسألة أنها إحدى تلك الأشياء التى حدثت».

وتكشف تلك الكلمات بصورة مفاجئة لنا كيف يصبح البشر قادرين على سلوك مثل تلك السلوكيات القاسية. السبب هو أن لنا عقول، وتلك العقول قادرة أن تجعلنا نتجاوز غرائزنا بل وأن نناقضها. فالحيوان لا يمكنه أن يعصى غرائزه، ولكن البشر يعصون ويناقضون غرائزهم مئات المرات كل يوم.

إن المعيشة فى مدينة معاصرة، لا يوجد فيها ما هو شخصى، وتموج بزحام سكانها ليست إلا انتهاكاً رئيسياً للغريزة الطبيعية للإنسان. لذلك عندما أمر الملازم «كالى» جنوده بإطلاق النار على النساء والأطفال، فإنه لم يفعل إلا ما علمته إياه الحضارة منذ طفولته ـ أن يسمح لعقله بتجاوز غريزته وفطرته.

كذلك كانت موجة اغتصاب الجنود اليابانيين لكل إناث مدينة «نانكنج» الصينية، تجاوز فيها العقل أيضاً الغريزة والفطرة. كتب «رودس فارمر» فى كتاب «حصاد شنغهاى» ـ مذكرات ثلاثة أعوام فى الحرب الصينية (نشر عام ١٩٤٥): «إلى الجنود اليابانيين فى نهاية أربع أشهر من القتال المرير، تعدكم «نانكنج» بأن يكون ذلك آخر انغماس لكم فى ملذاتها قبل أن تعودوا إلى

حياتكم المهذبة في اليابان»، إلا أن ذلك يظهر أنه فشل في تفهم الشخصية اليابانية. يقترب الكتاب الياباني السنوى لعام ١٩٤٦ من الحقيقة بقدر أكبر حين يذكر: «في السابع من ديسمبر كانت قواتنا قد بدأت في مهاجمة الدفاعات الخارجية لمدينة «نانكنج»، وبعد ذلك بأسبوع استعر الغضب الياباني بسبب الدفاع الصيني العنيد عن مدينة «شنغهاى» فانصب ذلك الغضب على مدينة «نانكنج» بشكل مرعب ومفزع وإرهابى».

لقد أدت المقاومة الصينية العنيدة ـ منذ صمودها غير المتوقع في «ليوكوتشاو» في يوليو ١٩٣٧ إلى فقدان الإمبراطورية اليابانية لماء وجهها، ولذا كانوا في موقف صعب لا يتسامح عندما اقتحموا «نانكنج».

ولكن لماذا كان فقد اليابانيين لماء وجههم قاسياً عليهم إلى هذه الدرجة؟ لفهم ذلك لابد أن نفهم أولاً التقاليد الدينية العميقة للشعب الياباني.. يذكر المؤرخ «أرنولد توينبى» في كتابه «من الشرق إلى الغرب» (ص ص ٦٩ ـ ٧١) أنه لو كانت مدينة «برونسجروف» تقع في اليابان، لقام اليابانيون بتقديسها لأنها تحمل المقطع الأول من اسم إله الحرب الياباني المقدس وهو الإله «برون»، ولابد أنهم كانوا سيشيدون بها معبداً بوذياً ملاصقاً لكنيسة الرب المعبود، وكانت علاقة الكاهن برئيس الكنيسة ستكون على أفضل ما يمكن أن تقوم عليه العلاقات.

وعندما اتجه اليابانيون إلى نقل تجربة الغرب في القرن التاسع عشر، انصب رد الفعل للحفاظ على الروح القومية في تعميق المشاعر الدينية المتمثلة في عبادة الإمبراطور الذى كانوا يعبدونه بصفته إلهاً. أما الحرب التى بدأت عام ١٩٣٧ وانتهت عام ١٩٤٥ بضرب مدينتين يابانيتين بالقنابل الذرية لأول مرة في التاريخ. فقد أدت تلك الحرب عند بدايتها إلى تكثيف شديد وسريع لمشاعر وطنية ملتهبة وحادة مشابهة للمشاعر الوطنية لدى النازى في ألمانيا. كانت جحافل الجيوش اليابانية تشعر أنها تقاتل في سبيل الرب ـ الإمبراطور، وأن قضيتهم عادلة ومبررة. كانت تلك المشاعر الفياضة هي السبب في أن المقاومةالصينية العنيدة وضعتهم في ذلك المزاج السيىء غير المتسامح. مثلهم

مثل شخصيات تجربة «ميلجرام»، تلقوا صدمة علاجية صحية؛ ولكن في حالتهم تحول الغضب إلى قسوة ووحشية. الغريب أن «ويلز» فشل في التقاط ذلك الخيط المدهش والموضوعي من القسوة البشرية وظل محاصراً في مفهوم أن الظروف المتدنية والمتدهورة في الأكواخ الفقيرة هي التي تفرز مشاعر الإحباط والفشل، ويواصل تعميق تلك الرؤية بتحليلات مطولة عن القسوة البشرية والسادية، معيداً بالتفصيل حالة المارشال «چيل دى رى»، الذى قتل مائتى طفل في نوبات جنسية في القرن الخامس عشر. في الحقيقة، لا يلقي شذوذ «دى رى» ضوءاً على طبيعة البشر العاديين الذين يتصف مزاجهم الجنسي بالمباشرة. لم يكن اليابانيون الذين أحرقوا «نانكنج» الصينية ولا الألمان الذين دمروا «أورادور» الفرنسية شاذين جنسياً؛ ربما كانوا لم يرتبكوا قبل ذلك جرائم من ذلك النوع. لقد كانوا ببساطة يصرِّفون عدوانيتم في إطار طاعة السلطة.

ووقع «فروم» في الخطأ نفسه فقد توصل إلى أن هناك ما يسمى «العدوانية تحت تأثير الأوامر» أو «العدوانية الملتزمة بالأمر» - ولكنه رأى أن التدمير البشرى يمكن تفسيره بشكل أفضل برؤيته على ضوء ما أطلق عليه «العدوان الخبيث» ورأى أن العدوان الخبيث نوع من السادية. لقد عرف «فروم» السادية بأنها رغبة في حيازة سيادة وقوة مطلقة على كائن أو كائنات بشرية أخرى تدفع إلى السيطرة عليهم سيطرة مساوية لسيطرة الرب. واستشهد بـ«هتلر» و«ستالين» كمثال على السادية من هذا الصنف مشيراً إلى أن كلاً منهما كان في وقت ما رقيقاً وعطوفاً ثم تحولا إلى استخدام القسوة المتناهية وعدم الرحمة حين كانت سلطتهما المطلقة موضع تساؤل أو تشكيك من أى أحد أو أى جماعات حتى لو كانت من الشعب بأجمعه. لا يفسر ذلك بالطبع الميل البشرى إلى تدمير بشر آخرين في الحروب، ولكن أدى ذلك بـ«فروم» إلى استنتاج وجود نوع آخر من العدوانية السرطانية الخبيثة أطلق عليها «نيكروفيليا» أو «النزعة إلى الموت والموتى» وهو بذلك كان يعنى بشكل ما إلى تعضيد رأى «فرويد» في مصطلحه الذى أسماه «ثاناتوس» أو «الدافع إلى الموت» الذى يعنى الدافع البشرى لتدمير الذات. صاغ «فرويد» تعبير «الرغبة في الموت» في زمن الحرب العالمية الأولى في محاولة منه لتفسير تلك المذبحة

العالمية ولم تكن تلك الفكرة من أفكاره البارعة كما لم تكن مقنعة لمعاصريه ولا لمن تتلمذوا عليه، كان من الواضح أن أغلب حالات الانتحار قد حدثت في حالة من البلبلة والتشوش الذهنى، التى يسيطر فيها على المنتحر إيمان جازم بأن الحياة لا تستحق أن تعاش، ويدل ذلك على أن الغريزة الداخلية تنشد حياة أفضل ومزيداً من الحياة. لقد ذكر الشاعر الرومانسي «كيتس» أنه «في حالة نصف حب مع الموت المريح»، ولم يكن ذلك إلا خلطاً لفكرة الموت والخمود مقارنة بالنوم والراحة. لو كان لدى البشر ميل ونازع لتدمير الذات فإنهم يدارونه بشكل بارع. رغم كل ذلك تبنى «فروم» آراء «فرويد» فيما يختص «بالنزعة والرغبة فى الموت» واستشهد فى ذلك بجنرال من الحرب الأهلية الإسبانية الذى كان أفضل شعار صاغه أثناء المعارك هو «فليحيا الموت»، الجنرال نفسه صاح ذات مرة فى اجتماع للمفكرين الأحرار «فليسقط الذكاء»، واستنتج «فروم» من ذلك أن العسكرية تحتوى على عنصر معادٍ للحياة من الممكن تسميته نيكروفيليا أو الرغبة فى الموت إلا أنه أفسد استدلاله عندما استشهد بمثلين واقعيين عن النيكروفيليا استمدهما من مرجع طبى خاص بالشذوذ الجنسي وكليهما عن طلاب يدرسون الطب فى المشرحة كانوا يستمتعون بأجساد النساء الميتة. وصف أحدهم كيف أنه كان يستمتع منذ بداية مراهقته بممارسة الاستمناء وهو يداعب الأعضاء المثيرة للموتى من النساء، ثم شرح كيف تدرج فى ممارساته حتى أصبح يمارس الجنس مع أجساد الموتى من الإناث. ويطرح ذلك الاستشهاد هذا السؤال بطريقة آلية: هل تعد هذه الحالة مثالاً يفسر النيكروفيليا أو الرغبة فى الموت أم رغبة جنسية موجهة للموت؟ كثير من الفتية المراهقين سيفعلون ذلك إذا واتتهم الفرصة والدلالة هنا ليست ميلاً للموت والفناء، بقدر ما هى رغبة جنسية وإن كانت غير سوية، النيكروفيلى الحقيقى هو ذلك الذى يفضل الأجساد الميتة لأنها ميتة.

من أهم الحالات المشهورة عن النيكروفيليا حالة الرقيب «برتراند» (عرضت موضوعة فى الفصل السادس من كتابى «أصول الدافع الجنسى») وهو مع ذلك لم يكن تعبيرا عن النيكروفيليا كما عناها كل من «فرويد» و«فروم»؛ لأنه بالرغم من أنه كان يحفر القبور ويضاجع جثث النساء المدفونة حديثاً، إلا أنه

كانت له عشيقات أحياء شهدن بفحولته الجنسية، كان ببساطة شديد الفحولة يحتاج إلى مزيد من الجنس أكثر مما كان يحصل عليه من الأحياء.

لذلك فنظرية «فروم» عن «النيكروفيليا» وشرحه المطول عن نيكروفيلية «هتلر»، تنهار بسهولة عند تحليلها بدقة، كذلك لم يكن الجنرال الإسبانى الذى صاغ شعار «يحيا الموت» نيكروفيلياً بأى معيار: لقد كان يذكر الموت بمعنى خاص يعنى تضحية مثالية بالذات لصالح الوطن ومن الواضح أنه لا يوجد أى وجه للارتباط بينه وبين طلبة المشرحة الذين كانوا يضاجعون الموتى من النساء. أما «هتلر» فقد كان مدمراً بلا جدال، ولكن لا يوجد أى دليل يثبت أنه كان ميالاً لتدمير ذاته، كما لا يوجد أيضاً أى دليل أنه كانت لديه أى رغبة خفية للموت، بل إنه كان عكس ذلك، حالماً مثالياً آمن أن حزب «الرايخ» الذى دام لألف عام يدل على حيوية الأمة الألمانية. لقد فشلت نيكروفيليا «فورم» كما فشل مفهوم «ويلز» عن القسوة أن يقدما تفسيراً مرضياً ومقبولاً للقسوة البشرية؛ كما لم يكن تفسير أى منهما شاملاً وكاملاً بما يكفى.

أما مفهوم «فقد ماء الوجه» فإنه يطرح خطاً بديلاً ومثيراً من البحث. فمن الواضح أنه يرتبط على سبيل المثال بقسوة «هيملر» وكذا «ستالين» حين كانت سلطتهما المطلقة توضع موضع تساؤل. كان كلاهما يتميز بقدر كبير من الاعتداد والاعتزاز بالذات، لذلك كان رد فعلهما لما يريان أنه إهانة لذاتيهما يشكل انتقاماً قاسياً لا يعرف حداً فى قسوته. كما كان كل منهما يوقن أنه على صواب فى كل ما يراه ويفعله، مع عجز كلى عن القدرة على الاعتراف بأنه من الممكن أن يخطىء.

لحسن الحظ فإن النماذج من مثال «هيملر» و«ستالين» نادرة بين من وصلوا إلى أعلى مراتب السلطة؛ إلا أن المدهش أن ذلك النموذج من البشر ليس بقليل. والفضل فى الكشف عن ذلك النموذج يعود إلى «أ. إ. ڤان ڤوجت»، وهو كاتب خيال علمى وصاحب عديد من الدراسات النفسية البارعة. مفهوم «ڤان ڤوجت» عن «الرجل الصائب»(*) أو «الرجل العنيف» على درجة كبيرة

(*) الرجل الصائب: هو كل كائن بشرى يوقن أنه على صواب مطلق فى كل ما يفعله وكل ما يفكر به (المترجم).

من الأهمية لفهم طبيعة الإجرام وتستحق لذلك أن نستعرضها بإسهاب أكثر من غيرها.

بدأ «ڤان ڤوجت» عام ١٩٥٤ فى كتابة رواية حربية تحمل اسم «الرجل العنيف» كانت أحداثها تدور فى أحد معسكرات الاعتقال الصينية. كان قائد ذلك المعسكر من الشخصيات التى تمارس السلطة بطريقة مطلقة تتسم بوحشية وقسوة لا متناهية، حتى إنه كان يأمر بإعدام من يجرؤ على تحدى سلطته وينفذ أمر الإعدام فوراً وبلا مراجعة. كان ڤان ڤوجت يصوغ الشخصية مستمداً ملامحها من ملاحظاته عن شخصيات مثل «هتلر» و«ستالين». وحين كان يفكر فى السلوك الدموى لذلك القائد، وجد نفسه يتساءل «ما نوع الدوافع التى يحتمل أن تخلق هذا النمط السلوكى؟» ولماذا يشعر بعض البشر أن أى معارض لهم إما أن يكون غير أمين أو مغرض أو شرير؟ وهل يؤمنون فعلا فى أعماقهم أنهم آلهة أو معصومين من الخطأ؟ وإن كان ذلك فعلاً هو إيمانهم، فهل يكونون بشكل ما مجانين أو مختلين مثل ذلك النوع من الجنون الذى يمكن أن يجعل شخصاً ما يعتقد أنه يوليوس قيصر؟

حين بحث «ڤان ڤوجت» عن أمثلة لهذا النموذج، أذهله أن سلوك الذكر السلطوى يتطابق إلى حد بعيد مع ما اعتقد أنه شكل من أشكال الجنون. ويكفى الرجوع إلى عناوين الحوادث بالصحف:

> زوج يقتحم حفل كريسماس ويطلق النار على زوجته التى تصاب إصابة بالغة لرفضها العودة إلى المنزل كما ادعى.
>
> مضيف يطعن زوجته حتى الموت لأنها خانته كما ادعى. الأصدقاء المذهولين ذكروا أنه هو الذى كان يخونها، لا هى.
>
> يدهم زوجته السابقة بالسيارة فى الطريق. اعتقال الزوج السابق للاشتباه فى القتل العمد.

زوجة سابقة تتعرض لضرب عنيف من مطلقها لاتهامه لها بأنها أم غير ملائمة. الجيران ينفون ويتهمونه بأنه مثير للمشاكل.

محاولة فاشلة لزوج لدفع زوجته من قمة جبل. الزوجة تتصالح والزوج يعلن حبه لزوجته.

طبقاً لملاحظات «ڤان ڤوجت» يبرز الزواج الشخصية المتسلطة لكثير من الذكور. وطرح تلك الملاحظة على صديق له يعمل بالطب النفسى، وسأله إن كان لديه نماذج تدعم استنتاجاته، فحكى له عن حالة مثيرة لرجل اصطحب زوجته إليه لعلاجها نفسياً. كان الزوج قد أسكن زوجته فى أحد مناطق الضواحى البعيدة عن المدينة وهى مناطق شبه ريفية، واشترط عليها ألا يكون لها أى أصدقاء من الذكور على ا لإطلاق وأن يقتصر دورها فقط على أن تكون أماً جيدة لابنهما.

وكانت قصة زواجهما كالتالى: كانت تعمل ممرضة بأحد المستشفيات. وحين عرض عليها الزواج، شعرت أن الأمانة تقتضيها أن تعترف له بوجود علاقتين سابقتين بطبيبين. أصابت الرجل حالة من الغيرة الجنونية وغادرها وهو فى حالة سيئة. أيقنت أن ذلك كان نهاية للعلاقة. إلا أنه عاد إليها فى اليوم التالى ومعه وثيقة، وأصر أن توقع عليها دون أن تقرأها إن كانت تريد للزواج أن يتم.

توقع «ڤان ڤوجت» أن الوثيقة تحتوى لابد على «اعتراف» منها أنها كانت امرأة غير حميدة السلوك، وأنه بزواجه منها يرفعها من الدرك الأسفل الذى كانت تحيا به، وبالتالى فإنه لا حقوق قانونية لها.. إلخ.

وتزوجا، وبسرعة أدركت مدى خطئها. كان عمل زوجها يقتضى السفر من مكان لآخر، وعلى ذلك لم تعرف أبداً المكان الذى يوجد به. كان يزور السيدات اللاتى يعملن معه فى بيوتهن لساعات طويلة، ويقضى أوقاتاً طويلة فى توصيل سكرتيراته إلى منازلهن. وإن سألته عن أى أمر من تلك الأمور يطير صوابه غضباً وربما ضربها. كان فى واقع الأمر أقرب إلى الرد على الأسئلة التى

كان يرى أنها جارحة «بضربها»، وفي اليوم التالى يتصل بها عبر الهاتف من أماكن بعيدة ويرجوها أن تصفح عنه، واعداً أنه لن يفعل ذلك مرة ثانية.

مع الوقت، تحولت الزوجة إلى حالة من البرود الجنسى. فانفصلا بالطلاق، إلا أنه استمر باذلاً كل جهده فى معاملتها كملكية خاصة به، وقيد حريتها وحاصرها من كل جانب. وحين غضبت وأصابها تونر نفسى دائم، أخبرها أنها لابد أن تذهب إلى طبيب نفسى - وكان ذلك هو سبب ذهابها إلى المعالج النفسى صديق «ڤان ڤوجت».

كانت الحالة نمطاً جيداً لما أطلق عليه «ڤان ڤوجت»، «الرجل العنيف»، أو «الرجل الصائب». وهو الرجل الذى يقوده احتياج نفسى شديد للإحساس بالذات أن يشعر أنه «ذا شأن ما»، ويتملكه إحساس بالدونية أو «فقد ماء الوجه»، إذا لم يرضخ الآخرون لرغبته لذلك لا يعترف تحت أى ظرف من الظروف بأنه قد يكون على خطأ. كما أن محاولة ذلك الرجل أن يقنع زوجته السابقة أنها غير سوية أو مجنونة يعد مثالاً نمطياً لتلك الحالة.

لا تقل الغيرة المجنونة الوحشية فى إثارتها عن النموذج السابق. وبالرغم من أن أغلبنا معرض للإحساس بالغيرة، بمفهوم أننا نحب شخصاً ما ونهتم به إلا أنه يفضل شخصاً آخر مما يمثل عدواناً علي ملكيتنا العاطفية. إلا أن الغيرة بالنسبة «للرجل الصائب» الذى يمثل إحساسه بذاته «دملاً» دائم الالتهاب، تختلف اختلافاً بيناً، إذ يتحول مع إحساسه بالغيرة إلى حالة من الجنون تعصف بكل ما يقابلها، كما يصبح قادراً على القتل.

يشير «ڤان ڤوجت» إلى أن «الرجل الصائب» رجل «مثالى»، بمعنى أنه يحيا فى عالم من صنعه هو، ويبذل قصارى جهده لتجاهل الجوانب الواقعية التى تتعارض مع ذلك العالم الذى صنعه. مثله فى ذلك مثل محاولة الشيوعية إعادة كتابة التاريخ من منظورها، بمعنى أن الواقع يمكن «ضبطه» فيما بعد ليتلائم ويتطابق مع الصورة العظيمة التى يخلقها لنفسه. فى عالمه العقلى الذى هو من صنعه، يرى أن النساء ممتعات، جميلات ومبهجات، مخلوقات مخلصة تنتظر بصبر ظهور «الرجل الصائب» - بالمعنيين الذين يمكن أن تحملهما كلمة «صائب»

ـ حتى يسلمن له أنفسهن وعذريتهن. وهو يحيا في عالم من الخيال الجميل للمراهقين. ولا شك أن الممرضة التي أشرنا إليها كانت ذات مظهر رقيق يوحي بالخضوع، مما جعلها تبدو الأنثى النموذجية لإلهاب إحساسه بذاته وأنها تبدو الزوجة المستديمة التي تصلح أماً لأبنائه، تلك الزوجة التي ستنتظره بالمنزل في مريلة مطبخ نظيفة وهو عائد إليها بعد عطلة نهاية أسبوع قضاها مع عشيقته.

ربما كان الاكتشاف الأكثر إثارة لـ «ڤان ڤوجت» ببصيرته الثاقبة، هو اكتشافه أن «الرجل الصائب» من الممكن تدميره إذا «استدارات الدودة» عكس اتجاهها، أي إذا انعكس الحال وقامت الزوجة أو من في حكمها بهجره أولاً. في مثل تلك الحالات قد يلجأ «الرجل الصائب» الذي كان عنيفاً ومهاجماً على طول الخط إلى التوسل والتضرع واعداً أن يسلك سلوكاً أفضل بعد ذلك. وإن فشلت تلك الوسائل فإنه يلجأ إلى الخمر أو تعاطي المخدرات، وقد يصل به رد الفعل إلى الانتحار، لأنها بهذا الهجر تكون قد نسفت أسس قلعة الرمال التي بناها. حين يجد «الرجل الصائب» المرأة التي اختارها خاضعة له ومعجبة به، فإن هذا يعمق ثقته بنفسه، ويملأه الإحساس أنه قيمة في ذاته (يمكن أن نرى تلك الآلية بوضوح في حالة إيان برادى مع مايرا هندلي في الفصل الأول) لا يهمه معاملته لها بطريقة سيئة غاية في السوء، ويستمر في الاعتقاد أنها ستداوم على اعتباره أعظم رجل ذا شأن التقت به في حياتها. واستمرارها يمثل ضماناً لإحساسه «بتفرده» وتفوقه؛ في هذه الحالة لا يهمه ما يعتقده باقي العالم. قد يهجرها ويهجر أبناءه؛ ليثبت كم هو قوى وكيف أنه لا يبالي بالعواطف التي يهتم بها البشر العاديين. ولكن إن بدأته هي بالهجر فإنها بذلك تعيده إلى المربع رقم واحد: طفل بلا قوة ولا حول في عالم معاد.

يقول «ڤان ڤوجت»: أغلب «الرجال الصائبين» أو العنيفين «فاشلين» ولذلك فهجرهم بمثابة تسليمهم إلى أسوأ شكوكهم النفسية عن أنفسهم. هذا الإدراك، جعل «ڤان ڤوجت» يسجل عن ذلك: «أدركت أن أغلب الرجال الصائبين يستحقون بعض التعاطف، وأنهم إذا تعرضوا للهجر، خسروا معركتهم، ويصبحون على الطريق إلى كارثة محققة تطول عالمهم الشخصي

المكون كله من مبررات ذاتية .

فما الذى يحدث إذا حقق الرجل الصائب نجاحاً باهراً ؟ واعترف العالم «بتفرده» ؟ للغرابة الشديدة قد يحدث فرقاً ضئيلاً أو لا يحدث على الإطلاق . إن مشكلته تكمن أساساً فى نقص السيطرة الانفعالية مع إحساس عميق بالدونية ، لذلك لا يصل النجاح إلى الأجزاء العقلية التى هى جذر المشكلة .

تظهر السيرة الشخصية الحديثة (١٩٨١) للممثل الهزلى العالمى «بيتر سيللرز» التى تحمل اسم «بيتر سيللرز . . أنا أحبك» التى كتبها ابنه «مايكل» أنه كان نموذجاً أصيلاً للرجل الصائب ، فقد دللته أمه تدليلاً مفسداً فى طفولته ، حتى حين بلغ مبلغ الرجال كان يستشيط غضباً إذا لم يسر أمر ما كما أراد له أن يسير . كان على علاقات غرامية وجنسية بممثلات لا يمكن حصرها ، إلا أنه كان يغار غيرة قاتلة على زوجته ، ويتصل بها هاتفياً مرات عديدة كل يوم ليعرف ما تفعله ، وكان يستجوبها بدقة إذا غادرت المنزل إلى أى مكان . كانت ممثلة قبل أن يتزوجها ؛ وأجبرها على هجر التمثيل لتكرس نفسها «كزوجة صالحة وأم رؤم» . وحين أدت نوبات غضبه التدميرية وعلاقاته المتعددة بالممثلات إلى انهيار الزواج ، أقنع نفسه أنه كان يريد أن يتخلص منها ، وحرضها على الخروج مع رجل آخر . ولكن حين أخبرته أنها تريد الطلاق ، انفجر فى البكاء وهددها بإلقاء نفسه من شرفة المنزل (لم تكن المرة الأولى التى يهدد فيها بالانتحار . وكانت وسيلته المعتادة التى يركن إليها فى الأزمات) . كان الإحساس القاتل والمؤلم بالدونية ينتابه حين يكون برفقة من أنهوا تعليمهم الجامعى . وذات مرة كان مدعواً إلى الغداء على مائدة الأميرة «مارجريت» شقيقة ملكة بريطانيا ، ثم دار الحديث على الغداء حول الأساطير اليونانية ، فتعلل «سيللر» معتذراً أنه ذاهب إلى دورة المياه ، ثم اتصل خفية بسكرتيرته وجعلها تتصفح المراجع بسرعة وتخبره بملخص عن الموضوع ، ثم عاد إلى مائدة الطعام ، وبطريقة بدت غير مفتعلة راح يستعرض فى حديثه أسماء المراجع التى تناولت الأساطير اليونانية .

ويضيف ابنه : «رأيته يمارس تلك الحيلة مرات كثيرة» .

وهناك قصة أخرى عن «سيللرز» تظهر الحد الفاصل بين سلوك الرجل الطبيعي وسلوك «الرجل الصائب». كانت مربية أبناء «سيللرز» سيدة ذات إرادة وقوة شخصية وآراء محددة؛ وذات يوم تشاجر معها «سيللرز» مشاجرة حادة واندفع في غضب جارف تاركاً المنزل، توجه إلى أحد النوادي الراقية وحجز غرفة لمبيته في تلك الليلة. ومن هناك اتصل هاتفياً بزوجته وقال لها: «ما الذى أفعله هنا بحق الجحيم؟ لو كان على أحد أن يترك المنزل فمن المفروض أن تكون هذه المربية اللعينة» واندفع عائداً إلى المنزل، وأمسك بسكين حفر وقذفه راشقاً إياه في باب غرفة نوم المربية التى كانت ترتعد بالداخل وهو يصيح «سأقتلك أيتها البقرة» وقفزت المربية من النافذة واختفت من حياتهم.

قد يكون «سيللرز» في خروجه غاضباً من المنزل سلوكاً عادياً؛ وقد يكون تركه للمربية في ميدان المعركة (المنزل) اعترافاً منه أنها على حق. في النادى غلى مرجل انفعالاته وهو يفكر بالأمر؛ في الوقت الذى عاد فيه إلى المنزل كان قد أقنع نفسه أنه هو المصيب وأنها هى المخطئة، وانفجر في نوبة من جنون العظمة، أما تهديده لها بالقتل فيجب تركه سؤالاً مفتوحاً.

«الرجل الصائب» يكره أن يفقد اعتباره واحترامه؛ ولو ساوره الشك أن تهديداته لا تؤخذ على محمل الجد، فإنه يتهور وينفذها، فقط من أجل الحفاظ على مظهره الجاد، وقوته وقدرته كما يظنها.

الملاحظة الرئيسية التى توصل إليها «ڤان ڤوجت» هى أن الصفة المحورية للرجل الصائب هى «قراره أن يفقد قدرته على السيطرة على ذاته عند حد معين». على الجميع أن يتدرب على السيطرة على الذات في التعامل مع العالم الواقعى ومع الآخرين. ولكن مع أشخاص معينين مثل الأم أو الزوجة أو الابن. قد نقرر أن هذا المجهود من السيطرة غير ضرورى ونترك أنفسنا لانفجارات انفعالية بلا حدود ـ ولكن ـ وهنا نأتى إلى صميم الموضوع ـ هذا القرار يخلق على سبيل المجاز نقطة ضعف مستديمة في جدار المرجل، وهى النقطة التى تكون موضع مستديم لانفجار المرجل. وعن ذلك نجد في قصة «أخبار العائلة» لـ «سيرچى اكساكوف» نموذج آخر: يتحدث «اكساكوف» عن جده، وهو روسى

عجوز من ملاك الأراضي، يقول: «هذا الرجل النبيل، الشهم السمح، الذى تمثل شخصيته صورة من أنبل صور الإنسانية، كان يتعرض لنوبات غضب مسعور يرتكب أثناءها أقصى صور الوحشية البربرية. أتذكر وأنا صغير أننى رأيته في واحدة من نوبات غضبه الجنونى ولازلت أتذكرها وكأنى أراها الآن. غضب ذات مرة على إحدى بناته التى كذبت عليه فى أمر ما وأصرت على كذبها بعد أن تبين له أنها كاذبة. وقف في مكانه يسنده خادمان (لم تكن ساقاه تحملانه لإصابته بشلل نصفى) لم أجد فيه جدى الذى أعرفه، كانت كل أعضائه ترتجف، وكانت ملامحه كلها متقلصة فى بشاعة، وعيناه تشع غضبا مسعوراً مخيفاً، وصاح بصوت مختنق من الغضب: «احضروها إلىّ».. ألقت جدتى نفسها على قدميه، تتضرع إليه أن يرحم الابنة ويغفر لها ذلك الخطأ، ولكنه فى لحظة أطاح بشالها الذى يغطى رأسها، وأمسك «ستيفان ميخائيلوفيتش (جدى) بشعرها بنصفه السليم وبدنه السمين فى اللحظة التى فرت فيها الابنة المتهمة وأخوتها البنات وشقيقها وزوجته وطفله (الطفل هو اكساكوف الذى يروى القصة) وتواروا بين الأشجار التى خلف المنزل؛ ظلوا هناك طول الليل، ولم تعد متسللة إلى المنزل إلا زوجة الابن بطفلها خوفا من إصابته بالبرد، ونامت مع طفلها بغرفة الخدم. وأخذ جدى يهذى ويصيح غيظا من كل أعماقه داخل المنزل الخالى.. وأخيراً أصابه إجهاد شديد من جر جدتى المسكينة من شعرها، وسقط من الإعياء على سريره، فغلبه النعاس، ودام نومه حتى الصباح. حين استيقظ كان هادئاً وفى حالة معنوية عالية ومرحة، ونادى اريشكا (اسم التدليل لجدتى) بتحبب. هرعت إليه جدتى فى الحال من غرفة مجاورة كما لو كان لم يحدث شيء فى المساء، وصاح المجنون السابق فى مرح: أين الشاى.. أين الأطفال؟ أين إليكسى وزوجته؟ احضروا الطفل «سيرچى». كان جدى قد أفاق من سعار غضبه المجنون.

يرى «اكساكوف» جده كرجل نبيل عظيم، متمالك لنفسه كل الوقت ـ أى قادر على ضبط النفس. ولكن فى هذه المنطقة من حياته، أى سيطرته على أسرته، اتخذ قراراً أن «يفلت زمام سيطرته على نفسه» وانفجر بإصرار ابنته على الكذب، وأحس أن هذا يقلل من شأنه، وأنها تعامله بلا احترام لشخصه

مفترضة أنه يمكن خداعه واستغفاله، لذلك انفجر وكانت الضحية زوجته التى راح يجرها من شعرها فى أرجاء المنزل. بعد ذلك، لم يشعر بأى خجل نتيجة سلوكه ذاك؛ وأظهر مرحه الصباحى أنه رأيه عن نفسه لم يتغير. وهو على يقين أنه محق وعنده مبررات حقيقية لذلك الانفجار مثل رب غاضب على خلقه. ومثل الجنود اليابانيين فى مدينة «نانكنج» الصينية، إنما يقوم فقط بالعقاب.

المثير هنا أن الانفعالات العنيفة «للرجل الصائب» تقوى إحساسه بأنه على حق، وإحساسه أنه على حق يزيد من سعار غضبه وحنقه، ويجد أنه محبوس فى نوع من الحلقة المفرغة، لا يستطيع الفكاك منها إلا بعد أن يستنفد غضبه. يسجل ابن «بيتر سيللرز» عن أبيه أنه كان يحطم كل ما يوجد فى متناول يده، حتى التحف التى أنفق أعواماً وأموالاً فى جمعها.

يشعر «الرجل الصائب» أن غضبه المسعور عاصفة لابد أن يسمح لها بالانفجار إلى الخارج، لا يهمه ولا يعنيه الأضرار التى تنجم عن ذلك. مما يعنى أنه عبد لحافز ودافع لا يستطيع السيطرة عليه، وتصبح ممتلكاته، بل حتى أرواح من يحبهم تحت رحمة انفعالاته. كل ذلك يشكل جزءاً من «الرعب الداخلى الذى لا يصدق» كما تحدث عنه «ڤان ڤوجت».

هذا الميل للسماح لانفعالاتنا أن تقوى إحساسنا بأننا على صواب وأن لدينا مبررات مشروعة، جزء أساسى من التركيبة النفسية للعنف، وبالتالى للجريمة. ولا يمكن أن نفهم آليات القسوة دون أن نفهم تلك الآلية الأولية على وجه الخصوص. قد نجده أمراً مستعصياً على الفهم، حين نواجه على سبيل المثال، أما قامت بضرب طفلها حتى الموت، لأنه مستمر فى البكاء لساعات طويلة؛ إلا أن ذلك لا يحدث لحسن الحظ آلاف المرات كل عام. نفشل جميعاً فى إدراك أنها وصلت إلى «نقطة انفجارها»، فهى تشعر أن الطفل وهو مستمر فى البكاء بلا توقف بعد أن تستنفد كل الحيل والوسائل لإسكاته ليس إلا شريراً وحاقدا يحاول أن يجرها إلى الجنون. ويصور لها غضبها المسعور أن الطفل قد تحول فجأة من كائن وديع لا حول له ولا قوة إلى شيطان يصرخ بلا توقف مما يستوجب ضربه بقسوة. يبدو الأمر كأن ساحرة شريرة مست الصغير بعصاها

السحرية وحولته إلى شيطان شرير. وفى الحقيقة، فإن الأم هى التى تحولت إلى شيطانة شريرة، إلا أن غضبها المجنون كان له فعل السحر الذى قام «بتحويل» الطفل إلى شيطان.

استعمل «چان بول سارتر» كلمة «السحر» لأول مرة بهذا المعنى الذى يقصد به خداع الذات فى كتاب مبكر له يحمل عنوان «مسودة لنظرية الانفعالات» وفى عمل لاحق فضل «سارتر» استعمال تعبير «خداع الذات»، إلا أن هناك أشكالاً أخرى يظهر فيها مفهوم «التفكير المسحور» الذى هو نوع من خداع الذات بشكل أدق.

يحكى «مالكلوم موجردچ» موضوعاً قرأه ويصور هذا المفهو بدقة. قرأ مقالاً فى الصحف عن تحديد النسل فى الدول الآسيوية، جاء به أن منظمة الصحة العالمية صممت خيطاً به ٢٨ خرزة وقامت بتوزيعها على الزوجات الأميات. أول سبع خرزات باللون الكهرمانى، والسبع التاليات باللون الأحمر، ثم تليها سبع باللون الكهرمانى، والسبع الأخيرة باللون الأخضر، لمعرفة أيام احتمال حدوث حمل لتجنب الجماع الجنسى فيها. اعتقدت النساء أن هذا العقد يمثل امتيازاً شخصياً، ورحن يتزين به بدلاً من استعماله فيما خصص له.

يمثل ذلك نوعاً من «التفكير المسحور» - أى يسمح المرء لرغبته أو انفعاله أن يقنعاه بشىء فى حين تدل الأسباب الفعلية على عدم صحته. فى عام ١٩٦٠، اقتحم عامل يدعى «باتريك بايرن» نزلاً مخصصاً للنساء فقط فى مدينة «بيرمنجهام» وهاجم عديد من النزيلات وأصاب إحداهن بعاهة مستديمة، وفسر ذلك السلوك بأنه «أراد أن يقتص من النساء لأنهن يسببن له «توتراً جنسياً»، وهو نوع آخر من التفكير المسحور. كذلك كان إصرار «تشارلز مانسون» قاتل الممثلة الأمريكية «شارون تيت» وضيوفها، أنه ليس مذنباً، بل إن «المجتمع» هو المذنب بقصفه «ڤيتنام». ويعرض «سارتر» كمثال إغماء الفتيات حين يهاجمهن ذكر ويرى أنها «محاولة سحرية» لدفعه للتراجع، وهو مثل جيد لأنه يذكرنا أن «السحر» من الممكن أن يكون رد فعل «فيزيقى» بحت. التفكير المسحور يزودنا بمفتاح لفهم شخصية «الرجل الصائب».

ما الذى يخلق أو يسبب تلك الحالة «الصوابية» الرجولية؟ يفترض «ڤان ڤوجت» أن السبب يكمن فى أن العالم كان دائماً محكوماً بالرجال. فى إيطاليا عام ١٩٦١ حكم على زوجتان بالسجن لثبوت تهمة ارتكاب الزنا. كان دفاعهما يرتكز على أن لزوجيهما عشيقات، وأن ذلك حال أغلب الرجال الإيطاليين.. رفضت المحكمة تلك الدفوع. فى الصين عام ١٩٥٠، صدرت قوانين تتيح للمرأة بعض الحريات؛ وفي عام ١٩٥٤، كانت هناك عشرة آلاف حالة قتل زوجات فى حى واحد بإحدى المدن الصينية قام بها أزواج رفضوا محاولات زوجاتهم الاستفادة بمميزات تلك القوانين.

قد يوحى كل ما ذكرناه، أنه لا يوجد ما يمكن أن نطلق عليه «المرأة الصائبة»،و آراء «ڤان ڤوجت» تؤيد ذلك، فى حين أن واقع الأمر ليس كذلك.

قد تكون هناك نسبة من «المرأة الصائبة» أقل كثيراً من نسبة «الرجل الصائب»، إلا أنهن موجودات. كانت أم الكاتب الروسى «تورجنيف» تجلد عبيدها حتى الموت ـ وهو مثل واضح عن «التحول السحرى» للغضب المسعور. كذلك كانت «اليزابيث دونكان» وهى مطلقة أمريكية من كاليفورنيا، فقد أصابتها حالة من الغضب المسعور حين تزوج ابنها من ممرضة تدعى «أولجا كيوبزيك» بالرغم من رفضها المطلق لذلك الزواج، فاستأجرت اثنين من القتلة لقتل عروس ابنها، ولما قاما بالمهمة طالباها بدفع مؤخر الأتعاب المتفق عليه. فلما أغضبها ذلك توجهت إلى الشرطة وأبلغت أنهما يتبزانها ـ وهو ما ترتب عليه كشف الأمر وإعدام الثلاثة بغرفة الغاز بمدينة «سان كوينتن»، وهى حالة أخرى من التفكير المسحور الذى يتناقض مع التفكير المنطقى ويتغافل الواقع.

ويظهر ذلك أن الصفة الرئيسية فى «المرأة الصائبة» هى الصفة ذاتها عند «الرجل الصائب»، أى قناعتها أن ما تفكر فيه هو الطبيعي وأن كل من يعترض يستحق أعنف وأسوأ معاملة، وهى أعراض الربوبية.

يعتقد «ڤان ڤوجت» أيضاً أن نظرية «أدلر» عن «دونية العضو» تلقى مزيدا من الضوء على «الصوابية الرجولية». يرى «أدلر» أنه إذا تلف عضو من أعضاء الجسم ـ مثل القلب أو الكبد أو الكليتين ـ فإن العضو المصاب يرسل رسائل تنم عن دونيته الوظيفية إذا كانت الإصابة مبكرة، ويسبب ذلك عقدة دونية.

ويؤدى ذلك كما يذكر «ڤان ڤوجت» إلى محاولة من التعويض المبالغ فيه من جانب «الرجل الصائب» الذى يشعر بالدونية النفسية. قد يكون «ڤان ڤوجت» على صواب فى هذا الصدد، إلا أن هذا التفسير يوحى بأن كون المرء «رجل صائب» فإن ذلك يماثل أن يكون مصاباً بعمى الألوان أو ربو، أى كأنها إصابة أو خلل عضوى يمكن شرحه وتفسيره بمصطلحات طبية. الجانب الوحيد الذى أصبح واضحاً من كل الحالات المدروسة للرجل الصائب أن النوبات التى تصيبهم ليست «حتمية» أو لا مفر منها أو لا يمكن تجنبها؛ لأن بعض أسوأ حالاتهم كان يخطط لها بعناية وحسابات دقيقة ثم تنفذ إرادياً وعن تعمد. يفعل الرجل الصائب مايفعله لأنه يظن أن ذلك يساعده فى تحقيق ما يصبو إليه، ذلك ما يهمه.

وهذا بدوره يجعل الأمر واضحاً من أن مشكلة الرجل الصائب هى مشكلة البشر من ذوى السيادة العالية. والميل للسيادة والهيمنة من المواضيع المهمة التى يدرسها علماء الأحياء وعلماء الحيوان باهتمام مشترك لأن النسبة المئوية للحيوانات ذات السيادة تبدو مساوية للنسبة المئوية للبشر ذوى السيادة وهى ظاهرة مدهشة.

سأل «برنارد شو» ذات مرة المكتشف «هـ. م. ستانلى» الذى قاد بعثات كشفية لمجاهل إفريقيا عن عدد الرجال من بين رجاله الذى يمكن لأى منهم أن يتولى قيادة البعثة إذا سقط «ستانلى» مريضاً؛ فأجاب «ستانلى» بلا تردد: «واحد من كل عشرين»، وسأله «شو»: «بالضبط أم على وجه التقريب؟»، أجاب «ستانلى»: «بالضبط». وأثبتت الدراسات البيولوجية بعد ذلك أن هذه النسبة حقيقة ثاتبة. لأسباب مجهولة، فإن نسبة الخمسة بالمائة بين أى مجموعة حيوانية هى نسبة ذوى السيادة العالية الذين يتمتعون بصفات قيادية. أثناء الحرب الكورية، كان الصينيون هم من اكتشف أنهم إذا عزلوا الخمسة بالمائة ذوى السيادة العالية من بين أسرى الحرب الأمريكيين وسجنوهم فى أماكن مستقلة، فإن الخمس وتسعين بالمائة لا يقومون بأى محاولات للهرب من معسكرات الاعتقال.

تلك الحقيقة لابد أن توضع نصب الأعين حين نتعرض لنظرية «بيكر» التى يفترض فيها أن كل أفراد الجنس البشرى لديهم دافع للبطولة وإحراز السبق،

فمن الصعب أن يتفق ذلك مع مجتمعنا الثابت إلى حد بعيد، ذلك المجتمع الذى يبدو فيه أن الأغلبية تتقبل عدم التفرد ولا تطمح إلى الصدارة. قد يعود ذلك كما يفترض «بيكر» إلى ضعف ذلك الدافع تدريجياً كلما تقدم السن؛ إلا أن أى منا ممن يتاح لهم قضاء ولو عشر دقائق فى أى دار حضانة لاصطحاب أبنائه منها، لابد وأن يكون قد لاحظ أن معظم أطفال تلك الحضانة ينقصهم «التفرد» وتصدق نسبة الخمسة بالمائة من ذوى السيادة العالية على الأطفال كما تنطبق على الكبار.

والآن من زاوية المجتمع، فإن خمسة بالمائة تشكل أعداداً كبيرة، فعلى سبيل المثال كان الخمسة بالمائة عام ١٩٨٠ يبلغون ثلاثة ملايين فرد. والمجتمع ليس لديه متسع لثلاثة ملايين «قائد». ويعنى هذا حتماً، أن عدداً كبيرا منهم لن يحرز أبداً أى نوع من أنواع «التفرد»، وأنهم سيقضون أعمارهم فى مراكز لا تتميز عن المراكز التى يشغلها أولئك الذين لا يتصفون بالسيادة.

فى المجتمعات ذات الترتيب الطبقى الواضح والثابت ـ مثل ملاك الأرض الأرستقراطيين والمزارعين ـ أغنياء وفقراء لا تشكل هذه الظاهرة، أية أهمية. فذوى السيادة من بين عمال المزارع ترضيهم مهنة حداد قرية أو قائد جوقة مرتلين فى الكنيسة ولن يشعروا بالامتعاض والاستياء إذا كانت شخصية صاحب الضيعة أو القرية أقل سيادة من شخصيتهم، وهو لا يتوقع أن يصبح «مالك عزبة» أو سيدا للإقليم. ولكن فى مجتمع مثل مجتمعنا (إنجلترا) الذى أصبح فيه الشباب من العمال يطلقون النار حتى على الأشباح، مجتمع نرى فيه زعماءنا وقادتنا على شاشة التليفزيون كل يوم أى مجتمع الحراك الاجتماعى فيه أقل ثباتاً، لا ترى النسبة العظمى من الخمسة بالمائة سببا وجيها يمنعها أن تكون غنية ومشهورة. قد يشعر الفرد من تلك النسبة بالغيظ لعدم «تفرده»، وتجتاحه رغبة قوية فى اتباع وسائل غير تقليدية فى شق طريقه للمقدمة. ويفسر ذلك إلى حد كبير تصاعد نسبة الجريمة والعنف فى مجتمعنا.

يتضح أيضاً أن أعداداً كبيرة من ذوى السيادة يتحولون إلى نموذج «الرجل الصائب». ففى كل مدرسة تحتوى فى المتوسط على خمسمائة تلميذ. يوجد بينهم خمسة وعشرين تلميذاً يتميزون بسيادة عالية. بعضهم ذو مواهب

معينة كأن يكون رياضياً أو مجداً في تحصيل العلوم أو مناقشاً ومحاوراً بارعا (هناك بالطبع كثير من الطلاب لا يتمتعون بسيادة عالية إلا أنهم ذوى مواهب ويحصلون على جوائز)، من المحتم، أن نسبة مئوية من بين ذوى السيادة لا يتمتعون بمواهب خاصة، بل إن بعضهم قد يكون غبياً تماماً، فكيف لمثل هذا الشخص أن يشبع دافعه إلى التفرد أو التميز؟ حتماً سيلجأ إلى أى وسيلة يراها ملائمة لممارسة تلك السيادة، إن كان وسيماً قد يشبع دافعه للتميز بإعجاب تلميذات المدرسة به، أو أن يكون لديه موهبة أخرى بعيداً عن التحصيل الدراسي مثل أذن موسيقية، دقة في الملاحظة أو خيال حي وغني، وقد يتحول إلى «لا منتمى» وحيد يحيا داخل عالمه الخاص (مثل أولئك الأشخاص قد يتطورون إلى مثيل للموسيقى «شوبير» أو العالم «داروين»، أو الكاتب «بلزاك») ولكنه يحاول في الأغلب سلوك الطرق المختصرة ليحقق التميز فيتحول إلى متنمر أو مخادع أو جانح.

المشكلة الرئيسية لأمثال أولئك «اللامنتمين» أنهم يملأهم الإحساس أن العالم قد ظلمهم ولم ينصفهم، ورد الفعل البشرى الطبيعي تجاه الإحساس بالظلم يتبلور إلى شعور عميق بالإشفاق على الذات والتعاطف معها. ويجعلهم ذلك الإحساس على درجة كبيرة من الحساسية وعدم الثبات. وبمتابعة تلك النماذج البشرية نجد أنهم يتحولون إلى أسوأ أعداء لأنفسهم، فمزاجهم يتراوح بين العدوانية والرقة المتناهية، وفي كلتا الحالتين يستقطبون تعاطف الآخرين الذين يميلون إلى مساعدتهم والتعاطف معهم، ولكن عاجلا أم آجلاً، تنفجر موجات غضبهم واستيائهم واشفاقهم على ذواتهم، وينتج عن ذلك فقد ثقة الآخرين أو رفضهم ولفظهم كلية لتلك الشخصية.

إن جوهر مشكلتهم ينحصر في عدم انضباطهم، فالبشر من ذوى السيادة يفتقدون فضيلة الصبر، لأن لديهم طاقة حيوية أكثر ويدفعهم عدم الصبر إلى التطلع إلى الطرق المختصرة. فمثلاً حين حجز «سيللرز» غرفة في النادى بعد أن ترك المنزل غاضباً، كان يمكنه الاتصال بكل بساطة بزوجته في المنزل ويطلب منها أن تدفع أجر شهرين للمربية وتصرفها من العمل وتنهى خدمتها ثم يستمتع بنوم ليلة هادئة، ولكنه بدلاً من ذلك سلك سلوكاً خطيراً سبب مشاكل لكل من في البيت، كانت حياته منذ الخامسة تتكون من طرق

مختصرة كثيرة؛ وفي الوقت الذى أصبح فيه بالغاً ظل مفتقداً للوسائل والأسباب التى تجعله عضواً طبيعياً فى المجتمع.

إن التحضر يتطلب فى رأى «فرويد» انضباط ذاتي كامل من جانب أعضاء المجتمع المتحضر.. ذلك الانضباط لا يجوز معه أن يكون لدى أحد أفراده مثل «سيللرز» تصريحاً بتهديد الناس بسكاكين الحفر.

يضعنا كل ذلك فى موضع أفضل للإجابة على سؤال «فروم»: لماذا يعد البشر الكائن الوحيد الذى يمكنه أن يقتل ويعذب أفراداً آخرين من بنى جنسه دون سبب؟ لا تكمن الإجابة فى تركيبته الجينية بالطبع، ولا فى رغبة افتراضية فى الموت، بقدر ما تكمن فى الاحتياج البشرى لتأكيد الذات، والدافع القوى للتفرد والتميز. ويتيح لنا سلوك الرجل الصائب رؤية كيفية حدوث ذلك. إن إحساسه بأنه يمثل قيمة خاصة تفوق الآخرين يؤدى به إلى سلوك مسالك عنيفة لتأكيد الذات. إلا أن هذا العنف بطبيعته المحضة المجردة، لا يمكن أن يحقق أى أهداف بعيدة. ذات مرة أطاح «بيتهوڤن» بطبق الحساء فى وجه خادم مطعم ضايقه بشكل ما ـ وهو سلوك نمطى للرجل الصائب. إلا أن بيتهوڤن لم يعتمد على العنف وحده لتحقيق ذاته وتفرده؛ لأنه كان على يقين أيضاً أن أهدافه البعيدة من الممكن تحقيقها بالصبر وضبط الذات: أى توجيه وتقنين طاقته (وهو اسم آخر لافتقاد الصبر) وتوجيه تلك الطاقة فى دفقات مثل فوهة خرطوم رجل الإطفاء، إلى الموسيقى. إن الانضباط طويل المدى يعمق المجرى، حتى تمكن فى آخر أعماله من تركيز كل طاقته، دون أن يفقد أى قدر منها.

حين ينفجر الرجل الصائب فى موجة عنف، فإنه يستنفد كل طاقته. وأسوأ من ذلك، فإن موجات الغضب والعنف، تدمر ضفاف القناة دون أن تعمقها. وحين يترك نفسه إلى نوبات التعبير الحر عن انفعالاته السلبية، فإنه ينغمس فى عملية بطيئة، ولكن مؤكدة من تآكل الذات ـ وهو الجانب المعنوى المقابل للانفلات الانفعالى البدنى العنيف. وبدون «تصريف» لذلك الجانب المعنوى، فإن تراكمه الداخلى يحوله إلى مستنقعات أو برك صرف. وهذا هو السبب أن أغلب الرجال العنيفين فى التاريخ، من الإسكندر الأكبر حتى ستالين، انتهوا كمرضى نفسيين. فبدون القدرة على التحكم فى انفعالاتهم السلبية، يصبحون

غيـر قـادرين على تحقـيق حـالة من الإحـسـاس والـرؤية المتـوازنـة والمسـتـمـرة، أو السـعادة المستديمة.

إن كـان علينا أن نتـوصل إلى فهم حقـيقى لطبـيعة الإجـرام، فلابد أن نغوص إلى أعماق المشكلة: مشكلة التركيبة النفسية للتدمير الذاتى.

تدمير الذات

في مارس ١٩٨١ ، كتب «نورمان ميلر» مقدمة لكتاب يضم مجموعة من الرسائل قام بكتابتها مجرم مدان بالقتل يدعى «چاك هنرى آبوت» وأطلق على تلك المجموعة من الرسائل اسم «فى أمعاء الوحش». كان «آبوت» يكتب إلى «ميلر» من سجنه، وأقنعت تلك الرسائل «ميلر» أن لدى كاتبها جوانب مهمة تستحق الذكر فيما يختص بممارسة العنف. كان «آبوت» فى السابعة والثلاثين وكان قد قضى من ذلك العمر مايصل إلى ربع قرن خلف أسوار السجون بسبب قضايا مختلفة من شيكات مزورة، إلى سرقات مصارف، وقتل. فى سجنه الانفرادى قرأ التاريخ والأدب ثم تحول إلى الأفكار الشيوعية.

أقنع «ميلر» السلطات المختصة أن «آبوت» من الممكن أن يصبح واحدا من أهم الكُتاب الأمريكيين، وأن لديه القدرة أن يتعيش من قلمه. وتوصل إلى إطلاق سراحه إطلاقاً مشروطاً باستقامته وعدم ارتكاب أية مخالفات جديدة. ثم نُشر الكتاب الذى ضم رسائله التى كتبها من السجن وحقق الكتاب مبيعات هائلة وقفز إلى صدارة أكثر الكتب رواجاً.

بعد ذلك ببضعة أسابيع، وفى أحد مطاعم مدينة نيويورك، أشتبك «آبوت» فى مشادة كلامية مع نادل بالمطعم - كان ممثلاً مغموراً وكان يعمل نادلا فى المطعم ويدعى «ريتشارد آدان» - كان سبب المشاجرة أن «آدان» منعه من استعمال دورة مياه العاملين بالمطعم. وبهدوء شديد طلب منه «آبوت» أن يخرج معه إلى خارج المطعم لتصفية تلك المشاجرة؛ وحين أصبحا خارج المطعم أخرج «آبوت» مطواة من جيبه وطعنه بها طعنة واحدة فى القلب أردته قتيلاً.

وأعيد «آبوت» إلى السجن حيث يفترض أن يقضى باقى عمره، وتبدو واقعة القتل هنا غير مفهومة ولا مبررة. فلو كان «آبوت» حين تورط فى شجار مع «آدان» قد أخرج مطواته فى الحال أثناء حدة الشجار لكانت القضية اختلفت كلياً. إلا أنه طلب من السيدتين اللتين كانتا بصحبته أن ينتظراه قليلا. وخرج مع آدان فى هدوء، مما كان يعنى أنه قد اتخذ قراراً أن يقتل «آدان»، ولابد أنه كان يعلم أنه بفعله المقدم عليه إنما يطيح بكل ما كان يمكن أن ينجزه ككاتب وما كان يمكن أن يحققه كمواطن يملك حريته، بالرغم من أنه كان قد كتب فى إحدى رسائل السجن التى نُشرت: «أتطلع إلى الفرار منذ عدة أعوام، محاولات هربى أصبحت زادى اليومى، عيناى وعقلى لا يكفان عن البحث عن وسيلة للفرار من كل سجن أنقل إليه».

كان كتاب «آبوت» من الكتب المحبطة؛ ومن السهل أن نفهم لماذا شعر الكاتب «ميلر» بهذا التعاطف الشديد تجاهه. فبعد طفولة قضاها «آبوت» فى ملاجئ الأطفال - ربما كان السبب هجر أبواه لبعضهما وله - أودع فى الثانية عشر من عمره فى إصلاحية تأهيل لفشله فى التوائم مع الملاجئ.

فى سن الثامنة عشرة أدين وسجن بتهمة إصدار شيك بدون رصيد. ثم

هرب وقام بسرقة مصرف، وحكم عليه بعقوبة جديدة، في السجن قتل سجينا آخر في معركة داخل السجن وحكم عليه بأربعة عشر عاماً أخرى.

من هنا نتفهم غضبه المسعور وضيقه بكل شيء. ويصف في رسائله كيف كان يقضي يوماً بأكمله يضرب حوائط زنزانته بقبضته ويصرخ في حنق. يقول في إحدى رسائله: «كنت اختنق من الغيظ، لم أكن استطيع الحديث بسهولة، حتى عندما أكون هادئاً كنت أتلعثم بطريقة سيئة. اعتدت على الإطاحة بصينية الطعام كما يطيح المرء بمجموعة أوراق إلى سلة المهملات مع فارق أني كنت أطيح بها وهي مليئة بالطعام في وجه الحارس».

حين أدانه القاضي بتهمة قتل أحد السجناء القى بدورق المياه في وجه القاضي، وكتب عن مأموري السجون: «أولئك الخنازير في سجن الولاية وفي السجون الاتحادية يعاملونني بعنف وقسوة، لا أتخيل في أي وقت أنه يمكن أن أشعر تجاههم إلا بأشد مشاعر الكره العميق. لا أستطيع أن أخبرك بما فعلوه معي. لو كنت أضعف من ذلك بمقدار شعرة لكانوا دمروني تماماً».

ولأن العنف رد فعل لضغوط لا تحتمل. إلا أنه لا يتفق مع ميله إلى إضفاء بعد رومانسي على المجرم. يذكر «آبوت» في واحدة من رسائله:

«هناك جانب آخر.. يمثل فستان العرس، الكمال والشرف. إنه التقدير والاحترام الطبيعي للعنف والقوة الكامنة داخلنا. ذلك ما يجعلنا مؤثرين. ورجال تصطدم أحكامهم وآراءهم بالآخرين، كما تصطدم بالعالم والوجود. إن القتلة الخطرين الذين يقتلون بمفردهم وبدم بارد، الذين يقتلون بتخطيط ومبادئ.. ويتهربون من الوقوع في يد السلطة، إنما يمثلون الرجولة الحقة بمعناها الأعلى والأسمى».

إلا أن هذا المفهوم يماثل مفهوم تلميذ المدرسة عن البطولة. ويجعلنا على يقين أن حديثه عن «الرجولة بمعناها الأعلى» ليس إلا حشواً رومانسياً. فقتل نادل وإلقاء جثته على أسفلت الطريق من الصعب أن يكون برهاناً على الفخار والكمال والشرف؛ إن قتل «ريتشارد آدان» يحمل من البطولة ما يحمله الإقدام على قتل طفل رضيع.

القتل يصبح مفهوماً فقط حين نتذكر تعليق «فان فوجت» عن الرجل العنيف: الرجل الذى اتخذ قراراً أن يكون خارج إطار سيطرته على نفسه فى حالات معينة. لقد اتخذ «آبوت» قراراً أن يكون خارج إطار سيطرته على نفسه فى حالة جرح الكرامة (ولاشك أن وجود سيدتين معه بالمطعم قد قوى من قراره).

باختصار، نجد أنفسنا مرة أخرى فى عالم «التفكير المسحور» - أى، التفكير الذى تترك فيه الانفعالات لتوجيه الإحساس بالواقع. إن «التفكير المسحور» ينتج أفعالاً غير متسقة ولا متناسبة ولا تحقق نتيجة مرغوبة، مثل النعامة التى تدفن رأسها فى الرمال لتجعل عدوها «يذهب بعيداً ويتركها» (فى الحقيقة ذلك تشهير غير صحيح بالنعام إلا أنه ذهب مثلاً).

هناك دائماً شىء عبثى، وعنصر طريف فى التفكيرالمسحور، وهو قريب من وصف «برنارد شو» الساخر لأبيه: «يعود أبى إلى البيت يحمل أوزة غير ملفوفة جيداً تحت إبطه وفخذ خنزير بنفس الحالة تحت إبطه الآخر.. ويدفع برأسه جدار الحديقة وهو يظن أنه يدفع الباب، فتتلف قبعته الطويلة وتصبح مثل الأكورديون».

وجه الطرافة فى الصورة السابقة للمشاهد فقط. أما للرجل الذى يدفع برأسه حائطاً صلباً من الطوب، أو لنحلة تحاول أن تخرج من خلال زجاج نافذة مغلق، فالأمر خطير بكآبة.

بشكل ما، فإن النحلة التى تحاول اختراق الزجاج والمرور للخارج منطقية تماماً فى تصرفها؛ فهى تحاول أن تخرج فى اتجاه الضوء؛ ولا ترى سببا منطقيا يجعلها لا تتمكن من ذلك. ونحن نعلم أن واحداً من مفاهيمها الرئيسية ومقدماتها المنطقية أن الضوء لاينفذ عبر الأجسام الصلبة - وهو مفهوم خاطئ بالطبع، لأنه لو كان عليها أن تحقق هدفها وتخرج فإن عليها أن تسلك اتجاها آخر. ولكن النحلة المحكومة بملايين السنين من التطور غير متاح لها أن تراجع غرائزها.

أما البشر فيستطيعون تغيير الاتجاه. وهذا هو السبب الذى يجعل من سلوك

الرجل العنيف سلوكاً صادماً ويصيبنا بالذهول بصفته سلوكاً عبثياً، ويجعله يبدو وكأنه مصر أن يشق طريقه عبر لوح الزجاج فيحطمه ويحطم نفسه. أما ما يمثله ذلك له، فإنه لا يعده تحطيماً لذاته بقدر ما هو عناده فى مفهومه المغلوط للشجاعة. مشكلة الرجل العنيف تكمن فى مفاهيمه ومنطقه - أى فى مفهومه عن ماهية الاستجابة الطبيعية فى موقف يتضمن تحدٍ لوجوده. يحتوى منطقة على افتراض خاطئ - مثل افتراض النحلة أن زجاج النافذة غير موجود لأنها لا تراه. ويتضح لنا منطقه من خلال قائمة أسماء من أهدى «آبوت» كتابه إليهم كما جاءت فى مقدمة الكتاب. أغلب الأسماء كانت لمجرمين عتاة فى الإجرام، سابقين له ومعاصرين. أول اسم فى تلك القائمة كان «كارل بنزرام»، الذى كانت حياته بأجمعها مثالاً خالصاً لتدمير الذات.

فـ«بنزرام»، مثل «آبوت»، أصبح كاتباً وهو فى أحشاء السجون، إلا أن سيرته الذاتية اعتبرت عام ١٩٢٨ مرعبة جداً حتى إنه يستحيل نشرها لجماهير القراء، وكان على تلك السيرة أن تنتظر أربعين عاماً أخرى حيث نشرت عام ١٩٦٨.

كان «بنزرام» ينتظر محاكمته فى قضية سطو على منزل؛ وتظهر اعترافاته أنه واحد من أسوأ من ارتكبوا جرائم قتل متعددة فى تاريخ الإجرام الأمريكى. العجيب أن أغلب القتلة من هذا الصنف ارتكبوا جرائمهم «بلا دافع». كانوا يقتلون بدافع من الضيق والغضب، برغبة من القصاص من المجتمع. أما جوهر فلسفة بنزرام فتتلخص فى «أن الحياة نكتة سخيفة، وأن أغلب البشر إما فى منتهى الغباء أو فى منتهى الفساد، وكلاهما لا يستحق الحياة».

«بنزرام» حالة مثالية لرجل يضرب رأسه فى حائط صلب. كان أباه فلاحا من «مينيسوتا»، هجر عائلته حين كان «كارل» مازال صغيراً. فى سن الحادية عشر سطا «كارل بنزرام» على منزل جار ميسور الحال، وتم إرساله إلى الإصلاحية، كان ولداً متمرداً وكثيراً ما تلقى ضرباً مبرحاً، ولأنه كان عالى السيادة، لم يؤد الضرب المبرح إلا إلى تعميق رغبته فى الانتقام، كان يتفق فى ذلك مع الرسام جوجان الذى قال: «مهما كانت الحياة فهى ليست إلا حلما

بالانتقام». ولأنه كان دائم الترحال من مكان لآخر في قطارات نقل البضائع وهو مازال صغيراً، قام أربعة من الرعاع باغتصابه في أحد تلك القطارات. أوحت إليه تلك التجربة بنوع جديد من العدوان.. «كلما قابلت متشرداً غير صدئ الطلعة كنت أجعله يحل سرواله ويرفع ذراعيه. لم أكن أدقق في ذلك قدت كثيراً منهم مسنين وصغاراً، طوال وقصار، بيض وسود. وحين ضبطه ذات مرة، عامل بأحد القطارات هو واثنان آخران من المشردين في إحدى عربات السكك الحديدية المخصصة لنقل البضائع، سحب «بنزرام» مسدسه وجعل عامل القطار يحل سرواله ويستدير ويرفع يديه وقام باغتصابه، ثم أجبر المشردان أن يفعلا نفس الشيء بعامل القطار وهما تحت تهديد المسدس. كانت تلك هي طريقته في إبلاغ «السلطة» بمشاعره نحوها.

عاش «بنزرام» على السطو والسلب ونهب الكنائس. قضى وقتاً طويلاً من عمره في أعماق السجون، إلا أنه أصبح أيضاً ماهراً في الفرار منها. بالرغم من ذلك كان لديه إحساس متميز بالولاء. فبعد أن هرب من سجن مدينة «سالم» في ولاية «أوريجون»، عاد إلى السجن لتهريب سارق خزائن يدعى «كال چوردان»؛ إلا أنه قبض عليه وعوقب بالحبس الانفرادي ثلاثين يوما.. «كان الشكر الذي أخذته من «كال» العجوز أنه تصور أنني واقع في غرامه وحاول أن يركبني، ولكني لم أعد للسجن من أجل تلك الأمور في حين كان هو كذلك. لذلك ركبته أنا.. كان في الخمسين من عمره في ذلك الوقت، ولكني كنت عفياً وكان هو أضعف من أن يقاومني».

اكتسب شهرة في مختلف السجون أنه من أكثر صانعي المشاكل في تاريخ السجون. كان يثير غضبه وجنونه المواقف التي يشعر فيها بالظلم. في ولاية أوريجون عرض عليه المسئولون تخفيف الأحكام الصادرة ضده إذا أخبرهم بمكان بضائع مسروقة، ولما أخبرهم بمكان تلك البضائع، لم يف المسئولون بوعودهم وفوجئ بالحكم عليه بسبعة أعوام جديدة. وبدأ يفر من زنزانته ويحطم كل ما يصادفه ويحرق الأثاث وحشيات النوم. فكانوا يعاقبونه بالضرب العنيف المبرح ثم نقلوه إلى أكثر السجون صرامة وتشددا بالولاية.

فكان أول ما بدأ به فى ذلك السجن هو إلقاء محتويات سطل البراز الذى فى زنزانته فى وجه الحارس. فراحوا يضربونه إلي أن فقد وعيه، وقيدوه بقيود حديدية إلي باب زنزانة مظلمة لمدة ثلاثين يوماً، كان يصرخ ويهذى بسيل من شتائم وسباب لا ينقطع. بعدها عاون سجيناً آخر على الهرب، وعند مطاردته أصابت آمر السجن رصاصه قتلته. فجاء آمر سجن جديد أشد قسوة وتشدداً من سابقه فقام «بنزرام» بحرق ورش العمل ومصنع لخيوط الكتان. فنقلوه للعمل بالمطبخ فقام بتحطيم محتوياته بعتلة حديدية، وحرض باقى السجناء على التمرد، أصبح جو السجن على درجة عالية من التوتر حتى إن الحراس لم يأمنوا الخروج إلى فناء السجن، وأخيراً ولتخفيف التوتر تم نقل آمر السجن.

كان «ميرفى» آمر السجن الجديد من أصحاب الاتجاهات المثالية ويؤمن أن المساجين يستجيبون بشكل أفضل للمعاملة التى تتسم بالرحمة والتفهم. وحين قُبض على بنزرام أثناء إحدى محاولاته للهروب، استدعاه «ميرفى» وقال له إنه طبقاً للتقارير الموجودة بملفه فإنه «أحقر وأجبن مخلوق مر على هذا السجن» ووافقه «بنزرام» على ذلك، إلا أن ما أذهله أن «ميرفى» أخبره أنه سيسمح له بالخروج من السجن إذا وعده أن يعود فى موعد العشاء. وافق «بنزرام» بالطبع دون أن تتوفر لديه النية للوفاء بوعده، ولكن عند حلول موعد العشاء، وجد نفسه يعود تلقائياً إلى السجن. وبالتدريج، زاد «ميرفى» من هامش الحرية المسموح به لبنزرام، وكذلك فعل مع باقى السجناء الآخرين. ولكن ذات ليلة شرب «بنزرام» حتى سكر بصحبة ممرضة جميلة وقرر أن يفر، وتم القبض عليه بعد معركة بالرصاص، وألقوا به فى زنزانة العقاب، وبتلك الواقعة وصلت نظريات «ميرفى» المتعاطفة والإنسانية إلى نهايتها.

ويبدو أن تلك التجربة كانت نقطة تحول. على كل المستويات كان «بنزرام» معادياً للمجتمع بأسره، إلا أنه لم يكن معادياً لنفسه، ويبدو أن خيانته ثقة «ميرفى» أرست فى نفسه كراهية لذاته. هرب من السجن مرة أخرى، ونجح. وسرق «يختاً» وبدأ حرفة القتل. عرض على بعض البحارة العمل باليخت وصحبهم إليه؛ بعد الإبحار استولى على كل ما يملكونه، ثم اعتدى عليهم

جنسياً، وقتلهم وألقى بجثثهم إلى البحر. يقول: «إنهم مازالوا هناك في أعماق البحر، عشرة منهم». ثم ذهب إلى غرب إفريقيا وعمل بشركة نفط، ولم يدم بها طويلاً بعد ضبطه يمارس اللواط على طاولة النادل. وتعاطف معه قنصل الولايات المتحدة ومال إلى مساعدته، وأعطوه مهلة للتفكير، جلس في حديقة عامة «ليفكر في الأمر ملياً». يقول: «بينما كنت جالساً في الحديقة، جاء صبي أسود في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمره، يتسكع حولي، كأنه يبحث عن شيء ما. أغريته بالسير معي، نزلت به إلى أرض منخفضة من الحصى تبعد ربع ميل عن المقر الرئيسي للشركة.. وتركته هناك، بعد أن مارست معه الشذوذ، ثم قتلته. كانت أجزاء مخه تبرز من أذنيه عندما تركته ولن يناديه بعد ذلك أبدا أي أحد بيا حبيبي... ثم ذهبت إلى المدينة، وابتعت تذكرة للسفر على سفينة بلجيكية متوجهة إلى خليج لوبيتو على امتداد الساحل الغربي الإفريقي. وفي ذلك الخليج استأجرت قارباً يعمل بالمجاديف مع ستة من الإفريقين السود وانطلقت للصيد في الخليج ومياهه الداخلية العذبة. كنت أبحث عن التماسيح. ووجدتها بكثرة. كانوا كلهم جائعين، فغذيتهم. أطلقت النار على الإفريقيين الستة وألقيتهم في الماء، وتكفلت التماسيح الجائعة بباقي المهمة. سرقت قاربهم وعدت إلى المدينة، ربطت القارب إلى أحد المراسي، وفي تلك الليلة قام مجهول بسرقة القارب».

بعدها عاد إلى أمريكا، اغتصب ثلاثة أولاد آخرين وكان يقتلهم بعد اغتصابهم، ووصل عدد قتلاه إلى عشرين، بعد خمسة أعوام من الاغتصاب والسرقة قبض عليه وهو يسرق مكتب بريد في «لارشمونت» بولاية نيويورك وأرسل إلى واحد من أقسى وأكثر السجون الأمريكية تشدداً وهو سجن «دانمورا». يقول: «كرهت كل إنسان رأيته». من جديد بدأ محاولات الفرار وما كان يتبعها من ضرب مبرح في السجن الانفرادي. مثل الطفل العنيد كان قد قرر أن يدخل في منافسة، وهي إن كان بقدرته تحمل ضرباً أكثر مما يمكن أن يوجهه إليه المجتمع البشري. في سجن «دانمورا» قفز من شرفة عالية فكسرت قدمه، وسار أعرجاً بقية حياته. قضى عمره منكباً على وضع جداول وبرامج للانتقام من كل الجنس البشري.

فكر ذات مرة فى نسف نفق للسكك الحديدية يمر أسفل جبل بينما يكون القطار بركابه داخل النفق، كما فكر فى مرة أخرى فى تسميم مدينة بأكملها بإضافة الزرنيخ إلى خزانات مياه المدينة، بل إنه انشغل فى تدبير مؤامرة تسبب حرباً بين بريطانيا وأمريكا وذلك بنسف سفينة حربية بريطانية كانت وقتها فى المياه الإقليمية الأمريكية.

فى المرحلة الأخيرة التقى فى السجن بحارس سجون شاب يهودى يدعى «هنرى ليسر». كان «ليسر» شاباً خجولاً يستمتع بالعمل فى السجن لأنه يوفر له حالة من الحياة الآلية بعيداً عن المجتمع وكان ذلك يخفف من عقدة إحساسه بالدونية التى كان يعانى منها. أذهل «ليسر» تفرد شخصية «بنزرام»، كان فى نظره حالة من حالات الانفصال البارد عن الوجود. وحين سأله ذات مرة: «ما أهدافك؟» أجاب «بنزرام» بابتسامة غريبة: «ما أفعله هو إصلاح الناس»، وبعد أن أطال «ليسر» التفكير فى تلك الإجابة، عاد إلى سؤاله: «كيف تفعل ذلك؟»، أجابه «بنزرام»: «الطريقة الوحيدة لإصلاح الناس هى أن تقتلهم». ووصف نفسه بأنه واحد من أولئك الذين «يتجولون لفعل الخير». كان يعنى أن الحياة تافهة وفاسدة وجديرة بالازدراء حتى أنه بقتل شخص ما فإنه يسدى إليه جميلاً.

حين اكتشف الحراس وجود قضيب نافذة مخلخل فى زنزانة «بنزرام»، تلقى ضرباً وحشياً - ربما للمرة المائة فى حياته - فى غرف قاع المبنى تعرض لنوع من التعذيب كان يعرف فى القرون الوسطى باسم «سترابَادو»، قيدوا معصميه خلف ظهره ثم مرروا من خلال القيد حبل يمر بدوره من فوق عارضة عالية بالسقف ورفعوه بواسطة الحبل من معصميه المقيدين خلف ظهره حتى يكون كل ثقل جسمه واقعاً على مفصل الكتفين من الخلف، ظل على ذلك الوضع اثنى عشر ساعة، ولما همدت حركته جاء طبيب السجن ليفحص قلبه صرخ فجأة وسب وجدف ولعن الرب الذى خلقه، ولعن أمه التى جلبته إلى هذه الدنيا وأعلن أنه سيقتل ويمزق كل بشرى فى الوجود. وسمحوا له بالنوم على أرض الزنزانة، ولكنه حين سب أحد الحراس، ضربه أربعة منهم بالهراوات حتى

فقد وعيه، وعلقوه مرة ثانية على السترابّادو. كان الحارس «ليسر» مصدوما بشدة من تلك المعاملة حتى إنه أرسل «دولاراً» إلى «بنزرام» مع أحد الثقات من الحرس. في البداية، اعتقد «بنزرام» أنها مزحة سخيفة. ولكن حين تأكد أنها علامة على تعاطف «ليسر»، امتلأت عينيه بالدموع. ولما رآه بعد ذلك أخبره أنه لو أحضر له أوراقاً وقلماً، سيكتب له قصة حياته. وهي الكيفية التي كتبت بها قصة حياة «بنزرام».

حين قرأ «ليسر» الصفحات الأولى، أدهشه الأسلوب الأدبي الرفيع والذكاء الحاد لبنزرام. لم يحاول «بنزرام» أن يسوق لنفسه الأعذار:

«لو كان هناك كائناً مجرماً بالسليقة والفطرة، فهو أنا. خرقت فيما أنقضى من عمرى كل قانون وضعه الرب والبشر، ولو أنزل أى منهم قوانين أخرى سأخالفها أيضاً وأنا مليء بالسعادة. أنا على يقين أن مجرد معرفة أنني خرقت كل القوانين السماوية والأرضية سيرضى كل البشر المقهورين. قليل من البشر يتساءلون لماذا أنا ما أنا عليه، ولماذا أفعل ما أفعله. ولا يشغلهم إلا القبض على، يجربون قوتهم معى، يدينونني ويرسلونني إلى أحد سجونهم لعدد من الأعوام، ثم يحيلون حياتي جحيماً أثناء سجني، ثم يطلقون سراحي مرة أخرى. لو كان لدى أحدهم نمراً صغيراً حبسه في قفص وأساء معاملته حتى صار متوحشاً ومتعطشاً للدماء، ثم يفتح له باب القفص فجأة ويتركه طليقا ليفترس كل من يصادفه في العالم.. سترتفع ضجة الاحتجاج ويزداد العويل.. ولكن إذا فعل بعض البشر الشيء نفسه لبشر آخرين، نجد الناس مذهولين مندهشين بل مصدومين، وتتصاعد صيحات الغضب والاستياء والانزعاج لأنهم سرقوا، واغتصبوا، وقتلوا. لقد فعلوا كل ذلك معى، ثم لا يعجبهم بعد ذلك أن أذيقهم نفس الكأس التي سقوني منها».

(من جزء نشر بمقال يحمل اسم «القاتل»، جريدة الجريمة، يرأس تحريرها توماس جاديس، وجيمس لونج، ماكميلان، ١٩٧٠).

إن اعتراف «بنزرام» محاولة منه لتبرير ذاته أمام وجود إنساني آخر، أما شعوره تجاه المجتمع، فقد ظل على وحشيته نفسها، تلك الوحشية العنيدة

عصية الترويض التي كان عليها دائماً. في إحدى محاكماته قال للمحلفين: «بينما أنتم تحاكمونني هنا ،فأنا أيضاً أحاكمكم جميعاً، وقد أصدرت حكما بإدانتكم، لقد أعدمت بعضاً منكم. وإن عشت، سأعدم مزيداً منكم فأنا أمقت كل الجنس البشرى». وحكم عليه القاضي بعد أن أدانه المحلفون بالسجن خمسة وعشرين عاماً.

وحين نقل إلى سجن «ليفينوورث»، قتل رئيس ورشة الأشغال بعتلة حديدية فحكم عليه بالإعدام. كان «ليسر» في ذلك الوقت يعرض مذكرات «بنزرام» على عدد من الكُتاب، كان من أولئك الكُتاب «هـ. ل. مينكن» الذى تأثر بها. وحين علم «بنزرام» أن هناك محاولات تبذل لتخفيف حكم الإعدام، احتج بعنف: «أنا لن انصلح حتى لو فتحتم بوابة السجن الرئيسية أمامي الآن وأطلقتم سراحي وأعطيتموني مليون دولار، ليس عندى رغبة أن اصنع خيراً لأحد ولا أن أصبح خيِّراً». وفي رسالة منه إلى «هنرى ليسر» أظهر إدراكاً مريراً وساخراً لذاته:

«أنا لا يمكن إصلاحي حتى لو أردت أنا ذلك. لقد استغرق تكوين ما أنا عليه الآن عمرى كله الذى انقضى، ثمانية وثلاثين عاماً وأنا هكذا حتى وصلت إلى الحالة التي عليها عقلي وفكرى الآن، في خلال هذا العمر اكتسبت عادات معينة، أنا متأكد أن الأمر سيستغرق أكثر مما عشته لأتخلص من تلك العادات، هذا بافتراض أنني أريد ذلك..»

«ما اندهش له، كيف لإنسان في هذا الوجود بذكائك وقدرتك ويعلم كل ما يعلمه عنى ويظل صديقاً لكائن مثلي بينما أنا أكره ذاتي واشمئز من نفسي»، وحين خطى إلى حبل المشنقة في ١١ سبتمبر ١٩٣٠، سأله القائم على التنفيذ إن كان لديه ما يود قوله، فرد قائلاً: «نعم لدى، أسرع بالتنفيذ أيها المتباطئ القذر. كان بإمكاني أن أشنق دستة من الرجال في الوقت الذى تحوم فيه حولي».

بإمكاننا أن نرى بوضوح طبعية المنطق الخاص الذى قاد «بنزرام» إلى شكل من أشكال الانتحار أو إفناء الذات.

فهو ، بداية ، وقع فى الخطأ الذى يقع فيه كل مجرمى العنف ، لقد رأى المجتمع كأفراد وصب غضبه على المجتمع بأسره فى هيئتهم . ويظهر حديثه إلى المحلفين بأنه يراهم كممثلين رمزيين للمجتمع ، قال لهم : «لقد أعدمت بعضا منكم ، ولو عشت ، سأعدم المزيد منكم» . فى حياته المبكرة ، كانت جرائمه محاولة «سحرية» أن يثأر من «المجتمع» ـ هو سحرى لأنه لا يوجد كيان معنوى يسمى مجتمع فى نظره ، بل أفراد يعادونه ـ حوّله الحكم بسجنه سبعة أعوام فى البداية حين طلبوا منه الإرشاد عن مكان بضائع مسروقة مقابل تخفيف الحكم عليه من مجرم عادى إلى مجرم صاحب رسالة ـ وهى «تلقين المجتمع درسا» . ويبدو أن الثقة التى حاول آمر السجن «ميرفى» أن يوليه إياها كانت نقطة تحول . فبعد فراره من السجن ،خاض «بنزرام» معركة بالرصاص ضد الحراس المطاردين له وكان آخر ما يتمناه أن يعود إلى السجن وتلتقى عيناه بعينى «ميرفى» الذى أولاه تلك الثقة ، وكان العقاب الوحشى الذى تلقاه بعد ذلك بمثابة راحة نفسية له . فى تلك المرحلة ، كان من الممكن لميرفى أن يكمل عمله الإصلاحى ويواجه «بنزرام» وجهاً لوجه ، ويتطلع إلى عينيه ويسأله كيف تأتى له أن يخون الثقة التى أولاه إياها . ولكن صبر «ميرفى» كان قد نفد . وكان بنزرام فى تلك المرحلة يملأه الاحتقار لذاته ويكره نفسه ويكره المجتمع بأسره . وكانت سرقته للبحارة بعد ذلك ثم قتلهم كأنها محاولة لإقناع ذاته بأنه «ملعون» .

جعله موقف «ميرفى» يتأكد أن منطقه عن أن المجتمع معادٍ له وضده منطق مغلوط . فحين أبدى «ميرفى» تفهمه وتعاطفه ، بدأ يشرق فى عقل «بنزرام» أن المجتمع ليس إلا تجريد وأن العالم مكون من شخصيات حقيقية مستقلة مثله تماماً . وحين تراجع «ميرفى» بسبب خيانة «بنزرام» ، عاد إلى المربع رقم واحد . أى إلى منطقه الزائف ، ولكن بعناد أشد وإصرار مضاعف . «إنهم ـ الناس الآخرون ـ كلهم أعداء» ، على أى حال ، لا يمكن لأحد أن يعيش بمثل تلك الفلسفة ، فكل كائن بشرى لابد أن يكون له على الأقل علاقة واحدة حميمة بكائن بشرى آخر . يمكن اعتبار العشرين جريمة قتل التى ارتكبها «بنزرام» بعد هروبه من السجن أحد أشكال عقاب الذات . فى عام ١٩١٢ اقتحم السجن

عائداً إليه بعد هربه ليحاول إنقاذ «كارل چوردان» الذى كان مسجوناً معه، وبحلول عام ١٩٢٠، كان قد أدار ظهره ونفض يديه من المشاعر الشخصية وراح يرتكب القتل كنوع من رد الفعل.

حين عاد إلى السجن من جديد ـ محكوماً عليه بالسجن مدى الحياة ـ كان قد توصل إلى درجة الانحياز الكامل والمطلق لذاته. أقنع نفسه تماماً أن العالم شرير، وأن الجنس البشرى لا يستحق إلا الإبادة، وتأسيساً على ذلك، فإنه لا يوجد ما يستحق أن يحيا من أجله. وفيما يخص مشاعره وانفعالاته، كان يهيم فى فراغ. من الواضح أن تلك الحالة ليست طبيعية لأى كائن بشرى، خاصة فى حالة مثل «بنزرام»، فسيرته الذاتية توضح أنه كان يملك أسباب «تحقيق الذات». لقد أصابت «ليسر» دهشة حين علم أن «بنزرام» قد قرأ أغلب الأعمال الأدبية الكبرى فى مكتبات السجون، كما قرأ أغلب الأعمال الفلسفية (خاصة «شوبنهاور» و«كانط»)، إلا أن هذا الرجل، الذى كان إحساسه بذاته عالياً جداً، والذى كان يخضع لتعذيب متواصل لا يحتمله بشر على مدى أيام دون أن يستسلم أو ينهار، لم يصل إلى تحقيق المستويات الأساسية من الاحتياجات البشرية كما حددها «ماسلو»، وهى «الأمن» و«الانتماء».

وبشكل ما ـ كان الدولار الذى أهداه «ليسر» إليه، من أقسى ما يمكن توجيهه إليه، أقسى من العذاب الذى كان يتعرض له من وقت لآخر. فقد كان ذلك الفعل يحمل معنى أنه مازال هناك عطفاً ولطفاً فى هذا العالم. وعنى ذلك بدوره، أنه إذا كان قد بذل مجهوداً كافياً، لكان من الممكن أن يحقق بعض الإنجازات فى الحياة. كانت آليات التحول فى اتجاه الحياة تتطلب أن يقدم الجانح على الاعتراف الكامل؛ وهو ما كان «بنزرام» قد بدأ فعلاً فى القيام به. ولكن بعشرين حالة قتل فى وعيه، بينهم عدد غير قليل من الأطفال، تأكد أنه لا يوجد حل ولا غفران، كان الأوان قد فات، بل كان متأخراً جداً، لأنه أطاح بكل الفرص.

المضمون العام لكتاب «آبوت»، هو أن البشر من أمثاله هو و«بنزرام»، لا توجد لديهم أية فرصة من البداية. ولكن هل هذا صحيح؟ كان لدى «بنزرام»

على الأقل فرصة حقيقية واحدة، عندما قبل كتابه للنشر. كلاً منهما أطاح بالفرص التى أتيحت له. ويبدو أن المشكلة الحقيقية ترجع إلى افتراضهم الأصلى أن الحياة بأجمعها ليست لديها النية ولا القصد أن تعاملهم بعدل. كان «بنزرام» يقيد ويضرب وهو طفل صغير فكره أمه. يقول: «قبل أن أغادر البيت لآخر مرة، تطلعت حولى، لفت نظرى أن جارنا غنى ولديه منزل جميل ملىء بالأشياء الرائعة، كان لديه أكثر مما يجب ولدى أقل مما يجب بل لا شىء على الإطلاق»، لذلك قام بالسطو على منزل ذلك الجار وانتهى به الأمر إلى إصلاحية الجانحين. عن ذلك يذكر: «كل شىء كنت أفعله كان يتضح بعد ذلك أنه الفعل الخاطئ»، لذلك كان يعاقب، ثم يعود لفعل الخطأ، بلا نهاية. يذكر عن ذلك: «بدأت أفكر أنى لابد أن آخذ بثأرى.. أن انتقم، فإذا لم أتمكن من إصابة أولئك الذين أصابونى.. فلأصب شخصاً آخر»، هذا المنطق الشائه عن الثأر كان قد تكوّن فى سن الثالثة عشر. كان يملأه الإشفاق على الذات والتعاطف معها، وأن «العالم» قد عامله معاملة سيئة. وبدلاً من استعمال ذكائه الشديد وإرادته القوية لإحراز النجاح - فى سن كان من الممكن أن يصبح فيها شيئاً، بدءاً من بهلوان فى سيرك حتى نجم سينما - إلا أنه استهلك ذاته فى مضايقات صغيرة.

يوحى «بنزرام» بشكل ما فى سيرته الذاتية، أنه بشكل ما لم يكن مسئولا عن جرائمه - فالنمر المحبوس إذا اسئيت معاملته لابد أن يتحول إلى الافتراس - وهناك عنصر من الحقيقة فى ذلك، إلا أن تلك الحقيقة تتجاهل تماماً جانبا مهما اسمه حرية الاختيار، ودائماً ما يكون اختيار المجرمين الخطرين هو قرار «الانفلات من السيطرة على الذات».

إن نمط «بنزرام» فى التمرد والعصيان ليس فريداً، ومن الممكن رؤية ذلك النمط فى عديد من المجرمين بالرغم من اختلافهم عنه فى الخلفية الاجتماعية وأسلوب التنشئة.

الحالة المغايرة التى أقصدها هى حالة سفاح «القتل بالإذابة فى الحامض» فى حوض الاستحمام وهو الإنجليزى «چون هيج» الذى أعدم عام ١٩٤٩ لارتكابه

ست جرائم قتل بالحامض.

من الطريف أنه قبل إعدامه بستة أعوام، كان الكاتب الساخر «برنارد شو» بصحبة سكرتيرته «بلانشيه باتش» يتناولان الغذاء في مطعم فندق «أونسلو كورت» في الحي الذي تقطن فيه الآنسة «باتش»، وكان «هيج» يجلس بالمصادفة إلى طاولة مجاورة لهم، وإلى طاولة أخرى كانت تجلس أسرة من بينها طفل، وألقى الطفل على سبيل اللهو واحدة من المفرقعات التي يلهو بها الأطفال أحدثت دوياً، فمال هيج باتجاه الطفل في انفعال شديد وصاح في غضب مسعور: «لو عدت إلى فعل ذلك سأقتلك»، وطبقاً لما روته لي الآنسة «باتش» عام ١٩٥٦، علق «شو» قائلاً: «هذا الرجل سينتهي على حبل مشنقة»، كما لو أن «شو» قد تعرف غريزياً على أن «هيج» من ذلك النوع الذي يأخذ عادة قرار «الانفلات من السيطرة على الذات» الذي يتصف به المجرمين الخطرين.

في كل الجوانب، كان «هيج» و«بنزرام» مختلفان تماماً. كان «هيج» ابنا لأبوين متحابين، ذوي ميل ديني جارف؛ ظهرت مواهبه الموسيقية من صغره، كما فاز بمنحة دراسية مجانية في مدرسة لقواعد اللغة، وأصبح عضوا في جوقة الكنيسة. وكان يحب الملابس الجيدة والسيارات السريعة، وذات مرة استأجر سيارة بوثائق مزورة وانتهى به ذلك إلى المحكمة، وفي تلك المرحلة اتخذ القرار الذي اتخذه «بنزرام». واجه في فترة السجن اختياران: إما أن اللعبة لا تستحق المشقة بعواقبها ومن الأفضل أن يكون مسالماً مع المجتمع، أو أن يصدق أن المجتمع قد أعلن الحرب عليه وبالتالي عليه أن يلقن المجتمع درساً. حط ترحاله على اختيار الغش والخداع مدفوعاً بتأثير فترة السجن المؤلمة، وانتهى بقتل عدد من البشر أولوه ثقتهم. والواضح من كل أعماله الإجرامية أنها كانت خلاصة من «سوء التقدير» من البداية وحتى النهاية. فمن خلال خمسة عشر عاماً من الإجرام - قضى زمناً طويلاً منها بين جدران السجون - كسب ١٥٠٠٠ جنيه استرليني، ومن الواضح أنه كان يستطيع أن يحصل على أكثر من ذلك إذا مارس أى عمل شريف. إلا أنه شعر من البداية أن الحياة مدينة له بتوفير بداية

أفضل مما كان متوفراً له، وقاده «منطق الضيق وعدم الرضا» إلى محاولات متصاعدة وشغوفة «للاختصار»، اختصار الطرق واختزال المجهود للحصول على ما يرى أنه يستحقه.

من الواضح أن ذلك المفهوم يشكل مكوناً رئيسياً لدى الرجل العنيف المتحول إلى الجريمة. فقضيته المنطقية تبدأ بأن «الحياة» لم تعامله بعدل. وحين يحاول إصلاح هذا الخلل، يسلك الطرق المختصرة لتحقيق العدل كما يراه هو. والنتيجة دائماً لا تتغير: احتكاك خشن بالقانون، واصطدام بالسلطة، ثم السجن، مزيد من الحنق والضيق وعدم الرضا، ثم قرار بالبحث عن طرق أكثر اختصاراً. قد يتجنب أو يهرب من عقاب المجتمع له على أفعاله، إلا أنه لا يستطيع أن يهرب من تداعيات أفعاله على ذاته. يتضح ذلك من قصة رواها «ليسر» عن «بنزرام». فذات يوم، دخل «ليسر» زنزانة «بنزرام» ليختبر متانة قضبان النافذة. بدت على «بنزرام» علامات الصدمة، ثم نهره في عنف قائلا: «لا تفعل ذلك مرة ثانية أبداً، لا تدر لي ظهرك ثانية أبداً»، واحتج «ليسر» قائلاً: «أنا أعلم أنك لن تؤذني، قال بنزرام: «أنت الرجل الوحيد في هذا الوجود الذي لا أحب أن أقتله، ولكني غريب الأطوار، ويمكن أن أفعل أي شيء». كان «بنزرام» قد أصبح شخصيتين - أو على وجه الدقة، رجل ووحش متنمر، فمن جهة، كان بنزرام هو من كتب سيرته الذاتية بما فيها من اعترافات ورؤية مذهلة والذي حذر «ليسر» من نقاط ضعفه، وكان أيضاً ذو وجه آخر تدربت غريزته أن تجعله قاتلاً كما يدرب الكلب «الألزاسي. حين أدار له «ليسر» ظهره، زمجر الكلب «الألزاسي» وهم بالوثوب.

يمكننا أن ندرك بوضوح ما الذي يخلق ذلك العنصر من الاتجاه إلى تدمير الذات لدى المجرمين العنيفين. فهذا النمط يؤمن أنه «معاد» لقيم «المجتمع»، وأنه يقيم مقابلها وبالتناقض معها قيمه هو الخاصة، وينتهي بأن يكتشف عمليا أنه قد دمر قيمه هو وأنه يدور في حلقة مفرغة أو في فراغ مطلق. يحكي الكاتب «مكسيم جوركي» عن قاتل روسي يدعى «فاسيلي ميرخولوف»، حكاها له صديقه القاضي الروسي «ل. ن. سافيا توخين» كان «ميرخولوف» صاحب كاره

تجرها الخيول لنقل البضائع، وكانت له قوة ثور. وذات يوم أمسك بلص كان يسرق سكراً مما تنقله كارته، في ثورة غضبه ضربه ضربة واحدة قضت عليه في الحال، وحكم عليه بالسجن، في السجن سيطر عليه هاجس لم يبارحه، وهو أن ضربة واحدة في ثورة غضب من الممكن أن تزهق روحاً، ولما كان القس يعظه بالسجن أن بإمكانه أن يتوب لم يستطع أن يتخلص من هاجسه أن ضربة عنيفة يمكن أن تقتله هو أيضاً. وذات يوم بعد الإفراج عنه، فقد أعصابه مع فتاة معتوهة الحفت في مضايقته فضربها بقطعة خشب فماتت لتوها. قضى فترة عقوبة جديدة وتحول الهاجس إلى كابوس ونوع من العذاب المضنى. حين خرج من السجن التحق بعمل كان صاحبه عطوفاً محباً للناس، فبادله «ميرخولوف» حباً بحب. وذات يوم وفى نوبة غضب اشتبك معه فى عراك فقهره وعذبه ثم خنقه. كان يقتل دون أن يقصد، حين تعميه انفعالاته، بعدها انتحر في السجن، خنق نفسه بأغلاله.

توضح اعترافات «ميرخولوف» للقاضى «سافيا توخين» أنه لم يكن مجنونا على أى نحو كان بالمعنى المفهوم للكلمة، إلا أنه تنتابه فكرة أن الحياة من الممكن أن «تؤخذ» بسهولة وتنتهى فى لحظة، مما يؤكد أن الوجود الإنسانى لا يحمل أى معنى مادامت حياة الفرد يمكن أن تنتهى فى غمضة عين ولسبب تافه. وأنه كفر بوجود الإرادة الحرة أو بوجود أى قيم إنسانية أخرى. وذكر عن ذلك: «باستطاعتى قتل أى رجل اختاره، كذلك يمكن لأى رجل أن يقتلنى...»، لم يفقد فقط الإحساس «بتفوقه» وتفرده، ولكنه فقد الإحساس بضرورة وجوده.

حين قتل رب العمل، كانت تقوده وتدفعه قوة الجبر التى لا يستطيع أن يدفعها وهو الجبر نفسه الذى جعل «بنزرام» يخشى أن يقتل «ليسر» رغما عنه. كان «القرار بفقدان السيطرة على الذات» يجعله يخشى شيئاً بداخله، يخشى ذاته.

الدوافع نفسها يمكن رؤيتها فى حالة شاب يبلغ من العمر اثنين وعشرين عاماً يدعى «ستيفن چودى»، تم إعدامه بالكرسى الكهربائى فى مارس ١٩٨١

فى مدينة «إنديانا بوليس». كان چودى قد قتل خنقاً سيدة تبلغ من العمر عشرين عاماً ثم ألقى بأطفالها الثلاثة فى نهر قريب فماتوا غرقاً. كان ابنا لأسرة مفككة محطمة، كان قد ارتكب أول اغتصاب جنسى وهو فى الثانية عشر، وطعن المرأة التى اغتصبها عدة طعنات وقطع إصبعها. قال للمحلفين: «من الأفضل أن تحكموا علىّ بالموت. إن عشت قد يكون الضحية القادمة واحد منكم، أو ابنة واحد منكم».

قبل إعدامه بأيام أخبر أمه بالتبنى أنه قد اغتصب وقتل عدداً من النساء أكثر مما يستطيع أن يتذكر، مخلفاً خلفه شريطاً من الجثث من تكساس حتى إنديانا. ومثله مثل «بنزرام»، رفض «چودى» كل محاولات استئناف حكم إعدامه.

قد يبدو أن هناك تفاوتاً واختلافاً فى العوالم بين فلاح روسى يعانى من وسواس قهرى وبين شاب أمريكى مغتصب للنساء. ولكن لا يوجد تفاوت ولا اختلاف فى صلب المشكلة. إن السعادة البشرية ترتكز على إحساس بواقعية الإرادة أو «الروح»، فحين يتطلع الإنسان إلى شىء صنعه بيده، أو يتأمل مفكراً كارثة استطاع أن يواجهها ويتغلب عليها بشجاعة وتصميم وعزم وإرادة. فإنه يشعر بإحساس عميق من الرضا. على العكس من ذلك الشعور بالعجز وفقدان السيطرة الذى لا يعدو كونه تعريفاً جيداً للبؤس والتعاسة وهو الذى يدمر العلاقة بينه وبين البشر، وهو لا يستطيع أن يحب شخصاً آخر دون أن ينتابه هاجس أنه قد يضربه فى لحظة ضربة تنهى العلاقة وتنهى حياته.

كان «ستيفن چودى» يعانى من الأزمة ذاتها، ففى كل مرة يرى فيها فتاة جميلة تعذبه رغبته؛ ولكن بعد أن قام باغتصاب وقتل عديد من النساء، استقر فى يقينه أن كل وخزة رغبة ليست إلا دعوة للمخاطرة بحريته بل وحياته ذاتها. ظل جانباً منه طبيعياً.. اجتماعياً، مؤثراً، محباً، حنوناً؛ ومثله مثل كل البشر كانت له احتياجاته الأساسية، من إحساس بالأمن، والانتماء، والاعتزاز بالذات، إلا أن القاتل «الإلزاسى» بداخله ضمن له أنه لن يسمح له بتحقيق تلك الاحتياجات فى مساراتها العادية والطبيعية. ووضعه ذلك خارج إطار الجنس البشرى.

يظهـر بوضـوح من ذلك أن المشكلة المركـزية لدى المجـرم مـشكلة انقـسـام الذات. ومن السـهل أن نرى كيـف يتحقق ذلك. كل البـشر يشـعرون إلى حد ما بالحـاجة إلى إشبـاع الإحـسـاس بالتـميـز والرغبـة فى إشبـاع الإحـسـاس بأنك معروف، ومعـترفاً بوجـودك من الآخـرين، ويعنى ذلك بجـلاء أن تكون عـضـوا بارزاً بين مجـموعة بشرية وضمنهـا. هناك أيضـاً درجة كـبيـرة من الإشبـاع فى تحقيق إنجاز ما؛ ولكـن نصف متـعة الإحـسـاس بذلك نسـتمـدها من إعجـاب الجماعة البشرية التى نحيا معها بذلك الإنجاز الذى حققناه، أى أن يكون الإنجاز علنيـاً. أما الجريمة فإن ارتكابها يتطلب السرية ولا تحقق لصاحبهـا الإشبـاع المطلوب المتمثل فى إعجاب الآخرين، وذلك يفسر الرغبة الجارفة لدى كثير من المجرمين الأذكيـاء والمهرة الذين يرتكبـون جرائم تنم عن ذكاء فى أن يتحدثوا بإسهاب عن جرائمهم فور إلقاء القبض عليهم. «هيج» مثلاً، كان من الصعب إدانته إذا لم يكن قد اعترف للشرطة تفصيليـاً بإذابتـه لأجسـاد ضحـاياه فى حامض مـركز وتخلصـه من خليط الحامض فى حديقة منزله الخلفيـة. كذلك «ثورنمان» الذى عرضنا حالته جعل إدانته مؤكدة بكتابة سيرته الذاتية التى احتوت على كل جرائمه بالتفصيل.

أما جرائم «بنزرام»، فقد كانت ناتجة عن قناعته بأنه لن يحقق التميز أبدا بالشكل المعتاد الذى درج عليه البشر. وبعد أزمة الثقة التى مر بها مع «ميرفى» آمر السجن، حاول أن يخرج قناعته تلك إلى حيز الوجود من خلال منطق مرعب وبقسوة متناهية؛ كانت جرائمه محاولة إرادية لسحق الجانب «الإنسانى» فيه ومحوه من الوجود، إلا أن ذلك الجانب رفض أن يموت؛ لقد تشوه ذلك الجانب، ونزف، وتمزق، إلا أنه ظل مصراً على تذكيره بأنه يفضل أن يكون رجلاً بين الرجال. إن إعلانه: «لدى رغبة أن أقتل الجنس البشرى بأجمعه» لم يكن إلا نوعاً من الانتحار.

وهنا، من الضرورى أن نلقى نظرة فاحصة وعن قرب على أزمة التدمير الذاتى لدى البشر: أى أزمة «الذات المنقسمة».

إن «الذاتين» الموجودتين لدى أى مجرم، متوفرتان أيضاً لدى كل فرد من

الجنس البشرى، بعد ولادة الجنين، فإنه لا يعدو كونه حزمة من الرغبات والشهوات فهو يبكى من أجل الغذاء وطلباً للدفء وجذباً للانتباه والاهتمام. وكلها بالنسبة له طلبات ملحة وعاجلة، أو ما يمكن تسميتها «متطلبات قصيرة المدى». وينقتل الوليد إلى الطفولة من اللحظة التى تمس خياله فيها قصة ما. من تلك اللحظة وما يليها يكون قد بدأ فى تطوير نوع جديد من الاحتياج: هو الاحتياج إلى تكوين خبرة بالوجود والعالم المحيط الذى يحيا به، والاحتياج للمغامرة، والاحتياج إلى معرفة الآفاق الأبعد عن المكان الذى يحيا به. وهو ما يمكن تسميته «متطلبات بعيدة المدى»، أغلب البشر يجدون أنفسهم متورطين فى صراع عنيف ومستمر بين الاحتياجات «قصيرة» المدى، وتلك الأخرى «بعيدة» المدى.

يبدأ الطفل فى الإحساس بذلك الصراع حين يجد نفسه مشتتاً بين ادخار مصروفه لشراء دراجة لإشباع الميل لمعرفة ما فى الآفاق البعيدة أو إنفاق المصروف فى الذهاب إلى السينما وشراء الحلوى، وهى المتطلبات «قصيرة المدى» والعاجلة والملحة، الآنية والفورية.

الإنسان البالغ فى حالة أسوأ من حالة الطفل، إذ يجد نفسه موزعا بين أقساط الرهونات ورخصة السيارة وملابس أطفاله، وقد ينسى أى آفاق بعيدة كان يراها فى أى وقت. ويمكن تشبيه ذلك الأمر وكأننا نمضى فى حياة بميكروسكوب على عين، وتليسكوب على العين الأخرى. (الميكروسكوب يركز ويكبر الاحتياجات العاجلة والملحة، والتليسكوب لاستجلاء الأشياء البعيدة الآجلة). إلا أننا نكاد لا نستعمل تلك العين ذات التليسكوب - بل نميل إلى إغلاق تلك العين بصفة دائمة.

وهنا تظهر علاقة الإجرام بالتنويم. فالمجرم تهيمن عليه بلا جدال احتياجاته الملحة العاجلة، مثله مثل الطفل المدلل، تمثل له الدراجة مثلا ما يعبر عنه بقوله: «أريدها الآن، الآن». ومن خواص العقل الواعى أن الإدراك قصير المدى - كما يبدو من خلال العين ذات الميكروسكوب - ينزلق بسهولة إلى التنويم. والحيوانات أسهل تنويماً لهذا السبب، فهى تضع ميكروسكوب الاحتياجات

الآنية على العينين. ونحن في حاجة إلى الإحساس بالواقع - التليسكوب - ليحافظ على تنبهنا. إن إحساس الدجاجة بالواقع منحصر في نبش الأرض بحثاً عن الطعام والرقود على البيض - ولذلك يتسبب خط الطباشير في نقل وعيها إلى حالة من التشوش أو التنويم كما ذكرنا من قبل. كذلك إحساس المجرم بالواقع، محدود برؤية الأهداف قصيرة المدى، ولذلك يميل إلى الانزلاق بسهولة إلى حالة قريبة من التنويم.

قد نرى جميعاً أن هناك شيئاً قريباً من الجنون في سلوك «هيج» سفاح الحامض، وهو تحمل عناء إذابة ضحاياه في حامض مركز من أجل بضعة آلاف من الجنيهات كان يمكنه تحقيقها بوسائل أسهل. الوسيلة التي اتبعها لا تتناسب مع الغرض، لقد فقد كل إحساس بالواقع.

كان الغرض من جمع البشر بين «الميكروسكوب» و«التليسكوب»، عبر مراحل التطور أن يكون البشر أعصى على التنويم من الدجاج والأرانب، ونحن كذلك فعلاً بشرط أن نحسن استخدام «التليسكوب» للمحافظة على الإحساس بالواقع والمحافظة على التناسب بين العاجل والآجل، وبشرط أن نرى كليهما بنفس الوضوح والتركيز. ولكن واقعياً، نجد أن العادة السائدة لدى الغالبية هي المحافظة على إحدى العينين مغلقة دائماً على وجه التقريب، وهو ما يجعلنا في ضعف الدجاجة إن لم نكن أكثر منها هشاشة.

ولكن، لماذا نفعل ذلك؟ مرة أخرى نجد أنه يجب علينا أن نفحص بعناية الآليات الخاصة بالعقل البشرى. حين يولد طفل، يجد نفسه في حيرة وتيه، مرعوب من العالم بمشاهده الغريبة وأصواته المخيفة، لا يفهم أى منها. بالتدريج، يبدأ في التعرف على نماذج معادة ومكررة، يخزنها في عقله، وعلى مدى بضعة أيام يكون قد جمع نماذج كافية لخلق عالم بأجمعه خلف عينيه. لذلك، عندما يواجه موقفاً جديداً لا يفهمه، لا يجد نفسه مضطراً لدراسته دراسة عميقة؛ فالنماذج التي اختزنها بعقله تمكنه من السيطرة على الموقف في نصف الوقت. إلا أن هذه الآلية المفيدة - مثلها مثل أى آلية أخرى - تحتوى على عيب خطير: فحين يبلغ الكائن البشرى سناً يصبح فيها ماهراً في التواؤم مع

المستجدات التى تواجهه، نادراً ما يهتم بدراسة تفاصيل تلك المواقف أو البحث عن نقاط جديدة بها تحمل أهمية خاصة. إنه يجلس مستريحاً مسترخياً داخل غرفة السيطرة والتحكم الكامنة فى عقله، ثم يتعامل مع المواقف «بالعادة» والتعود.

وبالتدريج تنزلق الحياة والوعى بها إلى حالة من آلية التكرار والتنميط. «البشر هم الكائن الوحيد الذى يقضى تسع وتسعين بالمائة من وقته داخل رأسه وبين أفكاره الداخلية الخاصة التى تكون عالماً من صنعه مغاير للواقع خارجه»، ويعنى ذلك طبعاً، أن البشر يحتفظون فقط بحالة تنبه وإحساس بالواقع بنسبة واحد بالمائة من الوقت. والمدهش أن البشر بهذه النسبة الضئيلة، أسهل كثيراً وأكثر قابلية للتنويم.

هناك ظاهرة عجيبة جداً خاصة بآلية التنويم، وهى أنها تبدو كوسيلة من استنفاذ طاقة العقل ضد العقل. متدربى الدفاع عن النفس عند الاشتباك البدنى مع عدو، يتلقون تدريبات تمكنهم من شل حركة عدوهم بلف ساقيه حول عامود إنارة مثلاً فى وضع معين يجعله مقيد بلا أغلال ولا يستطيع فك ساقيه. ويبدو أن التنويم لديه القدرة على تقييد و«غل» العقل بالطريقة نفسها. تمثل الساقان ـ فى ذلك الوضع المغلول الذى تعوق فيه كل ساق الأخرى عن الحركة ـ «العادة» و«الوعى الذاتى». كلنا مررنا بتجربة أداء عمل ما بطريقة آلية وبلا تفكير، وحين يحملق فينا شخص آخر ونحن نقوم بذلك العمل الآلى نجد أن أداءنا يختل ويضطرب ويتعثر لأننا نؤديه ونحن واعين به. ويعود ذلك إلى أن أغلب الأعمال المكررة ـ مثل قيادة سيارة ـ قد تم نقلها فى العقل إلى منطقة الأعمال الآلية. ولذلك نقود السيارة باتقان حين لا نفكر فيها بوعينا. فإذا طلبت من فرد أن يركز انتباهه على مهمة اعتاد أن يفعلها باتقان وبطريقة آلية ستجد أن ما طلبته منه ليس إلا وسيلة مؤكدة لإعاقة وتعطيل ذلك العمل. هذا بالضبط ما تفعله الأفعى بالأرنب حين تحملق فيه فتربكه وتشل حركته.

أما البشر، فإنه يمكن تنويمهم دون حملقة من المنوم (وكذلك دون الاستماع إلى صوته). حين أذهب مثلاً إلى إحدى الغرف باحثاً عن شىء ما كثيراً ما أجد

نفسي قد نسيت ما جئت من أجل البحث عنه. هنا أكون قد انزلقت إلى واحد من أكثر أشكال النوم شيوعاً. فالمسافة حتى الغرفة شتتت انتباهي عن الغرض الذي جئت من أجله ودفعت عقلي إلى حالة من الضبابية والفراغ. وأوضح مثل على ذلك قصة البروفسور الذي صعد إلى غرفة نومه لتغيير ربطة عنقه فقط قبل وصول ضيوفه؛ وحين تأخر كثيراً صعدت زوجته لاستطلاع الأمر. وجدته نائماً بالسرير بملابس النوم. لقد سلم نفسه للآلية، بمجرد أن بدأ في خلع ربطة عنقه توالت أفعاله الآلية التي يفعلها كل يوم قبل النوم فخلع باقي ملابسه ولبس ملابس نومه وتوجه إلى سريره، ونام. ويوضح ذلك أن غياب الإحساس بالواقع والاستسلام للآلية يجعل الفرد في حالة أقرب إلى التنويم: لقد تصرف البروفيسور كأنه تحت سطوة أمر تنويمي، فقد كان وعيه موجهاً إلى «داخل رأسه» أي إلى عالمه الداخلي الخاص لا يربطه بالواقع من حوله إلا خيط واهي. وكان الإيحاء اللاواعي منذ بداية فكه لربطة عنقه أن وقت النوم قد حان بمثابة قطع لذلك الخيط الواهي، كما لو كان قد قطع بأمر من منوم.

من المهم جداً أن ندرك أن أغلب الجنس البشري يقضي الجانب الأعظم من حياته في هذه الحالة القريبة من التنويم، أي على «حافة التنويم». العيب الرئيسي في هذه الحالة أنها تجعلهم معرضين للإيحاءات السلبية، فمزاجهم يتغير من دقيقة لأخرى. الشمس تشرق وتضيء العالم فنشعر بالانشراح، وحين تختفي خلف الغيوم تتسلل بعض من كآبة. أما في المدن الحديثة فأغلب ما فيها يبعث على الكآبة والتوتر: أصوات كوابح السيارات ورائحة عوادمها، هدير مختلف أنواع المحركات، تناحر البشر وتدافعهم، عناوين صحف تحمل أنباء كوارث. بالنسبة لرجل يمتلك حساً قوياً بهدف، فإن كل تلك الجوانب لا تعني له شيئاً، لأن الهدف يربطه بقوة بالواقع. إلا أن أهداف وأغراض قاطني المدن الحديثة كلها وليدة العادة، ولذلك يقضون أغلب أوقاتهم تمطرهم الإيحاءات السلبية، ويظلون غارقين في تلك الحالة من التوتر غير المحدد والمستمر التي أسماها «كيركجارد» «المجست» أي حالة الذعر المتواصل، والقلق، والحصر النفسي، وهي باختصار الحالة التي يطلق عليها المعاصرون الاكتئاب.

في النصوص الهندوسية المقدسة توجد عبارة تقول: «العقل ذابح الواقع»، وهي تعني أن حالتنا العقلية والذهنية الداخلية تعزلنا عن الواقع وقد تفصلنا عنه. كتب «توماس مان» قصة قصيرة أسماها «التحرر من الوهم» قد تكون تجسيداً لمعنى النص الهندي، الشخص الرئيسي في القصة يعرض حياته على أن الملل قد أتلفها بـ«إحباط عام وشامل»، وبالرغم من كل خبراته وتجاربه. توقع معجزات وروائع وأعاجيب من خلال الأدب والفن. إلا أن كل شيء كان يتحول إلى خيبة أمل وخزلان. يتحدث عن نفسه قائلاً: «هل هذا كل شيء؟». إنه يعتقد أن الموت سيكون الهبوط النهائي والخزلان الأخير، الإحباط الأعظم بين جميع الإحباطات... في الحقيقة، لم تكن مشكلته خزلان الحياة بقدر ما كانت أنه لم يعرف أبداً ما هي الحياة. لقد عاش حياته داخل رأسه، وظل في حالة دائمة بشكل أو بآخر من التنويم المنفصل عن الواقع. وتلك الحالة بطبيعتها ذات الخصوصية الشديدة تبدو وكأنها تمتلك خاصية الانتشار الذاتي. إن افتقاد الواقع والتحفز والأمل - وهي حالة من الآمال السلبية - يبعث على «التنويم»، والفرد في حالة «التنويم» معرض للإيحاءات السلبية التي تطيل التنويم، وهكذا، حلقة مفرغة.

بمجرد أن ندرك وجود تلك الآلية، يمكن أن نرصد وجودها في أنفسنا، فلو كنت أشعر بالمرض على سبيل المثال وأحاول أن أقاوم وألا أسلم نفسي للإحساس بالغثيان، فإن مجرد ذكر الطعام أمامي يجعلني أتساءل لأن كل ما وجدته فيه يبعث على الغثيان في حالتي الذهنية تلك. إلا أنه من السهل أيضا أن أغير فجأة تلك الحالة.. فحين استمع إلى دقات ونقر متتابع على زجاج النافذة، ينصرف ذهني إلى موضوع آخر وأفكر: «ترى هل هذا صوت المطر؟ أتراها تمطر الآن؟» وحين يعود انتباهي مرة أخرى إلى معدتي، أفاجأ بأني لا أشعر بأي غثيان.. لقد أنقذني صوت تساقط الأمطار وصرف ذهني عن حالة الخوف من الغثيان، وأعاد ترسيخ علاقتي بالواقع.

وهنا ندرك كيف قيد كلاً من «بنزرام» و«ميرخولوف» نفسيهما إلى موقف تدمير الذات. لقد قطعت مواقفهما الذهنية السلبية صلتهما بالواقع وأصبحت

كحاجز أو حائط من الرصاص الثقيل حجبهما عن الواقع. لم يكن يوجد معنى في إقناع «ميرخولوف» أن خوفه وخشيته أن يقتل إنساناً في لحظة دون قصد بضربة من يده ذات القوة الهائلة ليس إلا تفكيراً عبثياً، وجعل منه، «رعبه وقلقه» شخصاً «لا يمكن الوصول إلى عقله». كذلك كانت حالة الفتاة «بولين» التي عرضناها في الفصل الأول والتي أوحى لها طالب الطب أن تذهب في الساعة الرابعة وتعانق قس المستشفى وفشلت كل المجهودات في إثنائها عن ذلك. كما لم تكن مأساة «بنزرام» في كونه مرفوضاً من المجتمع أو أنه كان مدفوعاً بحتمية لا فكاك منها للعنف والإجرام؛ بل كان سبب مأساته أنه كان محاصراً داخل حالة من «الإيحائية السلبية» حتى إنه عجز تماماً عن استيعاب إمكانية وجوده ككائن بشرى سوى.

هل توجد حتمية في هذا؟

هذا السؤال بالنسبة لعلماء الإجرام هو الأهم على الإطلاق من بين جميع الأسئلة. ويفترض من جانبهم أن تكون الإجابة بالنفي وأنه لا توجد حتمية أن تسير الآليات في ذلك المسار. فإذا كان «العقل ذابح الواقع»، فهو أيضاً يمكن أن يكون خالق - أو على الأقل مضخم ومكبر للواقع. فلو كانت إشكالية الإجرام تعود إلى الحالة الذهنية السلبية، فمن الممكن حل تلك الإشكالية من خلال خلق حالة إيجابية مضادة. فإن كان «بنزرام» حنوقاً وغضوباً وأجوف، إلا أنه كان في غاية الذكاء، وكان ذلك وحده كافياً لتمكينه من كسر الحلقة المفرغة.

ولذا طرحت الفكرة الرائدة لمعالجة الإجرام بتغيير الحالة الذهنية، وتم تجريبها على يدى عالم أمريكي يدعى «دان ماكدوجالد». ودخل «ماكدوجالد» هذا المجال بطريق المصادفة. ففي منتصف عام ١٩٥٠ أتى إليه أحد المزارعين - وكان ماكدوجالد محامياً - لاستشارته في مشكلة خاصة بالسلطات الفيدرالية في الولايات المتحدة. كانت السلطات تقوم باحتجاز كميات هائلة من المياه خلف سد «بافورد» في ولاية چورچيا حتى تفيض المياه خلف السد وتغرق أراضي المزارعين فيتلف الزرع وتنفق الماشية. كانت شكوى المزارعين منطقية

حتى إنه لم يساور «ماكدوجالد» أى شك فى أنه يمكن تسوية هذا الأمر فى يسر وسهولة مع السلطات الفيدرالية بمجرد أن يتفهموا الموقف. ولدهشته الشديدة اتضح عملياً أنها مهمة مستحيلة، لم يجد من السلطة أى استعداد لسماعه أو تفهم الموقف. أخبره المهندسون المسئولون عن السد أنه «لا يمكن أن تصنع عجة دون أن تكسر البيض»، واستغرقت المشكلة ثلاثة أعوام فى المحاكم وتكلفت ٥٤٠٠٠ دولار حتى توصل إلى حكم قضائى فى صالح المزارعين.

ما أزعج «ماكدوجالد» هو صعوبة الوصول إلى عقل السلطة؛ كانوا كمن سدوا آذانهم بأصابعهم لا يريدون الاستماع لأحد. ولما شغله التفكير فى تلك الظاهرة فقد بدأ اهتمامه بدراستها. سمع عن تجارب يقوم بها فى جامعة «هارفارد» الدكتور «چيروم برونر». كان «برونر» يحاول التوصل إلى آليات انتقال الإشارات العصبية إلى المخ وتحولها إلى تفكير واعٍ. وكان من المعروف أن الإشارات العصبية تنتقل عبر الألياف العصبية على هيئة موجهات كهربائية. أجريت التجارب بوضع أقطاب كهربائية على المسارات العصبية لرصد مسارها حتى المخ، واستخدمت القطط فى تلك التجارب، بوضعها فى غرف هادئة، مع إصدار صوت طرقعة قرب الأذن ثم متابعة مسار الإشارة التى تم رصدها حتى وصولها إلى خلايا القشرة المخية، كانت التجربة التالية تقوم على وضع فأرين سمينين أبيضين تحت ناقوس زجاجى أمام القط، ثم إصدار صوت الطرقعة الحادة فى الأذن. وكانت النتيجة المذهلة أن الأجهزة لم تسجل أى إشارة عصبية، وبدا الأمر غريباً ومحيراً، ولم يكن هناك تفسير إلا أن القط أو مخه على وجه الدقة قد تجاهل المؤثر وهو يحملق بشدة وتركيز فى الفأرين. ولكن حتى مع تجاهل القط للإشارة العصبية الصوتية فلابد أن غشاء طبلة الأذن قد اهتز نتيجة للذبذبات الصوتية وانتقلت الاهتزازات والذبذبات فى العصب السمعى كإشارة عصبية حتى تصل إلى خلايا المخ. بدا الأمر وكأن القط قد أغلق مسار الصوت عند مستوى طبلة الأذن. فكيف يحدث ذلك؟ اكتشف الباحثون من خلال تجارب أخرى عديدة أن المخ يرسل إشارات عصبية مضادة لإحباط انتقال الصوت أو بدقة أكثر ـ إغلاق المسار العصبى للصوت عند الاحتياج لذلك.

توصل «ماكدوجالد» أيضاً إلى حقيقة مهمة وخطيرة وهى أن الحواس الخمس تلتقط حوالى عشرة آلاف «معلومة» فى الثانية، وتصب كل تلك المعلومات فى منطقة معالجة ومعاملة المعلومات فى المخ. ولكن المخ لا يستطيع أن يتعامل إلا مع سبع معلومات فقط كل ثانية من عشرة آلاف معلومة ترد إليه كل ثانية وبالتالى لابد أن يتجاهل ٩٩٩٣ معلومة كل ثانية. وبذلك يمتلك المخ خاصية عالية الكفاءة تسمى نظام «الترشيح». لبيان ذلك بوضوح أكثر فإنى أسوق مثالاً لحظياً عن نفسى، فبينما أجلس فى مكانى الآن أكتب هذه الصفحة على الآلة الكاتبة، يشعر جسمى بآلاف من الأحاسيس. قدماى مثلاً تشعران بالبرد، جرحت إصبعى هذا الصباح ومازال طرفه يؤلمنى، ذقنى بها التهاب خفيف من مطهر ما بعد الحلاقة. أشعر بضغط الكرسى الذى أجلس عليه على مقعدتى، أشعر بملامسة ملابسى لجسمى، نسمات خفيفة آتية عبر الباب المفتوح، مئات أخرى من الأحاسيس الصغيرة التى يمكن أن انتبه إليها لو ركزت عليها تفكيرى باختيارى. ولكن حين أبدأ فى الكتابة، فأنا لا أختار، ويتجاهل عقلى كل الأحاسيس الأخرى، يتولى ذلك الجهاز الإحباطى الممتاز المهمة بدلا عنى. فإذا تعطل عمل ذلك الجهاز، سأجد نفسى مشوشاً بين آلاف الأحاسيس ولا يمكن أن أركز على أى منها أو أن أتعامل معه.

لم يفسر ذلك الكشف المبهر الذى توصل إليه «ماكدوجالد» لا مبالاة السلطات الفيدرالية فى سماع شكوى المزارعين فقط، ولكنه فسر أيضا السلوك المعادى للمجتمع الذى يسيطر على المجرم. فالمجرم بشكل جوهرى يتخذ موقفاً سلبياً من الحياة. وهو يؤمن أنه سيحصل على ما يريده بانتزاعه بالقوة أو اختطافه أو سرقته. وهو بالمعنى الحرفى أعمى عن كل ما يتناقض مع وجهة نظره السلبية عن الوجود، أى لا يراه. وتمثل شخصية «سكروج» فى رواية لـ «تشارلز ديكنز» مثالاً جيداً لما أطلق عليه «ماكدوجالد» «الإغلاق السلبى». لقد تفتحت عينى «سكروج» على الحياة ليجد نفسه وحيداً فى هذا العالم وأقنعه ذلك أن العالم ليس مكاناً ممتعاً، وأصبح موقفه ذاك من الحياة موقفاً يقينياً غير قابل للتبدل، كما أنه أصبح موقفاً دفاعياً عن ذاته، يقول: «الكريسماس؟ إنه ليس إلا خدعة وهراء»، أما الفتاة التى خطبها ذات يوم فقد

وضعت إصبعها على جرحه حين قالت له: «إنك تخاف الدنيا أكثر مما يجب». ويمضى أوقاته تعيساً تماماً فى غرفته الكئيبة، إلا أنه لا يعى أية احتمالات أخرى للحياة، إنه محاصر بـ«الآنية اللحظية»، عالم الميكروسكوب. لم تكن كل أشباح أعياد الكريسماس تترك فيه من انطباع إلا أن تذكره بعالم طفولته البائسة؛ ذات الجليد الذى أحاط قلبه «اختفى الإغلاق الخاطئ». كان يشعر بآلاف الروائح الهائمة فى الفضاء، يرتبط كل منها بألف فكرة» كانت تعددية المظاهر وأوجهها المتباينة قد بدأت فى النفاذ إليه.

يمكننا أن ندرك طبعاً أن «الإغلاق الخاطئ» الذى وقع لـ«سكروج» انعكس أيضاً على فهمه وإدراكه لمعنى الكلمات. فلو قام عالم نفس باختباره فى تداعى معانى الكلمات مستعملاً كلمات مثل «كريسماس»، «الشفقة»، «الصدقة»، «الحب»، «الجيرة»، فإن المعانى المرتبطة بكل منها والتى تتداعى إلى ذهنه على الترتيب ستكون: «خدعة، وهراء»، أما الشفقة فسكيون مرادفها عنده «سذاجة»، والصدقة ترتبط بـ«غباء»، و«الحب»، بـ«بله»، أما الجيرة فستكون «ضوضاء وإزعاج». لقد غيرت الأشباح الثلاث من فهمه وعمقت وعيه بمسارات خاطئة للكلمات ومعانيها.

كان ذلك الاكتشاف حلاً للمشكلة التى واجهت «ماكدوجالد» وهى مشكلة المجرمين «بلا إغلاق»، واستشهد بما ذكره «ويليام جيمس»: «إن أعظم اكتشافى فى عصر جيلى هو أن البشر بإمكانهم أن يغيروا حياتهم بتغيير مواقفهم العقلية». يكمن المفتاح لمواقف الإنسان فى فهمه لمعانى الكلمات كما يقول «ماكدوجالد». وحيثما يتعلق الأمر بالجريمة، فإن الكلمات ذات الدلالة فى هذا الشأن هى تلك الكلمات ذات الدلالة فى المعتقدات الدينية مثل: الحب، الخطيئة، الجار، العقاب، المسئولية، وهكذا دواليك. إن فهم الأفراد المعادين للمجتمع لمعانى تلك المفردات شائه، فهو فهم مبتسر وغير متكامل. فعلى سبيل المثال نجد أن كل مدمنى الكحوليات يقرون أن إدمانهم خطأإلى أبعد حد؛ إلا أنهم يستطردون موضحين أن فشلهم الذى دفعهم للإدمان ليس مسئوليتهم ويميلون دائما إلى توجيه اللوم فى اتجاه آخر بعيدا عن ذواتهم.

ويبين ذلك أن إدراكهم لمفهوم ومعنى المسئولية فى حالة من الضبابية والغموض والتناقض.

بناء على تلك الرؤية، انطلق «ماكدوجالد» محاولاً تغيير مفاهيم المجرمين عبر ذكائهم محاولاً ترسيخ فهم صحيح وكامل لمعانى الكلمات الدلالية. كان على يقين أن الإنجيل يشمل أكثر التعاليم فهماً لتكوين مجتمع متآلف، ووجد أن المعانى بالنص الأصلى المدون بالآرامية أكثر دلالة من تلك المترجمة إلى الإنجليزية. ويكفى مثل واحد للدلالة على ذلك. الكلمة الآرامية لـ «نفس» أو «ذات» هى «نافشا». وهى تعنى كما يذكر «ماكدوجالد» «الذات الحقيقية» أو «الذات الصادقة» أى جوهر الإنسان يتلقن البشر ويتعلمون من صغرهم أن حب الذات غير مرغوب فيه وأنه من الصفات غير الحميدة ومرادف للأنانية. إلا أن الإنجيل يأمرنا أن نحب جارنا كما نحب أنفسنا. وقد يوحى ذلك بأن الإنسان لابد أن يحب نفسه وأن ذلك أحد المفاهيم الدلالية للمسيحية. ومن السهل أن ندرك ماذا يعنى ذلك فى حالة مثل حالة «بنزرام» الذى كان مشمئزاً من ذاته وكارهاً لنفسه وقد ذكر ذلك مرات كثيرة. إلا أن سيرته الذاتية تظهر أنه كان على درجة عالية من الذكاء والاكتمال، وأن ذلك كان بمثابة إنجازه الأساسى. لو كان «بنزرام» قد أدرك ذلك ووعاه، لما أصبح مجرماً بأى حال. بل إنه حتى كمجرم، كان ذكاؤه سيستجيب لهذا الإدراك بأن لديه أسباب جيدة لأن يحب«نافشاه» وألا يخجل من ذلك.

حصل «ماكدوجالد» على تصريح بتجريب أفكاره على مساجين «ريدزفيل» بولاية جورجيا. بدأ بافتراض أن المساجين أذكياء بما يكفى لاستيعاب النتائج المستخلصة من تجارب «برونر» على القطط، أى أنهم يرفضون أو يغلقون أسماعهم عن أشياء معينة هى ما يتوجب عليهم أن يدركوها. إنه قانون طبيعى يدفع كل شخص لتحقيق أهدافه الخاصة به.. المشكلة بالنسبة للمجرم تكمن فى أنه مدفوع لتحقيق أهدافه هو الآخر، إلا أنه يحاول تحقيقها بوسائل خاطئة حتى إنه لا يحققها أبداً، فكما رأينا فى حالة «هيج» الذى كان يذيب جثث ضحاياه فى الحامض، نجد أن مهارة المجرم ليست إلا شكلاً من أشكال الغباء.

المشكلة الرئيسية للمجرم هي المشكلة الرئيسية لمدمن الكحول وهي تكمن في شعورهم بأنهم بلا حيلة ؛ وأن لا شيء يقع أو يحدث بالشكل الذي يجب أن يحدث أو يقع به، إنه يلوم «الحياة». وبدأ «ماكدوجالد» في إفهام المجرمين الذين انتقاهم أن اللوم الحقيقي يكمن في التشوش الذهني والتخبط، أي في مواقفهم السلبية الناتجة عن الفهم الخاطئ للمعاني.

كانت النتائج مدهشة، أظهرت المحاولات الأولية في معهد چورچيا للإصلاح أن ٦٣ بالمائة من المساجين - كان أكثرهم من ذوي العقد النفسية العصبية (نوعية بنزرام) - يمكن إعادة تأهيلهم خلال أسابيع. ثم أظهرت دراسات المتابعة بعد انقضاء ثمانية عشر شهراً أنه لم يكن هناك ارتداد لأي حالة من الحالات التي عولجت لتصحيح المفاهيم. بدأ «ماكدوجالد» بتخصيص اثنين من المعلمين لتدريب اثنين من المساجين لمدة أسبوعين (كان المعهد في ذلك الوقت يسمى مؤسسة يونان وهو اسم استمده «ماكدوجالد» من النسخة الآرامية للعهد الجديد) ثم بدأ الأربعة في تدريب اثنين وعشرين مسجوناً، ثم اختيار أربعة منهم كمعلمين. وتغير اسم البرنامج بعد ذلك وأصبح «توجيه الانفعالات الناضجة».

وقدم «ماكدوجالد» صورة رائعة كمثال لإثبات نجاح البرنامج. فقد شعر أحد المساجين بكره عدائي تجاه مسجون آخر، وكانت التقاليد العرفية السائدة بالسجون تقتضي - كما فسرها وشرحها «چاك آبوت» تفرض في موقف مثل هذا أن يتقاتلا وجهاً لوجه وبشرف، وإن تسنى لأحدهم قتل الآخر، فلابد من قتله. أخفى السجين ماسورة معدنية استعداداً لمنازلة السجين الآخر ؛ ولكن بعد أن تلقى من المعلمين درساً في تفسير معنى ومفهوم «الصفح»، صدمته المعاني التي أدركها. لقد كان الخصم «جار»، وكادت مفاهيمه الشائهة تدفعه لفعل يتناقض مع مصالحه واهتماماته. ولذلك توجه إلى خصمه ودعاه إلى تناول الشطائر والقهوة وتحدث معه بشكل مختلف عما كان يفعله وصارا صديقين.

قد يبدو للوهلة الأولى أن «ماكدوجالد» قد لجأ إلى أسلوب تبشيري، إلا أن التدقيق يظهر أننا لم نصل إلى النقطة الحيوية وهي أن «ماكدوجالد» انطلق من

افتراض أن أغلب المجرمين يتصرفون فى مستوى أقل كثيراً من قدراتهم وطاقاتهم الحقيقية، وأن كل البشر لديهم الاحتياج نفسه إلى النمو والتطور وتحقيق الأهداف وأنه بمعاملتهم ككائنات بشرية ذكية، وبتقديم إمكانيات تحقيق إنجازات، استطاع تغيير مواقفهم الأساسية التى كانت سلبية تجاه الحياة.

فى الحقيقة، كان قد سبق «ماكدوجالد» إلى هذا الكشف بعشرين عاما دارس مجرى يدعى «ألفريد رينولدز»، وكان قد هاجر من المجر إلى إنجلترا عام ١٩٣٠. وعمل بالمخابرات العسكرية الإنجليزية أثناء الحرب العالمية الثانية، وفى عام ١٩٤٥، اسندت إليه مهمة تكاد أن تكون مستحيلة وهى استئصال الأفكار النازية من أذهان الضباط النازيين الألمان الذين وقعوا أسرى حرب لدى الحلفاء.

وصف «رينولد» كيف دخل إليهم فى قاعة أعدت لذلك لأول مرة، وكيف ساد جو من العداء البارد ومحاولة متعمدة لقطع التواصل بينهم وبينه. تطلعوا إليه فى برود، متأهبين ـ مثل قط «برونر» ـ «لقطع» أى شىء يقوله ولمنعه من الوصول إلى ما هو أبعد من طبلة الأذن. ولدهشتهم الشديدة لم يبدأ بأى مواعظ عن شرور النازية كما توقعوا. بدلاً من ذلك، طلب منهم أن يشرحوا ويفسروا له ما يفهمونه عن الاشتراكية القومية النازية. وبمجرد أن اقتنعوا أنه يريد أن يفهم بالفعل، بدأوا فى الحديث. استمع إليهم باهتمام حقيقى، وسألهم حين كان يعن له سؤال، ثم أظهر رأيه فى وجود بعض التناقضات فى المفاهيم، وخلال بضعة أيام، لم يعد بينهم من يؤمن بأية أفكار نازية.

كان كل ما فعله فى الحقيقة، أنه جعلهم يدركون أن كل الأديان والمفاهيم العقائدية السياسية تمنع الناس من التفكير بأنفسهم. لم يوجه أى نقد لـ «هتلر» وتركهم يشرحون مبادئ «هتلر» السياسية حتى أشرق فى عقولهم أنهم لم يكونوا بحاجة لابتلاع أفكار شخص آخر، وأن بإمكانهم أن يكونوا أفكارهم بأنفسهم. لقد تمكن من نزع الأفكار النازية بجلسات من النقاش المفتوح، وتولت متعة المناقشة الحرة والفكر المفتوح باقى المهمة.

اكتشف «رينولدز» أن إعادة تأهيل البشر فكرياً وذهنياً لا تعتمد بأى حال

على نوعية ونمط التوجيه ـ إن كان دينى أو أخلاقى أو سياسى أو أى نوع آخر ـ بقدر ما تعتمد على دفع الناس لاستعمال عقولهم، وإدراكهم أن لهم عقول. إن عنف المجرمين ينبع من إدراكهم أنه لا توجد وسيلة أخرى لتحقيق غاياتهم، وهو يفشل فى تحقيق أهدافه فى الحقيقة، لأنه يمضى قدماً بافتراض سلبى خاطئ من أن تلك الأهداف لا يمكن تحقيقها، وكما رأينا، فإن مثل تلك التركيبة الفكرية لابد أن ينتج عنها «تنويم». وفى اللحظة التى يبدأ فيها بوضع افتراضات إيجابية، تبدأ «ذاته المسيطرة» فى الاستيقاظ وتولى القيادة والتوجيه. والإحساس بالذات المسيطرة هو نفسه الإحساس بالنفس، بالـ«نافشا».

لقد توصل «ماسلو» وعلماء آخرون إلي أنه يمكن شفاء مدمنى الكحول بخلق حالة مماثلة لتجرع كميات من الكحول ولكن عن طريق العقاقير النفسية مثل عقار إل. إس. دى. وكان أول من طرح اقتراح استعمال إل. إس. دى لمعالجة إدمان الكحول الطبيبان «إبرام هوفر»، و«همفرى أوزموند». ارتكزت فكرتهم على تعريض المدمن لتجربة مرعبة وذلك بإدخاله فى حالة من الهذيان الارتعاشى الناجم عن الإفراط فى الشراب ولكن باستعمال العقاقير النفسية. وتحقق بالفعل شفاء بعض المدمنين بعدما وصلوا تحت تأثير تلك العقاقير إلى «نطح قاع الصخر»، أى إلى أقصى ما يكن الوصول إليه، واكتشف الطبيبان أن المرور بتجربة إل. إس. دى ناجحة من الممكن أن تنجز ما هو أكثر من الغرض الذى استخدمت من أجله.

فعقار إل. إس. دى، مثله مثل عقار المسكالين يحدث حالة «تحول للواقع»؛ كما يحدث تغيراً فى الرؤى والأصوات والروائح، وتتحول جميع الحواس إلى حالة مرهفة شديدة الحساسية. واكتشف «هوفر» و«أوزموند» أن المريض الذى يمر برؤى دينية أو روحية تحت تأثير العقار، أكثر قابلية للشفاء من المريض الذى يمر بتجارب شعورية سيئة بتأثير العقار، وقد أفادت تلك الملاحظات «ماسلو» عندما قام بتجاربه. كان يعلم أن مدمنى الكحول ذوى ملامح وصفات نفسية تتسم بالحساسية المفرطة وأذكياء ومرهفى المشاعر، ولذلك يصيبهم الاكتئاب حين تواجههم مصاعب أو عراقيل فيلجأون إلى الإفراط فى الشراب هربا من

قسوة تلك المشاعر . فى البداية ، يشعرهم الشراب أنهم فى «قمة» من التآلف مع الوجود مع اختفاء التوتر ، ولكن غالباً ما يلى ذلك اكتئاب أشد ، يؤدى إلى مزيد من الشراب ، وتبدأ الدائرة السلبية مع مزيد من التعقيد تضيفه مشاعر الإحساس بالذنب وفقدان الحول والقوة .

سأل «ماسلو» مرضاه عن أنواع التجارب الجمالية التى كانوا يستمتعون بها قبل أن يصبحوا مدمنى كحول وإن كانت تلك التجارب موسيقية ، أم شعرية أم فنية مثل الرسم وسجل كل الإجاباب . وتحت تأثير المسكالين أو إل . إس . دى حقق لكل واحد منهم تجربة الوصول إلى «القمة» باستعمال تلك الوسائل الموسيقية والشعرية واللونية على شاشة عرض . وحقق ذلك الأسلوب الجديد نتائج مذهلة وشفى عدد كبير من المدمنين . كان السبب الظاهر ، أن المريض حين ينتابه إحساس عميق بالسعادة والتواءم مع النفس فإن ذلك يوقظ آماله وتوقعاته الإيجابية عن الحياة ويتبين له أثناء المرور بالتجربة أن بإمكانه تحقيق تلك الآمال لو ظل سليماً وذو عزيمة ، كما يتحقق من أن الإغراق فى الشراب لتحقيق حالة «القمة» ليس إلا اتجاهاً مضاداً . وبذلك تتمكن «الذات» من استعادة السيطرة ويكف عن تعاطى الكحوليات .

فى الحقيقة لم يكن ما يفعله «ماسلو» يزيد عما فعله «ماكدوجالد» و«رينولدز» لإيقاظ الذات المسيطرة ولكن بأساليب مختلفة .

أهم ما سنتخلصه من كل الوسائل التى تباينت لإيقاظ «الذات المسيطرة» هو أنها تصدق على كل فرد ، لا على المجرمين ومدمنى الكحول وحدهم . فالبشر يمضون أغلب عمرهم وهم فى حالة أقرب إلى التنويم منغمسين داخل ذواتهم ومنفصلين عن الواقع ، فى حالة من الملل أو افتقاد الهدف . أى أن رؤية «ماكدوجالد» و«رينولدز» و«ماسلو» قابلية للتطبيق على مديرى الشركات كما هى قابلة للتطبيق على أعتى المجرمين .

لقد أدرك ذلك «ويرنر إيرهارد» ، مكتشف أسلوب العلاج العقارى النفسى الذى عرف باسم «إست ـ Est» . ووصف الكاتب «و . و . بارتلى» فى عرضه لسيرة «إيرهارد» جوهر ذلك الأسلوب الذى يهدف إلى التوصل إلى

«الشخصية الحقيقية». كان فكر «إيرهارد» منصباً على مفهوم الذات وأن الذات قادرة على تحمل مسئولية حياة الفرد. وهو يرى أن البشر ليسوا «مخلوقات بالمصادفة» وأن البشر لا يشعرون بذلك إلا وهم فى حالة سقوط وتردى. وجوهر ذلك السقوط هو الوهم الذى يشعرهم بأنهم ليسوا إلا نتاج أنشطتهم العقلية والانفعالية تماماً مثلما تنتج الحرارة عن اللهب والنار.

وتوصل طبيب أمريكى آخر بارز يدعى «هوارد ميللر» - سنتحدث عنه فيما بعد إلى الملاحظات نفسها، وأن «جوهر الذات البشرية» يفشل فى الإحاطة بطبيعتها؛ ويظل جوهر الذات هاجعاً فى سلبية فى أحد أركان العقل والوعى. يراقب حالة البدن الفيزيقية والانفعالية كما لو كانت خارج إطار السيطرة مثل الطقس. وفى اللحظة التى تقع فيها أزمة أو كارثة تهدد وجود الذات تستيقظ تحت تأثير الصدمة وتسارع إلى تبوأ مكانها الصحيح الذى تدير منه الوعى وتوجهه. ويمكن مقارنة ذلك بقبطان سفينة أصابته حالة من فقدان الذاكرة، يجلس فى قمرة القيادة محملقاً فيما حوله خارج السفينة وتصيبه الدهشة والتعجب عن أسباب إبحار السفينة فى دوائر. والسبب بالطبع، هو أنه لا يوجد قائد يوجهها من قمرة القيادة.

* * *

لنحاول الآن، استخلاص نتائج ما عرضناه.

الجريمة نتاج مواقف ذهنية سلبية. والمواقف السليبة ترجع إلى الاختيارية فى آليات الإدراك، فالرجل الذى صدر عفو عنه فى آخر لحظة بعد أن كانت البنادق مصوبة إلى رأسه وصدره لإعدامه سيشعر أن جميع ملكاته متفتحة على الوجود بشراهة مثل النوافذ المفتوحة لآخرها لاستيعاب أقصى طاقة ضوء، ويلاحظ كل شىء حتى أتفه الأشياء من حوله، وكل تافه سيدهشه كشىء جميل رائع ومثير. فعل ذلك رجل العصابات الأمريكى ومرتكب عديد من جرائم القتل «تشارلى برجر» وهو واقف على منصة الإعدام عام ١٩٢٧، نظر إلى السماء بيأس قبل لحظات من إعدامه وقال: «إنه عالم يموج بالجمال، أليس كذلك؟» ولكنه كان قد لاحظ ذلك بعد فوات الأوان. كان يجب أن يلاحظ ذلك فى

وقت مبكر، ولو فعل كان سيظل حياً، ويظل عدد من قتلاه أحياءً أيضاً.

بمجرد أن يغلق الإنسان ذهنه إرادياً عن الواقع والوجود مثل جمال وروعة زرقة السماء - أى ظل مرتبطاً بالواقع الخارجي بخيط واه وهي حالة تشكل خطراً فائقاً - والخيط الواهي الذى يربطه بالواقع هو طلباته الملحة العاجلة وأغراضه الآنية. فالغريب وغير المفهوم كما يبدو، أنه يحيا في كهف داخل رأسه، والكهف مليىء بعدد هائل من الأدراج المكتظة بكم لا نهائى من الصور عن العالم الخارجى، كما أن جدران الكهف مغطاة «بخرائط عن الواقع» - والخرائط عبارة عن مجموعات من الأفكار عن كيفية التعامل مع الأحياء والحياة، المتدينون يعلقون خرائط دينية على جدارن كهفهم، والسياسيون يعلقون خرائط سياسية، وعلماء النفس يعلقون خرائط نفسية.

والناس العاديون لديهم خرائط استمدوها من أبويهم فى الغالب، ومن الشخصيات التى يعجبون بها، وأيضاً من تجاربهم الشخصية وخبراتهم المكتسبة والنوع الأخير من الخرائط أقلها أهمية.

وحين يواجه أى منهم موقفاً جديداً، يهرع إلى درج فى عقله مكتظ بالصور القديمة ويحملق بسرعة فى خرائطه ثم يستجيب للموقف بما «يتلائم» معه.

إن الصور التى ينتقيها هى الصور التى تتشابه مع الموقف الذى يواجهه أو الأقرب إليها شبهاً، فإذا قدمه أحد إلى شخص لم يره قبل ذلك وكان ذلك الشخص يتميز بوجه فى استدارة القمر ويرتدى حلة رمادية ويشى كلامه بأنه أجنبى، فإن الذاكرة تبدأ فوراً فى فر صور مختلف الشخصيات الأجنبية التى صادفتها قبل ذلك، كما تفر صور مختلف الرجال الذين كان لهم وجه مستدير، الذين كانوا يرتدون حللاً رمادية وكان لهم لكنة أجنبية، إن وجد أن كل الشخصيات التى فى ذاكرته وتنطبق عليهم تلك المواصفات كانوا مقبولين، سيشعر بنفسه مهيئاً لقبول تلك الشخصية الجديدة استنادا إلى خلاصة الذكريات القديمة، فى الوقت الذى يؤمن فيه أنه يكون أحكامه على من يتعرف عليهم من البشر بطريقة تتسم بالموضوعية المستمدة من الملاحظات الفورية الحاضرة، وبينما يهز يد مصافحه فى حرارة، يبتسم الغريب، فتظهر له

سن ذهبية، فتستدعي الذاكرة على الفور أحد الجيران الذى كان له سن ذهبية وضبطه ذات يوم وهو يسرق ثمار التفاح من شجرته؛ وفى الحال، تجتاحه مشاعر من عدم القبول لذلك الغريب، إلا أنه لا يستطيع تفسير ذلك الشعور الذى حل عليه فجأة.

لقد تطورت كل تلك الآليات المعقدة عبر ملايين السنين. ومن السهل أن نتبين أن أغلبنا مغلوب بآليات العادة، ونشبه في ذلك إلى حد بعيد الديناصورات التى كانت ذات أبدان عملاقة هائلة الحجم مما كان يكفلها طاقة هائلة لتحريك ذلك البدن، بالنسبة للبشر فإن ما تضخم هو «الروبوت» أو «آلية التعود» التى أصبحت عملاقاً متضخماً داخلنا وعلى درجة هائلة من التعقيد حتى إنه يقوم بأغلب الوظائف بدلاً من العقل الواعي أى بلا تفكير. إن الإنسان العادى صاحب «آلية التعود» يشبه إلى حد كبير فأراً يحيا فى طاحونة هوائية. وكلما تقدم بنا العمر، تصبح تلك الآليات أكثر صدءاً وأشد إجهادا. نشعر بخفوت تدريجي في ومضات الحرية التى كانت تنتابنا ـ ومضات المتعة الفائقة والسعادة والرضى والاتساق مع الوجود والتى تجعل المرء يشعر أن الحياة تستحق أن يحياها.

وكان ذلك ما دفع «جارديف» إلى القول: «كثير من البشر يموتون قبل وقت طويل من موتهم الفيزيقي والجسدى، يموتون وهم أحياء يتنفسون». إنهم يظلون يستجيبون للمؤثرات الخارجية والحث الخارجى، مثله مثل طاحونة الهواء الهائلة المقرقعة، والتى لا يسكنها إلا فأر ميت.

على ضوء ما ذكرناه، قد يبدو أن مستقبل الجنس البشرى على المدى البعيد غير مبشر ولا يدعو للتفاؤل. إلا أن المقارنة بالديناصورات قد تكون خادعة. فالمشكلة ليست مشكلة تطور البشر على المدى البعيد ولكن المشكلة الحقيقية فيما يقع للفرد من البشر أثناء حياته. يحدد «ووردزوورث» ذلك بقوله: «يرى الأطفال كل الأشياء مبهجة على ضوء السماء المبهر، ومع اقتراب النضج يجدون «ظلال معتقل الحياة تبدأ فى الازدياد والاقتراب». واتضح أن ذلك لا يشكل حتمية كما اعتقد «ووردزوورث»، وأن ذلك لا يحدث إلا فى حالة

«الإغلاق الخاطئ» لمسارات الوعى، وهى للأسف الأكثر شيوعاً.

ما هو ضرورى فى هذه المرحلة من تطور الجنس البشر، أن يدرك الفرد أنه هو المسئول عن وعيه، وأنه إن كان يغلق عقله ووعيه بطريقة لا إرادية فى وجه معارف مهمة وبيانات حيوية، فإن عليه أن يستخدم ذكاءه لفتح عقله ووعيه بطريقة إرادية حتى لا ينفصل عن الواقع.

ما الذى يحول غالباً دون ذلك الإدراك؟ قد نجد الإجابة فى الفقرة التالية المقتبسة من كتاب يحمل عنوان «حقائق مثيرة»:

«قامت ربة منزل من مدينة «واترلو»، بولاية «إيوا» وتدعى «مارفا درو» بكتابة الأرقام من واحد حتى مليون، لأن ابنها عاد ذات يوم من المدرسة وأخبرها أن مدرس الفصل أخبرهم أنه من المستحيل أن يعد أحد الأرقام من واحد حتى مليون. واستغرق كتابة الأرقام خمسة أعوام، واستخدمت ٢٤٧٣ ورقة لكتابة الأرقام».

الوقت الذى أضاعته تلك السيدة فى كتابة الأرقام يجلعنا نحبس أنفاسنا. هل من الممكن أن يحدث أو يقع شىء كئيب، وبلا جدوى، وتكرارى أكثر عن ذلك؟ وهل يمكن تخيل تلك العبثية؟

ما الذى يمكن أن يدفع أى كائن بشرى أن يقوم بعمل لا طائل من ورائه مثل ذلك العمل؟

الإجابة بسيطة للغاية.

فمدرس فى مدرسة - وهو رمز للسلطة - أخبر ابنها أن هذا مستحيل فقررت فى تلك اللحظة أن تثبت لابنها ولنفسها أنها تعرف أفضل مما تعرفه السلطة وأهدرت خمسة أعوام من عمرها لإثبات ذلك.

قد نجد أن موقفها الفعلى مماثل لموقف «بنزرام» - وهو تحدى السلطة - وأن تلك الأفعال تتسم بانعدام المنطق وهى السمة المميزة للجريمة. وأن ذلك الفعل لا يختلف أيضاً عما فعله البروفيسور الذى ذهب لتغيير ربطة عنقه فنام على سريره واستغرق فى النوم بدلاً من العودة لاستقبال ضيوفه. هناك عنصر آخر له

صفة التنويم. فلو كان لدى السيدة التى كتبت الأرقام من واحد حتى مليون فى خمسة أعوام أى قدر من المعقولية المتسقة مع الواقع فإنها كانت سترد على ابنها قائلة: «ولكن مدرسى المدارس غير معصومين من الخطأ»، وكانت بتلك الإجابة قد وفرت من عمرها خمسة أعوام، وهى مدة مماثلة لعقوبة السجن. ولكن حتى تحقق ذلك فإن عليها أن تغير موقفها العقلى والذهنى - ليس فقط تجاه السلطة ممثلة فى مدرس المدرسة، ولكن تجاه نفسها أولاً. لقد كيفها المجتمع وقولبها فى تبنى وجهة نظر معينة تجاه السلطة - أى سلطة - وبالتالى تجاه نفسها.

لقد حقق البشر وضعهم الحالى كـ «سادة المخلوقات» لأنهم أكثر الحيوانات اجتماعية على الأرض. ولكن لأنهم حيوانات اجتماعية، فإنهم يظلون متطلعين إلى الآخرين من البشر ليستمدوا منهم إشارة بدأ أى فعل يفعلونه - سلبا أو إيجاباً - وعلى ذلك فإن المفتاح إلى الجريمة يكمن فى تاريخ البشر كوجود اجتماعى.


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

كيف تطور الإنسان

يعد النصين التاليين مثالاً على سادية البشر، أحدهما حقيقي كما حدث في الواقع، والثاني تخيلي من إبداع كاتب:

« نمنا تلك الليلة، وكانت جائزتنا قبل النوم ما فعله «إنقر» باشا، فعندما استرد الأتراك مدينة «شاركيوى»، ذهب «إنقر» باشا لتفقدها على متن سفينة بخارية، وكان بصحبته الأمير «جميل» وحاشية ضخمة. كان البلغار حين استولوا على المدينة قد أقاموا مذابح للأتراك.، ولما انسحبوا واسترد الأتراك المدينة هرب منها كل المزارعين البلغار، ولم يجد الأتراك أى من البلغار لينتقموا منهم إلا بصعوبة بالغة.

أمسكوا برجل بلغارى وخط المشيب لحيته واقتادوه إلى متن السفينة ليمثل بين يدى القائد ليشفى غليله بنفسه، وبعد أن مل «إنقر» باشا من تعذيبه. أشار إشارة خاصة إلى اثنين من مساعديه المقربين، فهما مغزاها وقاما بفتح باب فرن مرجل السفينة، ثم أمرهم «القوه فى الفرن»، صرخ الرجل العجوز وقاوم، إلا أن الضباط كانوا أقوى منه بالطبع، فحملوه وقذفوه داخل الفرن وأغلقوا بابه. استدرنا لنمضى ونحن نشعر بالغثيان، إلا أن «إنقر» باشا ظل فى مكانه ورأسه يميل باتجاه الفرن كأنه يصيخ السمع فى انتظار شيء ما، انتظرنا نتنصت مثله. وفجأة دوى صوت مثل الفرقعة من داخل الفرن. ابتسم «إنقر» باشا وهز رأسه فى حبور قائلاً: «دائماً ما تنفجر رءوسهم عند حرقهم بمثل هذا الصوت».

أما النص الثانى فهو كما يلى:

«فى تلك الليلة، بعد جولة سريعة من اللواط مع القديس «ولهان»، عدت إلى شقتى إلا أن النوم جافانى: كنت مثاراً جداً من تأثير كلمات «كليرويل» وأفعاله الجامحة، كان علىّ أن أرتكب جريمة بنفسى.

ارتجف قلبى بعنف ووحشية تحت وطأة الأفكار الشريرة التى تمور داخلى. نهضت من السرير وذهبت إلى جناح الخدم واستوليت على ملابس كبير الخدم ومسدس أحد الحراس، وبعد أن اكتسبت هيئة رجل رفيع المستوى [القصة على لسان امرأة] خرجت إلى ظلمة الطريق.

عند أول تقاطع تواريت فى مدخل بناية وانتظرت أول عابر للطريق. كان تخيلى للجريمة التى أوشك على ارتكابها يثير فى بدنى ارتجافة إثارة ورعشة ولذة لم أشعر بها فى حياتى. غمر العرق بدنى واهتاج داخلى فى نشوة واضطراب مثل تلك التى يشعر بها المقبل على ممارسة الجنس، كانت إثارة جوهرية عميقة وبدائية وأولية شحذت كل حواسى وحولتها إلى حد نصل قاطع. كنت ملتهباً [مازال النص عن لسان أنثى]، الآن أصبح بدنى متحرقا لضحية.

فجأة، واستجابة لصلوات شيطانى، سمعت أنيناً، صوت امرأة. ناعم. خفيض، ينوح بأسى عميق، أسرعت الخطى إلى مصدر الصوت. وجدت

مخلوقة تعسة بائسة، هشة المنظر، متهالكة على عتبة أحد الأبواب. اقتربت منها متسائلة: «من أنت؟»

ردت: «واحدة لعنها القدر؛ لو كنت نذير الموت، فأهلاً بك وسأحتضنك في سعادة»، سألتها: «ما مشكلتك». لاحظت بالرغم من حزنها الجارف أنها مخلوقة ودودة.

ردت قائلة: «سجن زوجي، وأولادي يتضورون جوعاً، وهذا المنزل الذي أجلس على عتبته، هو المنزل الذي كان في وقت ما ملكاً لي، انتزعوه مني».

كانت الحرارة الجنسية تمور وتفور داخلي حتى وصلت إلى درجة لا تحتمل صحت بابتهاج: «بحق النكاح». انهضي، ودعيني أضع مواهبك موضع الاختبار» حين قلت ذلك، قبضت على شعرها ورفعتها منهضة إياها على قدميها، لففت ذراعي حول خصرها ودفعت عجيزتها للأمام وبيدي الأخرى دفعت فوهة المسدس في فرجها. قلت بنعومة: «الوداع أيتها الساقطة»، «إليك هذه المضاجعة التي لن تنسيها أبداً» في نفس اللحظة ضغطت زناد المسدس، وأرسلتها تدور حول نفسها إلى الجحيم الأبدي».

المقتطف الأول من كتاب «لورانس»، «أعمدة الحكمة السبعة»، والمقتطف الثاني من رواية «دي ساد»، «چولييت» (والنص المقتطف مختصر قليلاً، لأن «دي ساد» يستمتع بالإطالة في سرد تضرعات النساء طلباً للرحمة)، وهي واحدة من أخف تخيلات «دي ساد». الفرق بين نوعي القسوة يتضح فور قراءة النصين.

فـ«دي ساد» يقدم لنا بطلة قصته «چولييت» التي تشعر بإثارة جنسية حادة وعميقة بمجرد أن تمر بخاطرها فكرة ارتكاب جريمة قتل. ومن المشكوك فيه إن كان «إنڤر» باشا قد مر بتجارب على الإطلاق باستثناء تلك المتعة الوحشية. إن قسوة «إنڤر» ليست إلا أحد ألوان الغباء، تنبع من قصور هائل في التخيل والخيال. أما قسوة «دي ساد» فهي نتاج وعي كامل؛ بل إنها في الحقيقة نتاج خيال أكثر من اللازم، نتج عن أعوام قضاها في الحبس بلا شيء يمكن فعله إلا الاستغراق في أحلام اليقظة المثيرة جنسياً. إلا أن جوهر السادية في كلتا

الحالتين ليس إلا «تضخم الذات». فالسادى يستمد من أفعاله الشعور بالقوة نفسه الذى يشعر به «الرجل الصائب» حين يشق طريقه فى الحياة بالصياح والاستئساد والتنمر. وهذا بوضوح هو جوهر الجريمة: امتصاص الوعى داخل الذات ونقص الخيال. فالطائش الذى يهاجم سيدة عجوز غدراً من ظهرها، أو يقوم بتحطيم هاتف عمومى، ممتص تماماً داخل احتياجاته الشخصية كالطفل الذى يصرخ من أجل الطعام.

لقد أوضح «فرويد» رؤيته الخاصة عن الإجرام حين قال: «الطفل بإمكانه أن يحطم العالم إذا توفرت له القوة الكافية لفعل ذلك».

فى عام ١٩٦١، بدأ عالما نفس هما «صمويل يوكلسون» و«ستانتون سامنو» فى دراسة لعقلية ونفسية المجرمين فى مستشفى سانت اليزابيث فى نيويورك، كان الافتراض الذى سعيا لإثبات صحته هو أن البشر يتحولون إلى الإجرام بسبب «متاعب نفسية عميقة»، واكتسبا شهرة عريضة بين المرضى لأنهما تبنيا موقفاً متساهلاً وغير متشدد ومتعاطف مع مرضاهم. آمنا أن أغلب المجرمين أصبحوا كذلك نتيجة لظروف بيئية واجتماعية تتسم بالفقر أو أنهم صادفوا مشاكل فى مقتبل أعمارهم، وأنه يمكن «شفائهم» ببصيرة كافية وتفهم جيد. وبمرور الزمن أفاقا من ذلك الخيال. فقد لاحظا أنه بعيدا عن عمق «البصيرة» وكفايتها التى رأوا من خلالهما سلوك قاتل أو مغتصب لأنثى أو لائط أطفال، فإن ذلك لم يغير كثيراً من سلوكهم الفعلى الواقعى؛ وبمجرد أن يغادر أى منهم عيادتهم الطبية، يذهب رأساً إلى ممارسة نشاطه الإجرامى الذى يتصف به. إنه لم «يرد» أن يتغير. وأزداد شكهما فى القصص التى يرويها المجرمون لتبرير أفعالهم. واكتشفا أنهم مهرة بشكل مذهل فى تبرير الذات، كما أنهم يخفون ببراعة الجوانب التى قد تفقدهم تعاطف المستمع. كانت المشكلة تكمن فى شخصية المجرم لا فى ظروفه التى تعرض لها. فهو يكذب بنفس الآلية التى يتنفس بها. ولديه رغبة قوية لخلق انطباع معين يستحوذ به على تعاطف الآخرين. إنهم كما ذكر عنهم «داڤيد رايسمان» «موجهين للآخرين» وأن جانبا كبيرا من نشاطهم الإجرامى ينبع من رغبتهم فى

الاستعراض، ورغبتهم أن «يبدون كباراً». وهم مهرة أيضاً في الكذب على أنفسهم. كانت ملاحظة «يوكلسون» المدهشة على وجه التخصيص أن أغلب المجرمين - مثلهم مثل قطة «برونر» المذكورة في الفصل السابق - قد طوروا واكتسبوا «آلية إغلاق نفسي»، أي قدرة على دفع الأفكار غير المقنعة لهم خارج إطار الوعي - حتى إنهم ينسون أنهم اعترفوا بسلوكيات إجرامية في جلسات سابقة. وهذ ايعني أن الإحساس بالمسئولية أيضاً من الممكن أن يحدث له «إغلاق». وباختصار، وجد أن السمات الرئيسية للمجرم كانت عبارة عن ضعف، وعدم نضج، وخداع ذات. أما حالة لائط الأطفال الذي أقلع عن ذلك. فقد لاحظ «يوكلسون» أن شفائه لم يكن عائداً إلى زرع بصيرة نفسية صحيحة، وأن السبب الحقيقي في إقلاعه عن ذلك أنه واجه اختيار توقيع عقوبة عليه أو الإقلاع عن ذلك السلوك. لقد أقلع بعد إدانته؛ أما أغلب المجرمين فإنهم يمضون في إجرامهم لأنهم لا يرون سبباً للإقلاع عن ممارساتهم.

هناك أيضاً علاقة ارتباطية مذهلة تتعلق بالجنس «فبلا استثناء تقريباً اتضح أن الخاضعين للدراسة إما متورطين في أنشطة جنسية في مراحل مبكرة من أعمارهم أو [مغنمسين] في تفكير جنسي أكثر من اللازم...»

فالمجرم «يتلصص من خلال فجوات الأبواب ويتطلع من ثقوب المفاتيح لكي يسترق نظرة على أمه، أو أخته أو أم صديقه وهي تغير ملابسها في غرفتها أو هي تستحم أو تستعمل دورة المياه».

أحد معتادي الإجرام بدأ في ارتكاب أفعال جنسية وهو في سن الرابعة مع ابنة جارتهم، وكانت تلك الجارة تصطحبه لتوصيله إلى المدرسة. بعد ذلك أصبح عضواً في عصابة اعتادت أن تجر الفتيات بالقوة إلى الممرات المظلمة والأماكن المقفرة واغتصابهن، وإذا لم تبد الفتاة أي اعتراض أو مقاومة. كانوا يتركونها تمضي دون اغتصابها؛ كان من الضروري لاكتمال المتعة أن يكون هناك صرخات استعطاف أو مقاومة عنيفة.

إن أغلب الأطفال يشعرون «بفضول» جنسي، أما المجرم فالجنس بالنسبة إليه نوع من الخوف والوسواس القهري الذي يضيق من مساحة وعيه ويحصرها في

نطاق اكتشاف المحظور وانتزاعه بعنف أو اختلاس الخصوصية. الجنس لديه يختلط بالعنف، وكذلك يختلط إجرامه بالجنس. أحد الجوانب المدهشة والمحيرة في أغلب حالات الاغتصاب ذلك الميل من ناحية المجرم لإلحاق أكبر قدر من الضر بالضحية، حتى لو كانت مستسلمة بلا مقاومة. والسبب في تلك الظاهرة أن الجنس في ذهن المجرم أحد أشكال الجريمة، كما أن الجريمة في ذهنه أيضاً أحد ألوان الجنس. ويظهر الاقتطاف الذى أوردنا من كتاب «دى ساد» ذلك الارتباط الذى يتضح من خلال الإثارة الجنسية الحادة التى شعرت بها «چولييت» وهى مقدمة على ارتكاب جريمتها. وتظهر ملاحظات «يوكلسون» أيضاً أن هناك مكوناً جنسياً فى كل جريمة؛ أى أن المجرم يرتكب عدواناً بذيئا ضد المجتمع.

وتجعلنا تلك الرؤية نقترب من جوهر الجريمة، فهى خليط من الأنانية. والطفولية، والجنس. بالطبع لا يوجد حيوان قادر على ارتكاب «جريمة»، هذا لأن الجنس عند الحيوان ليس إلا ممارسة طبيعية تتساوى مع تناول الطعام أو إخراج الفضلات وتظل عند هذا المستوى، فضلاً عن ذلك، لا تعد الحيوانات ناضجة إلا باكتمال نموها البدنى فقط. وبقدر ما توصلت إليه المدارك البشرية، فإن الحيوانات تفتقد الإحساس بالذاتية، وباستثناء الطمع، تفتقد الحيوانات المؤهلات الأساسية اللازمة لارتكاب جريمة.

هناك عوامل عديدة لابد من الإلمام بها عند تناول ظاهرة الجريمة المتفشية بين البشر. فنوعية الجريمة لم تكن ثابتة على مر العصور. كانت أبحاث «يوكلسون» و«سامنو» تدور حول الجريمة فى النصف الثانى من القرن العشرين. إلا أننا لابد أن نضع في الاعتبار ـ كما أشار هـ. ج. ويلز ذات مرة ـ أن العالم قد تغير خلال آخر مائة عام بمعدل يفوق التغير الذى وقع خلال الخمسة آلاف عام التى سبقتها. فحتى زمن قريب جداً ـ أى قبل قرن من الآن ـ كانت الحياة وأسباب المعيشة صعبة لدرجة لا يمكن تخيلها، ولم تزد نسبة المستثنين عن ١٪ من سكان الأرض. كانت الحياة معركة مستمرة ضد الموت جوعاً وضد قسوة المناخ (البرد القارس والحر اللافح) وضد اعتلال الصحة

وتفشي الأمراض والأوبئة. كانت الحياة قاسية كما بدت في كتاب «هنرى هازليت» الذى يحمل عنوان «غزو الفقر» (نيويورك ١٩٩٣)، يقول عن ذلك:

«كانت بيوت العالم القديم - عالم اليونان وروما - بغير مداخن، تدفء غرفها أثناء البرد القارس بإشعال الحطب والأخشاب على أرضية الغرف أو فى وعاء للنار يوضع فى منتصفها، فتمتلىء الغرف بالدخان، وتكسو جدرانها على مر الأيام سناج أسود كما تتراكم طبقات الهباب على كل محتوياتها أما الإضاءة فقد كانت تستمد من مصابيح زيتية تبعث الدخان أيضاً طول وقت إنارتها، فتحتقن العيون وتصيبها الأمراض وكذلك التنفس الذى يضيق من دخان النيران ومصابيح الإضاءة. كان السكان اليونانيون يحيون بلا تدفئة فى الشتاء، وبدون وسائل صرف صحى، وبغير وسائل ملائمة للاستحمام. بعد ذلك بألفين من الأعوام كانت الحياة ماتزال على نفس الدرجة من السوء: «كانت مساكن العمال فى القرون الوسطى عبارة عن زرائب وأكواخ، وحوائطها مصنوعة من ألواح مشدودة إلى بعضها وتسد فجواتها بأوراق الأشجار، وكانت سيقان نبات السمار وأوراق الأشجار وتراب الأرض تستخدم معاً لعمل الأسقف. وكانت تلك المساكن مكونة فى الغالب من غرفة واحدة، ونادراً غرفتان، جدرانها غير مجصصة وأرضها كذلك وأحياناً بلا سقف ولا مدخنة مدفئة ولا سرير، وفى ذلك المسكن يحيا صاحبه مع عائلته وحيواناته وفيه يموت. لم يكن هناك صرف صحى إلا الصرف السطحى إلى الممرات والطرق بين الأكواخ. لا توجد مياه غير تلك التى تؤخذ من المضخة العمومية. مع غياب أى معرفة أو إدراك بأبسط القواعد الصحية...» (من كتاب إ. بارملى برنتيس «الجوع والتاريخ») ومرة إثر أخرى كانت تقع مجاعات مرعبة، ففى روما عام ٤٣٦ ق. م بلغت المجاعة حداً سيئاً دفع آلاف الجوعى إلى إلقاء أنفسهم فى نهر التيبر؛ وفى القرنين الحادى عشر والثانى عشر، كانت تقع فى إنجلترا مجاعة شديدة كل أربعة عشر عاماً على وجه التقريب، فى واحدة من تلك المجاعات لقى عشرون ألف شخص مصرعهم جوعاً فى «لندن» وحدها.

وفى حياتنا المرفهة المريحة فى القرن العشرين، نسينا كيف كان يعيش

أسلافنا على مدى آلاف بعد آلاف من السنين. بالطبع كانت هناك جرائم في تلك القرون الصعبة، إلا أنها كانت جرائم احتياج وعوز وتختلف تماماً عن الجرائم التي وصفها «يوكلسون» و«سامنو»، جرائم المجتمع المرفه. أما فلاح القرون الوسطى، فلم يكن لديه اختيار؛ بل إنه لم يكن بإمكانه مغادرة قريته دون إذن من صاحب الضيعة أو مالك الأرض التي يعمل بها. وبالمقارنة، نجد أن الفرد في عصورنا الحديثة - حتى أفقر متشرد - لديه آلاف الاختيارات. جوهر الجريمة كما ذكرنا هو اختيار «الوسائل الأسهل». لقد لاحظ «يوكلسون» و«سامنو» أن أحد السمات الرئيسية للمجرم الرغبة في «تحقيق نجاح سريع». واستشهدا في هذا الصدد بحالة جندي أمريكي شارك في حرب كوريا ونال أوسمة عديدة لشجاعته أثناء المعارك، بعد عودته وتركه خدمة الجيش ألقت الشرطة القبض عليه أثناء قيامه بالسطو على محطة وقود سيارات. وعالجت وسائل الإعلام تلك الجريمة كقصة لبطل حرب وجد الحياة المدنية سيئة وصعبة. أما الحقيقة فهي أن ذلك الرجل اعتاد أن يكون ناجحاً أثناء القتال وموضع إعجاب الآخرين من جنود وقادة، وبعد عودته وجد أن حياة المدينة محبطة لم يشعر فيها بتحقيق الذات، فقرر أن يستفيد من قدراته وتدريبه الحربي في السطو. ويبدو هنا وكأنه اختار «الوسيلة الأسهل». كان قراره نموذجاً لقصر نظر مجرم، أي نموذجاً للحكم السيىء على الأمور.

ويلفت «يوكلسون» و«سامنو» أنظارنا إلى أن نماذج الإجرام تتغير من عصر إلى عصر، وأن الحديث عن «الطبيعة البشرية» ليس إلا نوعاً من التهور وانعدام الإدراك، إذا لم نخصص عن أي فترة من تاريخ البشر نتحدث. إن عبارة «إنك لا تستطيع أن تغير من الطبيعة البشرية» ليست إلا مثالاً على الزيف. فالطبيعة البشرية بدأت في التغير بالفعل من نصف مليون سنة مضت حين بدأ مخ الإنسان - لأسباب غير معلومة - في التمدد والنمو لما هو أكثر من احتياجاته. وظل يتغير منذ ذلك الوقت. حتى عبارة «إن الحرب قديمة قدم البشر»، أثبت المؤرخ «لويس ممفورد» عدم صحتها. لقد أثبت في كتابه «المدينة والتاريخ» أن الحروب لم تبدأ إلا بعد أن اجتمع الناس للعيش في تجمعات كبيرة هي المدن - حوالي ٥٠٠٠ ق. م - حين بدأ الإنسان البدائي يكون جماعات للإغارة على

جماعات أخرى، ولم تكن الإغارة بهدف قتل الآخرين وحرق مساكنهم، بل كانت لأسر بعض منهم والتضحية بهم لآلهتهم التى كانوا يقدمون لها أضاحى بشرية لنيل رضاها.

وتمضى نظرية ممفورد وآرائه حول سقوط البشر وانغماسهم في الحروب والجرائم في ذلك الإطار. فحين تحول البشر القدامى إلى مزارعين - من حوالى ١٢٠٠٠ عام مضت - أدركوا أكثر من أى وقت سابق مدى اعتمادهم على الأرض وغلاتها. حتى حين كان البشر يعيشون على الصيد في العصر الحجرى، كان لهم آلهة وأرواح للطبيعة، وكان شامانهم (الساحر الطبيب) يقوم بأداء طقوسه السحرية قبل انطلاقهم للصيد. أما بعد استقرارهم لزراعة الأرض وحصد محاصيلها، فقد بدأوا يتعاملون مع الأرض وكأنها هى الأخرى وجود حى وأم عظمى. وتحول الشامان إلى كاهن، كما تحول مكان الطوطم البدائى ليصبح مكان عبادة ومركزاً لحياة القرية. وكانوا يختارون الملك لا كقائد، بل كوسيط بين البشر والآلهة - كما يختار البابا اليوم. وإذا تلفت المحاصيل أو قل الحصاد، يضحون بالملك لإرضاء الآلهة (هذا الجزء من عرض «ممفورد» يعتمد على ما أورده «فريزر» فى كتابه الشهير «الغصن الذهبى»).

فى تلك المرحلة من مراحل التطور كانت توجد التجمعات الصغرى أو القرى الصغيرة ببيوتها الطينية وأنصبتها الدينية المحلية وشامانها (الطبيب - الساحر)؛ كما كانت توجد القرية المتضخمة أو ما يمكن تسميته مدينة صغيرة والتى كانت نواة لأول مدن في الوجود كما يعتقد «ممفورد»، والتى كانت أيضاً بداية «السقوط» البشرى طبقاً لنظريته. فـ«بمجرد ظهور المدينة إلى الوجود مع ما صاحب ذلك من تجمع مظاهر القوة فى جميع المجالات، تحول موقف التجمعات البشرية تحولاً درامياً. فبدلاً من الإغارات والهجمات المفاجئة البسيطة لأسر ضحية واحدة، تحول الأمر إلى إبادة جماعية وتدمير شامل وبدأ ذلك الشكل يصبح الأكثر غلبة وتحول ما كان قبل ذلك طقساً سحرياً لضمان رضاء الآلهة وخصوبة الأرض وغزارة ووفرة المحاصيل، أى القيام بأعمال غير منطقية للحصول على نتائج منطقية، إلى استعراض للقوة من تجمع ما، تحت

رعاية إلهه وملكه الكاهن، للسيطرة، وإخضاع أو إبادة مجتمع آخر كلية...».

أما ما سهى «ممفورد» عن ذكره، أو غاب عن ذهنه، أن سبب تلك الحروب المبكرة لم يكن للحصول على ضحايا للتضحية الطقسية، بقدر ما كان من أجل امتلاك موضع أو موطن. فحتى صدور كتاب «ممفورد» «المدنية في التاريخ» (الذى نشر لأول مرة عام ١٩٦١). لم تكن أهمية أو مفهوم «الموضع» و«الموطن» قد اتضحت بمعناها الكامل بعد. ويرجع الفضل إلى «كونارد لورنز» و«روبرت أردرى» اللذان استطاعا أن يلفتا الأنظار إلى أن واحداً من أهم وأقوى الدوافع لدى كل الحيوانات (بما فيها البشر)، الاحتياج إلى الارتباط بمنطقة ومكان خاص بالفرد والأسرة والعائلة والقبيلة يزود عنه ويرد عنه المعتدين. وتبين أول التسجيلات البشرية المكتوبة فى مدينة سومر ـ فيما بين النهرين بالعراق حالياً ـ أن أول الحروب المسجلة كانت نزاعاً على حدود. ويظهر السجل أنها كانت مدينة تحتاج إلى أرض زراعية لإنتاج الطعام؛ وحين عبر أفراد مدينة أخرى مجاورة الحدود الفاصلة، وقعت الحرب. نادراً ما تلجأ الطيور والحيوانات إلى القتل دفاعاً عن منطقة أو موطن؛ فإذا حاول طائر أن يغزو شجرة يشغلها طائر آخر، فإن شاغل الشجرة يقوم بأداء استعراضي ينم عن الغضب، ويكفى ذلك عادة لإجلاء الدخيل. ربما كان ذلك هو ما يحدث أيضاً بين الأفراد من قدماء البشر. ولكن بمجرد أن اتسع نطاق الأرض «التابعة» للمدن وامتدت إلى مئات الأميال المربعة، أصبح من المحتم إخراج المقتحمين بقوة السلاح. وبذلك حول مولد المدن أعمال الحرب والقتل إلى أعمال لا يمكن تجنبها، فالنزاع على مساحات كبرى من الأرض لا يمكن حلها بإظهار الغضب أو مجرد قعقعة السلاح وصليل السيوف كمظهر من مظاهر الغضب كما تفعل الطيور. وبالرغم من أن نظرية «لورنز» و«أردرى» تنطوى على منطق، إلا أنه من الخطأ تصور أنه لمجرد أن أناساً ساروا باتجاه حرم مدينة مجاورة، تحول البشر فجأة ليصبحوا بلا رحمة وقساة. ففى الحقيقة، هناك أدلة تثبت أن القسوة والوحشية كانت تطوراً لاحقاً. هناك تسجيلات للحياة اليومية لتلك الحضارات المبكرة فى كل من مصر وبلاد ما بين النهرين، بدءاً من الرسومات الجدارية، حتى ظهور الكتابة فى عصور لاحقة (تنتمى أول كتابة مسجلة إلى مدينة سومر وتعود إلى

٣٥٠٠ ق. م). لا توجد صور تدل على القسوة وخشونة المعاملة بين صور الجداريات المصرية القديمة، كما عرف عن المصريين القدماء أنهم كانوا يعاملون أعداءهم المهزومين وأسراهم بكياسة وحفظ الاعتبار. كما كان الحسينيون من أفضل المقاتلين في الشرق القديم؛ وبالرغم من شهرتهم الحربية إلا أنهم كانوا إنسانيون إلى حد كبير.

أما «سارجون» الأكادى، أكبر عظماء بناة الإمبراطورية الأكادية ـ ٢٣٠٠ ق. م ـ فقد ترك سجلات تموج بالفخر سجل فيها انتصاراته وإنجازاته؛ إلا أنها تخلو من أى جملة تشي بالسادية أو الوحشية والقسوة التى ظهرت على أيدى الغزاة بعد ذلك. ويؤكد «صامويل نوح كرامر» فى كتابه «التاريخ بدأ فى سومر» (نيويورك، ١٩٥٩) أن النصوص السومرية تظهر أن تلك الشعوب كانت على درجة عالية من الأخلاقيات المثالية. وأول نص يشير إلى محاكمة قديمة مسجلة كان نصاً لمحاكمة على جريمة قتل فى سومر عام ١٨٥٠ ق. م، وذلك عندما قام ثلاثة رجال بقتل خادم معبد يدعى «ليو ـ إنانا»، ويقرر النص «أولئك الذين قتلوا نفساً لا يستحقون الحياة».

ما يجب أن نفهمه وندركه عن رجال تلك الحضارات المبكرة هو أنهم اعتبروا أنفسهم مكرسين لخدمة الآلهة. وظل الملك ذاته لا يعنى أكثر من كونه خادماً للآلهة. يذكر «وينوود ريد» فى الفصل الأول من كتابه «استشهاد البشر» عن فراعنة مصر الأوائل ما يلى:

«كان الفرعون ممنوعاً من القيام بأى فعل أو عمل يزيد عن الغرض من وجوده، كما كان محرماً عليه الإفراط فى أى شيء أو ارتكاب أى تجاوز: كان مقيداً بتناول طعام من لحوم العجول والأوز، وقدر محدد من الجعة وقوانين الآلهة معلقة فوق رأسه ليلاً ونهاراً؛ وتحكم تلك القوانين أفعاله وسلوكياته العامة والخاصة، وتتبعه حتى داخل حنايا جناحه الخاص، وتحدد له موعداً معينا يضاجع فيه الملكة لا يتجاوزه».

وهذا هو السبب فى أن تلك الحضارات المبكرة كانت رحيمة بأعدائها المهزومين، لقد كانوا محكومين بقوانين الآلهة التى علمتهم قداسة الروح

البشرية، عدا ذلك، تحتاج القسوة والوحشية إلى قدر كبير من الذاتية والأنانية، أما من كان يؤمن أنه ليس إلا خادماً للآلهة، فإنه يلغى فرديته وذاتيته تماماً، مثل فنانى القرون الوسطى بناة الكاتدرائيات العظمى.

بدأ التحول الكبير فى الألف الثانى قبل الميلاد، كف الملوك أن يكونوا مجرد صورة رمزية كخدم للآلهة. وبدأوا فى ممارسة القوة بلا كابح، وأصبح إظهار القسوة ضرورة بعد غزو مدينة لمدينة أخرى، وإن كان سارجون الأكادى على وجه التحديد رحيماً بأعدائه، فإن ذلك يفسر أيضاً لماذا كان عمر إمبراطوريته قصيراً؛ إذ تمردت مدن كثيرة عليه فى أواخر أيامه. ودفع ذلك الملوك الذين تلوه إلى إدراك أهمية أن يكونوا أكثر قسوة وحزماً وإرهاباً للآخرين. وبالرغم من أن قانون حمورابى - الذى وضع عام ١٨٠٠ ق. م - استمد شهرته من الإحساس المتوازن بالعدل الذى يبدو من فقراته، إلا أنه يبدو أكثر قسوة وتشدداً عند مقارنته بشذرات القوانين التى سبقته والتى بقى بعض نصوصها على الألواح الطينية الأقدم. فى أحد النصوص نجد أحد المسئولين التابعين للملك «زمرى - لين» ملك «ميرى» - وهو صديق لحمورابى - يكتب إليه معترضاً على رفض بعض القبائل الانضمام للجيش، ويقترح قطع رأس أحد المجرمين والطواف بها فى جميع أنحاء المملكة «حتى يخاف الجميع ويخضعوا ويمتثلوا ويستجيبوا أسرع».

بعد ذلك، اعتاد الملوك على إرسال جندهم وقطع رقاب المنشقين فى الساحات العامة، وطبقاً لهذه النظرية، فإن تحول البشر إلى العدوان كان أمرا لا مفر منه وحتمياً، وملخص النظرية أن البشر أصبحوا حيوانات اجتماعية أولاً، ثم حيوانات عقائدية، ثم تحولوا إلى الزراعة، ثم سكنى المدن، وأدى تجمعهم فى مدن إلى تعميق غريزة التخصيص المكانى والانتماء لموضع مما أدى به إلى ذبح وقتل بنى جنسه فى الحروب التى نشبت فى الصراع على المكان...

ولكن، مازالت هذه النظرية بعيدة عن الإجابة الشافية لذلك التساؤل الذى لم نتوصل إلى إجابته حتى الآن، ذلك التساؤل الذى طرحه «إريك فروم» وهو: لماذا يعد البشر المخلوقات الوحيدة التى تقتل وتعذب نفس نوع جنسهم. لو

تعارك حيوانان، وأحس أحدهما أنه أضعف من خصمه وأراد إظهار استسلامه، فكل ما عليه أن يفعله أن ينقلب على ظهره مظهراً بطنه أمام خصمه دلالة على استسلامه، ويجد الأقوى أنه لم تعد هناك ضرورة ولا دافع لمواصلة الهجوم ويترك المهزوم وينصرف.

البشر هم المخلوقات الوحيدة التي تنقصها تلك الآلية الداخلية.

إحدى محاولات تفسير هذا الشذوذ قام بها عالم الأنثروبولوجي «أوسكار كيث ميرث»، وعرضها في كتابه «البداية كانت النهاية» (١٩٧١). اتخذت نظريته كنقطة بداية ذلك الدليل الثابت على الانتشار واسع النطاق أن أسلافنا كانوا أكلة لحوم بشر ـ وهي ممارسة يندر أن توجد بين الحيوانات، فلا يوجد حيوان يأكل بني جنسه. وانطلاقاً من تلك المسلمة أضاف إليها من دراساته التي أجراها على صائدي الرءوس في جزر بورينو، وسومطرة، وغينيا الجديدة، وخرج من تلك الدراسات بنتائج دفعته إلى الاعتقاد أن أكل المخ البشري ينشط الذكاء ويزيد من حدته وأنه يقوي القدرة الجنسية ويزيد الرغبة الجنسية ويلهبها. واستشهد بأن أكل مخ القرود الطازجة دون طهي في بعض مناطق آسيا يعد نوعاً من الترف والرفاه للموسرين، كما أنه لا يقدم في تلك المناطق إلا في بعض المطاعم رفيعة المستوى. ويقومون بقتل القرد مباشرة قبل تناول تلك الوجبة ويؤكل مخه نيئاً. يذكر «ميرث» عن تلك التجربة: «طبقا لتجربتي الشخصية، شعرت بعد عشرين ساعة من تناول تلك الوجبة بنوع من الدفء والحرارة يتسرب إلى مخي مع ضغط هين رقيق، وبعد ثمان وعشرين ساعة غمرت جسمي كله حيوية فائقة، مع اشتعال رغبة جنسية عارمة». ربما أكل البشر المبكرين أمخاخ أعدائهم معتقدين أنهم بذلك يكتسبون شجاعتهم ومزاياهم، وربما كان يجد نفسه بعد تلك الوجبة أشد ذكاءً كما جعله أكثر شغفاً لممارسة الجنس بعد تلك الرغبة الحارقة التي كانت تجتاح بدنه وتجاوز بذلك انعدام الرغبة حين لا تكون الأنثى في دورة الإخصاب.

لا يمكن في الوقت الراهن دحض أو إثبات نظرية «ميرث»، فلا يوجد دليل ينفي أو يثبت أن أكل المخ البشري ينتج عنه التأثير الذي ادعاه، إلا أنه لابد من

ذكره في سياق عرض محاولات العلماء لتفسير كيفية تحول البشر إلى قتلة لبني جنسهم.

أما نظرية «كونراد لوينز» فإنها تبدو أكثر تماسكاً وأقل ابتداعاً، إلا أنها تخلق بدورها اعتراضات لا تقل حدة. وهو يرى أن الأجناس الأليفة مثل الحمام والأرانب والظباء والأيائل لا يوجد بجهازها العصبي إشارات لكبح العدوان، لأنهم في أحوالهم العادية غير عدوانيين. ولدعم ذلك الافتراض وصف «لورينز» كيف وضع حمامتين معاً في قفص بعد ذلك قامت إحداهما بنقر الأخرى حتى الموت. والإنسان كما يرى «لورينز» هو في الأصل كائن غير ضار، بلا مخالب ولا أنياب، وتنقصه أيضاً إشارات كبح العدوان هذا التفسير عارضته بشدة «إلين مورجان» في كتاب اسمته «هبوط المرأة»؛ أشارت فيه إلى أن البشر مازالت لديهم مخالب قوية وأنياب حادة، والتي كانت في عصر ما أكبر كثيراً مما هي عليه الآن. قرود «البابون» لديها الأنياب نفسها، ولكن لديها إشارات كابحة للعدوان. وبناءً على رؤيتها قدمت نظريتها الخاصة عن كيفية تحول البشر لفقدان كوابحهم التي تمنعهم من قتل أعدائهم المهزومين. ففي تاريخ ما، عاد أسلافنا الأوائل كما تفترض، إلى العيش في المياه حين تسبب الجفاف الذى ساد الكرة الأرضية في ندرة الطعام على اليابسة (وهي نظرية كان أول من طرحها عالم الحيوان السير «الستر هاردي») ويفسر ذلك كيف تحول البشر إلى السير منتصبي القامة على القدمين الخلفيتين، حيث كان ذلك أسهل للسير في المياه؛ ويفسر ذلك أيضاً فقد البشر لشعر الجسم، حيث كان شعر الجسم يعوقهم عن خوض المياه والسباحة للحصول على الطعام (الحيوانات المائية مثل القضاعة لها شعر قصير جداً). وبرزت بعد ذلك التحول مشكلة جديدة حين حاول الذكر المنتصب القامة عديم شعر البدن أن يضاجع الأنثى مواجهة، بدلاً من مضاجعتها من الخلف كما اعتاد قبل ذلك. وتذكر «إلين مورجان» أن رد فعل أغلب الإناث على ذلك كان مقاومة الذكور إذ كانت تلك المضاجعة الأمامية تبدو نوعاً من الهجوم للقتل، ولكن الإناث التي خضعت لذلك الهجوم الأمامي ولدن أطفالاً؛ أما من قاومن فلم يحبلن ولم يلدن. عدا ذلك، فإن الذكور القساة الذين تجاهلوا تضرعات الإناث

واسترحامهن أصبحوا آباءً ؛ أما الذكور الأرق والأكيس فإنهم ماتوا بلا ذرية. وهكذا وبالضرورة، دام الذكر القاسي القادر على تجاهل تضرعات الرحمة في حين انقرض الذكور الذين استجابوا للإشارات الإحباطية.

وهناك اعتراض واحد بارز على تلك النظرية الشائقة، وهو أن الذكور المترددين والأكثر كياسة كانوا سيستمرون على الأقل في مضاجعة الإناث من الخلف حين تنتاب الأنثى رغبة جنسية، وبذلك ينتفي سبب انقراض البشر الذين بقوا على الممارسة القديمة للجنس من الخلف. بالإضافة إلى ذلك، فإن أي أنثى طبيعية ستدرك أن الذكر لم يكن يحاول قتلها حين اعتلاها من الأمام، وبذلك لا تحتاج إلى إشارات إحباطية، وهو بدوره لن يكون لديه سبب لفرض رغبته بالقوة.

وبذلك نجد أن نظرية أخرى من النظريات المثيرة عن العنف البشري قد تهاوت وعجزت عن التوصل إلى تفسير حقيقي يمكن قبوله دون نقاط ضعف في سياقه. أما «روبرت أردري» فقد نحي في كتابه «الأجناس الإفريقية» منحى آخر، لقد افترض أن البشر حين تعلموا القتل باستخدام أداة كسلاح أصبحوا أكثر عنفاً وأشد خطراً، ولذلك لم يبق منهم على قيد الحياة إلا الأقوى والأمهر في القتل. إلا أنه اعترف بعد ذلك أن نظريته فشلت في التوصل إلى سبب شن الإنسان المبكر - مثل جماعات كهوف تشو - كو - تيين الصينية - حروبا وإغارات على جماعات بشرية أخرى (كان «ممفورد» سيرد على ذلك بأنهم كانوا مجموعات صغيرة العدد تغير على جماعات أخرى لأسر بعض الأضاحي البشرية لطقوس التضحية) في آخر كتبه المسمى «العقد الاجتماعي» قدم «أردري» افتراضاً جديداً وهو «أصبح البشر خطرين على بعضهم البعض حين هجروا الصيد وتحولوا إلى الزراعة المستقرة». كانت عادة الصيد ماتزال تسري في دم البشر، فتحولوا من صيد الحيوانات والفرائس إلى شن حروب على بعضهم البعض. وكان على هذه الفرضية أيضاً أن تتوارى حين اكتشف «أردري» أن من بين أوائل المدن المبكرة وهي مدينة أريحا - التي يرجع تاريخها إلى ٦٥٠٠ ق. م - قام ساكنوها القدامى ببناء ثلاثة أسوار متتالية حول المدينة، كما حفروا

حولها خندقاً عميقاً. ودل ذلك على أن ساكنيها كانوا يخشون هجمات المزارعين القبائليين، في ذلك الزمن المبكر (في الحقيقة كانت الزراعة المستقرة معروفة للبشر قبل ذلك التاريخ بثلاثة آلاف عام). إلا أن ذلك الدليل يدعم نظرية «ممفورد» التي تذهب إلى أن أعمال الحرب ظهرت فقط في التاريخ بعد تجمع السكان في مدن متنافسة. ينقض أيضاً نظرية«أردرى» عن الصائدين الذين كفوا عن الصيد، الجماجم البشرية التي وجدت في كهوف تشو ـ كو ـ تيين والتي ترجع إلى زمن سحيق سبق استقرار البشر للزراعة، فالبشر كانوا خطرين من نصف مليون عام مضت.

في عام ١٩٧٢ اشتبك «أردرى» و«لويس ليكى» في جدال حول أصل نشأة الحرب والقتل العمد. ولم يتفقا إلا على أن منشأ الحرب يعود إلى حوالى ٤٠٠٠٠ عام مضت، إلا أن أسباب كل منهما تناقضت مع أسباب الآخر.

رأى «ليكى» أن الإنسان الأول تعلم كيف يشعل ناراً من ٤٠٠٠٠ سنة مضت، وبالتالى تعودوا على الجلوس والاجتماع حول النار بعد حلول الظلام بدلاً من الخلود إلى النوم مجبرين، ولأول مرة في تاريخهم وجد البشر أنفسهم منغمسين في تبادل الحوار، كما أتاح ذلك للأطفال الجلوس معهم والاستماع إليهم. وتحول الحكى إلى فن، وأغلب الحكى كان عن الصيد والصدامات بصيادين آخرين، ولأول مرة في تاريخ البشر بدأوا في استخدام مصطلحات مثل «هم» و«نحن». وكانت تلك هى بداية استحواذ أمور الحرب والقتل على فكر البشر انطلاقاً من الصراع بين «نحن» و«الآخرين».

ومثل كل النظريات الافتراضية التى طرحت حول البشر الأوائل، كان يعيب هذه النظرية أيضاً أنه لا يمكن إثباتها بنفس القدر الذى لا يمكن به نفيها. ولكنها من وجهة نظرنا، نظرية مهمة إذ إنها لأول مرة تضع الإصبع على جانب مهم من الإجرام: وهو النفور من الغرباء (الآخر) وكراهية الأغيار. أى الإحساس بعدم المزاملة والمشاركة تجاه بشر آخرين لا نعرفهم. ذلك المركب النفسى مازال موجوداً بين «الطبقات الدنيا» في المدن المعاصرة. يسوق إلينا «إلياس كانيتى» مثالاً على ذلك في كتابه «الازدحام والقوة» وهو عن الحروب

بين القبائل فى أمريكا الجنوبية فى بداية القرن العشرين. أحد أفراد قبيلة «توليبانج» يصف بالتفصيل كيف أبادوا أفراد قبيلة مجاورة تدعى «بيشوكو»، كان الصراع قد بدأ بسبب النساء ونتج عنه مصرع بضعة أفراد من قبيلة «توليبانج» الذين استقر فى ذهنهم أن قبيلة «بيشوكو» تتعمد أن تفنيهم، ورأوا أن الحل الوحيد لتفادى ذلك أن يبادروا هم بإفنائهم. ويصف «كانيتى» كيف زحفوا ليلاً صوب قرية البيشوكو الذين كانوا نائمين فى كوخ جماعى، كان «شامان» البيشوكو قد حذرهم أن أعدائهم يقتربون، إلا أنهم تجاهلوا تحذيره، وشق مقاتلوا توليبانج طريقهم عبر حواجز النباتات المتسلقة، ثم اندفعوا إلى الكوخ الجماعى وبدأوا فى ضرب البيشوكو بالهراوات؛ ثم أشعلوا النار فى الكوخ الجماعى.. كان مقاتلوا توليبانج يمسكون أفراد البيشوكو واحداً بعد آخر ويقطعونهم إلى جزأين باستعمال سكاكين الغابات الكبيرة التى تشبه السيف. ثم أمسك أحدهم بجسد امرأة ميتة، وقام مقاتل يدعى «مانيكوزا» بشق فرجها بأصابعه وقال لمقاتل يدعى «إيوانا»: «انظر، هذا شيء جميل لك لكى تلجه». وهنا نقترب من الاجتماع المحير لعناصر القسوة (إلقاء الأطفال فى النار)، والحقد الانتقامى (قطع الأجسام إلى جزأين)، والجنس.

للوهلة الأولى، تقدم هذه الواقعة دعماً لوجهة النظر التى ترى أن هذا النوع من العنف قد ظهر فى مرحلة متأخرة من تاريخ البشر، فالنزاع كان بسبب النساء، ولكن لو افترضنا أن التوليبانج والبيشوكو كانا جماعتان متجاورتان من القردة، فإنه لم يكن من الممكن أن تقع مثل تلك الحرب، حيث إن القرود لا تتواقع إلا مع إناث من الجماعة نفسها، كما أنها لا تقتل بعضها من أجل حدود أو موقع؛ وإذا وقع نزاع على مكان فإنه لا يتجاوز إظهار المظاهر المتبعة للتخويف، تتبعها إشارات عصبية كابحة إذا توغلت النزاعات فيما يزيد عن إظهار الغضب والتخويف.

من المفترض أنه كانت هناك مرحلة تطورية كان أسلافنا فيها يسلكون مثلما تسلك القرود المسالمة بخلاف ما عليه جنسنا البشرى الحالى النَزاع للحرب والعدوان، وحين نتذكر الجماجم المثقوبة فى كهوف تشو ـ كو ـ تين، يتزايد

الشك في هذه الحقيقة، لقد حدث ذلك من نصف مليون سنة مضت، ومازالت الممارسات نفسها تحدث في عصرنا الحالي من تحرك جماعة (شعب) لإفناء جماعة أخرى ـ أو، على الأقل أسر أعداد كبيرة منهم وقتلهم.

ظل «روبرت أردرى» حتى آخر حياته على قناعة تامة أن البشر أصبحوا بشرا وسادة على المخلوقات بسبب مقدرتهم على القتل، وهو ما أطلق عليه «فرضية الصيد». أى أن البشر طوروا إمكانياتهم لأنهم تعلموا من مرحلة مبكرة جداً أن يتعاونوا معاً لصيد الحيوانات البرية، وترتب على ذلك تطور غريزتهم الاجتماعية جنباً إلى جنب مع غريزة القتل. ما كان ينقص عالم البحث في هذا السياق هو معرفة البعد التاريخي لبدايات ذلك التطور. وبحلول عام ١٩٦٠ حقق «لويس ليكى» اكتشافاً مهماً في منطقة «فورت تيرنان» في كينيا، إذ عثر على عظام واحد من البشر الأوائل الذى يرجع إلى أربعة عشر ونصف مليون عام، وأطلق عليه «ليكى» اسم إنسان «رامبيثكوس». ويبدو أن ذلك الإنسان كان يسير منتصب القامة أغلب الوقت. وعثر في نفس الموقع على مئات من عظام الوعول البرية، ودل ذلك على أن إنسان «رامبيثكوس» كان مستعملا للأدوات كسلاح. وكان اكتشاف «فورت تيرنان» مصدراً لنظرية صاغها «أردرى» في كتابه «الأجناس الإفريقية» ذهب فيها إلى أن إنسان رامبيثكوس أصبح آكلاً للحم (وبالتالى قاتلاً) أثناء الجفاف الأرضى في حقبة البليوسين (من أكثر من ثلاثة ملايين عام مضت) حين أصبحت النباتات نادرة للغاية بسبب الجفاف الذى حل على الأرض، ودعم ذلك الاكتشاف نظريته السابقة التى افترضت أن البشر أصبحوا بشراً لأنه أصبحت لديهم قدرة على الصيد والقتل.

بعد ذلك بعشرة ملايين من الأعوام ظهر الإنسان «الاسترالوبيثوكس» الذى كان يشبه القرد، ويبلغ طوله حوالى أربعة أقدام، ويبلغ وزن مخه حوالى رطل (٥٠٠ جم أو بحجم يساوى ٦٠٠ سنتيمتر مكعب)، وهو ما يصل إلى ثلث المخ البشرى الحالى. لم يكن ذلك تطوراً هائلاً أو ملموساً مقارنة بمخ إنسان رامبيثكوس الذى سبقه بعشرة ملايين عام والذى كان يبلغ حجمه أربعمائة

سنتيمتر مكعب (الشمبانزى الحالى يبلغ حجم مخه أربعمائة سنتيمتر مكعب) ، إلا أنه كان المخلوق الأول الذى كان أول من توصل إلى استعمال الأدوات للقتل . ولم يمض وقت طويل بعد ذلك حتى اكتشف عظام أشكال أكثر تطوراً للبشر كانت ذات أمخاخ أكبر حجماً - حوالى ٧٠٠ سم مكعب - والذين كانوا يستعملون أدوات بدائية من حجر الصوان وأطلق عليه اسم إنسان «هومو هابيليس» . كان ذلك النموذج البشرى يحيا أيضاً فى ظروف غير مسبوقة من سوء مناخ الأرض - جفاف وطوفان وعصر جليدى وهى الحقبة التى أطلق عليها حقبة «البلايستوسين» والتى ظلت سائدة حتى مليونى عام مضت . ولم يتوصل البشر حتى الآن إلى معرفة الأسباب التى أدت إلى سيادة ذلك المناخ فى حقبة البلايستوسين . وتصف أكثر النظريات انتشاراً تلك الظروف المناخية وتذهب إلى أن الجليد القطبى تعاظم وتعملق حتى إنه راح ينقسم تحت وطأة ثقله الهائل وتحركت كتل جليدية عملاقة فى حجم القارات باتجاه خط الاستواء . ولكن من وجهة نظر الملائمة البشرية ، كان العصر الجليدى والطوفان والفيضانات الهائلة أصلح للبشر من عصور الجفاف التى دامت فى إفريقيا على مدى ١٢ مليون عام - طوال حقبة البلايستوسين .

خلال حقبة البلايستوسين تحول البشر فجأة فى شكل تطورى مفاجئ يشبه الطفرة ، وبدأ يبز بشكل فائق أى سلالة حيوانية أخرى على وجه الأرض بما فيها سلالة ابن عمه القرد .

وفى خلال المليون عام التالية ظهر المخلوق الذى يقتل أسراه فى كهوف تشو - كو - تيين والذى أطلق عليه اسم «هومو - أريكتوس» ، أى الإنسان شبيه منتصف القامة ، وبلغ حجم مخه ضعف حجم مخ الإنسان «الإسترالوبيثيوكس» ، إذ بلغ مخه حجماً مساوياً لثلثى حجم مخ البشر الحاليين . ونعلم أنه استخدم النار واستغلها ، بالرغم من أنه لم يتوصل إلى كيفية إشعالها ، إلا أن ذلك بحد ذاته خلق حياة أكثر تطورا من الناحية الاجتماعية . كان الصائدون حين يصادفون شجرة تشتعل بها النيران بفعل البرق ، يأخذون بعناية بعض الأغصان المشتعلة ، ثم يكلفون واحداً منهم

برعايتها والمحافظة عليها مشتعلة على الدوام وتغذيتها بأغصان جافة. بدأ البشر يتعلمون التفكير فيما هو آت، وبالتالي سبقوا وبزوا كل الحيوانات الأخرى. ويشى وجود الجماجم فقط في كهوف تشو ـ كو ـ تيين بالصين أن الإنسان شبيه منتصب القامة كان صائد رءوس، وأن قدرته بالتالى على العنف كانت قد تطورت تطوراً كبيراً وقطعت أشواطاً فى مسيرة العنف البشرى.

ظل المخ البشرى يتمدد ويزيد حجمه. وخلال النصف مليون عام التى انصرمت فيما بين إنسان بكين وبين البشر الحاليين، نما المخ الثلث الأخير من حجمه الحالي، وكان معظم النمو فى طبقة المخ السطحية والقشرة الخارجية، وهى الطبقة التي نفكر بها. لا يعلم أحد بشكل محدد لماذا تمدد بهذا الشكل السريع حتى إن «أردرى» افترض مفهوماً مثيراً من أن الأمر يتعلق بنيزك ضخم أو كويكب انفجر فوق المحيط الهندى من حوالي -٧٠٠٠٠٠ عام مضت، ومازالت شظاياه وأجزائه منتشرة فوق ما يزيد على عشرين مليون ميل مربع (وتسمى تكتايت أو الأجسام الزجاجية)(*). فى التوقيت نفسه انعكس قطبى الأرض بحيث أصبح الجنوب شمالاً والشمال جنوباً، أى أن الشمس أصبحت تشرق من عكس اتجاه شروقها السابق. ولم يتمكن أى عالم جيولوجي معاصر من تفسير كيفية حدوث ذلك ولا لماذا حدث في عدد من المرات السابقة من تاريخ الأرض.

وعلى كل الأحوال يفترض «أردرى» أن ذلك الانفجار النيزكى أو الكويكبى، أو انعكاس قطبى الأرض أو كليهما، أشعل بشكل ما، ما يمكن أن نطلق عليه «انفجار النمو المخى» أو ذلك التطور السريع الزخم الذى وقع له. وأثناء تلك الحقبة التى وقع فيها انعكاس قطبى الزرض، مر الكوكب الأرضى بفترة مؤقتة كان فيها بلا مجال مغناطيسى وبالتالى بلا غلاف جوى بالشكل المعتاد، وترتب على ذلك تعرض الأرض لزخات متتابعة من الأشعة الكونية والجزئيات فائقة السرعة ذات الطاقة الهائلة من ذلك النوع الذى يحمى الأرض منه الان وجود الغلاف الجوى بأحزمته المتتالية. التى تحمل اسم «أحزمة فان

(*) تنتشر هذه الحجارة الزجاجية الفريدة في تشيكوسلوفاكيا وإندونيسيا وأستراليا (المترجم).

آلن». من المفترض أنه ترتب على ذلك ارتفاع مفاجئ في درجة حرارة الأرض. أى أن العنصرين السابقين من الممكن أن يسببا طفرة چينية قد تكون هى المسئولة عن «انفجار المخ» فى نمو سريع متتابع على مدى آخر ٧٠٠٠٠٠ عام.

إلا أن وجهة النظر التى عارضت تلك النظرية ذهبت إلى أن نظرية الكارثة الكونية من الممكن أن تكون بلا قيمة حقيقية لسبب بسيط، وهو أنه إذا كان المخ البشرى قد تضاعف حجمه بالفعل فيما بين إنسان الأسترالوبيثيكوس وأول بشر شبيه منتصب القامة على مدى زمنى يصل إلى نحو مليون عام، فإنه لا يوجد مدعاة للتعجب والاحتياج إلى نظريات لتفسير زيادة حجم المخ بثلث آخر على مدى نصف مليون عام أخرى.

إلا أن هناك لغزاً غامضاً ومحيراً. فإنسان بكين كان له مخ أكبر كثيراً من مخ إنسان الأسترالوبيثيكوس؛ وفى الحقيقة، كان مخ بعض بشر بكين يصل إلى بعض الأحجام الصغرى لمخ البشر الحاليين. فما الذى فعله إنسان بكين بذلك المخ؟

استعان به بالتأكيد فى إقامة مأوى بدائى من أغصان الشجر، وطور وسائل صيد أكثر براعة، بل إنه تعلم أن يقتل الأفيال، إلا أن أدواته لم تحقق على الجانب العملى تقدماً كبيراً. فحتى ٣٠٠٠٠٠ عام مضت كان الإنسان منتصب القامة الأكثر تطوراً مازال يستعمل أحجار الزرد والصوان كسلاح وهى ذات الأدوات التى كان يستعملها إنسان «الهوموهابيليس» من مليونى عام مضت.

هكذا سارت الأمور حتى ظهر إنسان نياندرتال على مسرح أحداث الأرض من مائة ألف عام مضت، وكان ذلك الإنسان مازال محتفظاً بالشكل القردى العام، ذقن منسحبة للداخل وجبهة منبسطة للخلف، ويسكن الكهوف وتدل آثاره على أنه كان آكلاً للحوم بنى جنسه.

واختفى إنسان نياندرتال من ثلاثين إلى خمسة وعشرين ألف سنة مضت وظهرت النسخة المطورة التى تحمل إنسان «الكروماجنوم»[*]، وهو الجد

(*) إنسان «الكروماجنوم» هو الإنسان الذى عاش فى كهوف أوروبا فى تلك الحقبة التاريخية (المترجم).

المباشر للبشر الحاليين.

ولا يخامر «أردرى» الشك في أن إنسان نياندرتال قد فنى على يدى إنسان الكروماجنوم، ورغم وجاهة الافتراض، يفضل أغلب الباحثين ترك تحديد تلك المسألة لمزيد من البحث والدراسة.

كان الكروماجنوم أول سلالة بشرية تحقق فائدة من المخ المطور الكبير الحجم. بدأ يرسم صوراً على جدران الكهوف، بل إنه توصل إلى تسجيل المعارف على هيئة علامات رمزية وجدت محفورة على عظام الأيائل، وفى الغالب كانت تلك العلامات تسجيلاً لملاحظاته لدورة القمر. ومع مرور الزمن توصل إلى الزراعة المستقرة وبناء المدن الأولى بعد ذلك.

لقد أنجز تقدماً حضارياً على مدى خمسة وعشرين ألف عام يفوق كثيراً ما أنجزه أسلافه السابقون على مدى مليونى عام.

وكالمعتاد كان لأردرى نظرية مدهشة يفسر بها ما حدث. إنه يبرز دور اختراع رأس السهم فى تحقيق ذلك الإنجاز - وهى الرأس التى يمكن تثبيتها على رأس قصبة واخترعها أحد سلاسات إنسان نياندرتال الذى كان يعيش فى الصحراء الكبرى (وقت أن كانت جنة خضراء) من حوالى أربعين ألف سنة. كما يدل ذلك أيضاً على أنهم كانوا قد اخترعوا القوس لرمى تلك السهام. ويذهب أردرى إلى أن القوس والسهم كانا منعطفاً حاسماً فى العالم القديم مماثل اكتشاف الانشطار النووى والقنابل الذرية فى عصرنا الحديث. كان القوس والسهم أول سلاح «طويل المدى» فى تاريخ البشرية. وعنى ذلك أن الصائد لم يعد ملزماً بالارتباط بقبيلته والصيد معها فى جماعة، وأصبح بإمكانه أن يخرج للصيد وحيداً لقنص الطرائد الصغيرة، وبمجرد أن اعتاد الصيد بمفرده - أى فردية العمل - يحتمل أنه بدأ أيضاً فى تطوير عادة التفكير والتخطيط لمصلحته الفردية الذاتية. والنظرية مثيرة بالطبع إلا أنها تفتح باب الجدل والاعتراض بأن القوس والسهم فشلا لسبب غامض فى الانتشار إلى ما هو أبعد من الصحراء التى ظهرا فيها والتى كانت خصبة وخضراء فى ذلك العصر، إلا أن «أردرى» يستدرك ذلك مشيراً إلى أن رجل ما قبل التاريخ والجد

المباشر للبشر الحاليين (الكروماجنوم) الذى ترك آثاره ورسوماته فى كهوف فرنسا كان قد عرف المقلاع، وهو سلاح آخر طويل المدى...

قد يثبت أن هذا الافتراض غير موضوعى مثل نظرية «الانفجار الكبير» لنمو المخ. فبداية، يبدو أن إنسان «نياندرتال» البدائى كان أقل شبهاً بالقرد كما اعتدنا أن نفترض. لقد كان يدفن موتاه ببعض الاحتفالات الطقسية فقد وجد الباحثون بذوراً لأزهار ذات ألوان مبهجة فى مواضع دفن موتى إنسان نياندرتال مما يدل على أن تلك الزهور كانت تكون أكاليلاً لتغطية جثث الموتى منهم، وعثروا أيضاً على قطع من ثانى أكسيد المنجنيز فى الكهوف التى كان يحيا بها إنسان نياندرتال ـ وهى أحجار طبيعية تستخدم فى الرسومات الملونة واستخدمها من بعده إنسان الكروماجنوم لنفس السبب، وكانت تلك الحجارة متآكلة من أحد جوانبها مما يشى أنها استعملت كطباشير للرسم والتلوين، كما وجدت أنواع أخرى ن الأكاسيد ولكن بكميات أقل مثل أكسيد الحديد ـ الأكسيد الأحمر ـ ولذلك فإنه يمكن قبول أن الإنسان البدائى كان يستعمل تلك الأكاسيد الملونة للرسم كما كان يستعملها لصبغ جلود الحيوانات. ويبدو أن أنثى إنسان النياندرتال كانت فاجرة، فبالرغم من أن الكهوف كانت تغص بعظام الحيوانات التى كانوا يصطادونها مما شكل وفرة فى جلود تلك الحيوانات، إلا أن هناك أدلة أنها لم تكن ترتدى أى من تلك الجلود الزاهية الألوان، وكانت تفضل أن تظل عارية. من الآثار المدهشة والمحيرة التى تركها إنسان نياندرتال تلك الكور الحجرية التى صنعها، وهى الكور نفسها التى كان يصنعها أسلافه الذين سبقوه بمليون عام. اكتشف الباحثون وجود قرص من حجر الصوان الأبيض، يبلغ قطره حوالى عشرين سنتيمتراً فى كهوف منطقة «لاكونيا» بفرنسا. ويعلم كل من درس المعتقدات القديمة الأسطورية أن تلك الأقراص كانت تمثل قرص الشمس، أو القمر. كل ذلك يدل على أن إنسان نياندرتال، بالرغم من ظاهره المتوحش، كانت قد تطورت لديه بعض المعتقدات، والمعتقدات بلا أدنى شك ليست إلا نتاجاً فكرياً ـ وإحساس فطرى ـ عن الكون والوجود.

ويبدو من المعقول جداً أن إنسان نياندرتال كان يتمتع بقدر من الفردية حتى قبل اختراع القوس والسهم.

الاعتراض الحقيقي على كل تلك النظريات ـ من نظرية «ميرث» عن أكل المخ، ونظرية أردرى عن القوس والسهم ـ أنها تفترض أن البشر الأوائل كانوا بصفة رئيسية مخلوقات سلبية كانت بحاجة أن تعثر بالمصادفة على تلك المكتشفات التى أشعلت تطورها. ويفترض «أردرى» و«لورينز» أن اكتشاف البشر الأوائل للسلاح وكيفية استعماله، أدى إلى تطور تناسق أفضل بين اليد والعين، وهكذا نما العقل وتطور. ويفترض «أردرى» أن التوصل إلى السلاح طويل المدى ترتب عليه ظهور «فردية» العمل فى الصيد والقنص. ويذكر عن المخ الذى تضاعف حجمه فى نمو مطرد أنه يماثل تماماً كما لو كان أحد ما قد اخترع السيارة «الرولزرويس» الفاخرة قبل اكتشاف البترول. ويدل ذلك بالطبع أن «أردرى» بكل بساطة سبَق النتائج على الأسباب التى أدت إليها، فالافتراض الأصح أن ترتيب إطار ذلك التطور قد حدث بطريقة عكسية، وأن الإنسان البدائى توصل إلى مخترعاته الأولى نتيجة بحثه عن إجابات وحلول لمعضلات تواجهه.

لنستعرض بعناية وجهة النظر البديلة هذه. يمكن أن نبدأ كنقطة بداية، بحقيقة معروفة ويقينية، وهى أنه فى زمن ما، بعيد وسحيق فيما قبل التاريخ. ينحصر ما بين خمسة وعشرين إلى خمسين مليون عام مضت، هبط أسلافنا الأوائل من القردة من على الأشجار لأنهم وجدوا أن المعيشة على الأرض أكثر جدوى وفائدة من بقائهم على قمم الأشجار؛ وكانوا ينبشون الأرض بحثاً عن الدرنات والجذور النباتية لأكلها (كما مازالت تفعل القردة فى عصرنا الحالى)، وتغذوا أيضاً على الحيوانات الصغيرة الحجم (كما تفعل أيضا القردة فى عصرنا الحالى)، وأحياناً كانوا يهاجمون حيوانات أكبر حجما ـ مثل الغزلان ـ التى كانت تقع فى الشراك الطبيعية فى الأدغال الكثيفة والمستنقعات فتشل حركتها، وجاء الوقت الذى أدهشهم فيه أن مغامرات الصيد الأكبر بدت لهم ذات معنى كما احتوت على تجارب أعمق من مجرد اصطياد الحشرات الصغيرة

وإمساك القرود.

ويبدو أن انتصاب القامة قد تطور بسبب أن تلك المخلوقات كان عليها أن تحمل صيدها إلى مأواها وأماكن معيشتها، فالحيوان المفترس والأقوى عضلياً كان بإمكانه أن يجر فريسته بأسنانه؛ أما ذلك الكائن البشرى الضئيل فقد وجد أن عليه أن يستعمل ثلاثة أقدام للسير، بينما يمسك صيده بالقدم الأمامية الرابعة، ثم تعلم أن يحمل الفريسة على أكتافه ويندفع مترنحاً على قدميه الخلفيتين اللتين لم يتعودا الثبات على الأرض.

نتج عن انتصاب قامة ذلك الكائن البشرى ميزة جديدة: أصبح بإمكانه أن يكشف ببصره أماكن أبعد، وهى ميزة هائلة للصيد، عدا ذلك فقد كانت تلك الميزة أكثر إشباعاً للفضول ورؤية الأشياء البعيدة. ويفسر ذلك إحساسنا بالمتعة والراحة عند مشاهدة الأماكن الرحبة والسهوب الواسعة الممتدة بعكس ذلك الضيق الذى ينتابنا حين نقضى وقتاً طويلاً فى غرف مغلقة. يطلق علماء الحيوان على الأثر الذى تتركه مشاهدة أماكن واسعة وآفاق رحبة «الانعتاق»؛ ويبعث فينا ذلك الانعتاق استجابة محددة، مثله مثل شبع الطعام وممارسة الجنس. قد يعود السبب إلى أن أسلافنا على مدى ملايين متتابعة من السنين كانوا يشعرون بإثارة شديدة وترقب حين كانوا يتسلقون شجرة لاستطلاع واكتشاف السهول البعيدة؛ ومازلنا حتى الآن تعترينا المشاعر ذاتها حين ننظر إلى السهول البعيدة الواسعة من فوق قمة جبل، بالرغم من أننا لم نعد نبحث عن طريدة صيد، وهو ما أصبحنا نطلق عليه الإحساس الاستجابى لجمال الطبيعة، إلا أن أصل ذلك الإحساس يكمن فى المعدة كما بدأ فى العصور السحيقة.

والآن نصل إلى قلب اللغز. كان البشر الأوائل يخرجون للصيد فى جماعات مثل الذئاب ـ حتى إن «أردرى» يشير إلى السلالة البشرية المسماة «أسترالوبيثيكوس» باسم «القرد الذئب» ـ ولكن، لماذا تطور البشر ليصبحوا «سادة الأرض» بينما ظلت الذئاب بلا تغير على وجه التقريب؟ (كانت الأسلاف الأولى للذئاب والكلاب المسماة توماركوس موجودة على الأرض

ومعاصرة للإنسان البدائي الأول المسمى رامابيثيكوس»، وفضلاً عن الذئاب، فإن كلاً من البشر والقرود، انحدرا من ذلك المخلوق الضئيل، الذى كان نوعا من الكائنات الشجرية المشاكسة. فلماذا ظل أبناء عمومتنا القرود كماكانوا عليه من خمسة عشر مليوناً من الأعوام؟ والسؤال تحديداً لماذا نتطور نحن البشر بمفردنا بما أن التطور لم يكن ظاهرة «عادية» شملت كل الكائنات على المدى الزمني ذاته. أسماك القرش لم تتغير ولم تتطور على مدى مائة وخمسين مليون عام مع أنها صائد كفؤ مفترس لدرجة أنه لم يحتج إلى تغيير وسائله. إن التطور يحدث فقط حين يكون على الكائن أن يتكيف، وبالتالى يجاهد ويكابد. كانت حقبة البلايوسين ومن بعدها حقبة البلايستوسين من الأحقاب الصعبة بلا جدال، إلا أنها شكلت الصعوبات ذاتها لكل الكائنات الحية، ولذلك يظل التساؤل قائماً، لماذا فاق البشر كل الكائنات والمخلوقات الأخرى التى بدأت معه الحياة على الأرض؟

من العجيب أن أغلب علماء التطور أغفلوا أكثر الاحتمالات والأسباب وضوحاً، وهو الجنس. لقد خصص «ديزموند موريس» بعض الصفحات للتطور التشريحى للأنثى، وافترضت «إلين مورجان» أن ثديىَ المرأة قد تضخما ليصبحا متاحين أكثر وأسهل وصولاً إلى فم الوليد (حيث إن الأنثى البشرية لم يعد لديها شعر يتعلق به الوليد أثناء الرضاعة). إلا أن أياً منهما لم يعترف ولم يتوصل إلى أن التحولات الأنثوية الجنسية من الممكن أن تكون أهم عنصر منفرد أدى إلى ذلك التطور البشرى.

إن أنثى القرد يزداد شبقها الجنسي وتوقها إلى الذكر أسبوعاً واحداً من كل شهر. أما أنثى البشر، فقد تحولت فى لحظة ما من تاريخها عن الشبق الجنسى الموسمي وأصبحت راغبة ومستقبلة للذكر طوال الوقت وفى أى وقت. والتفسير المقبول لذلك هو أن الذكور كانت تخرج للصيد وتغيب أياما وأسابيع فى كل مرة، وكانوا يعودون بالفرائس تواقين لنيل مكافأتهم الجنسية سواء كانت الأنثى فى توقيت رغبتها الموسمى والدورى الملائم لها أم لا. ولذلك، وعلى مدى آماد زمنية طويلة، تناسلت الإناث اللائى لم يكن لديهن

اعتراض على المواقعة الجنسية فى أى وقت، وأنجبن ذرية من نوعهن أكثر من الإناث التى تقيدت بمواسم ومواقيت للتلاقح وبالتالى انقرضن بحكم الانتقاء الطبيعى. ومنذ أن برهن «ليكى» أن إنسان «رامابيثيكوس» كان صائداً، يصبح من المفهوم أن ذلك التحول الجنسى كان قد بدأ فى مرحلة مبكرة جداً من تاريخ الجنس البشرى.

الجنس فى حياة أغلب الحيوانات ممارسة موسمية؛ فدافعهم الأقوى والأول هو الطعام. وبمجرد أن أصبحت أنثى البشر مستقبلة للجنس فى كل وقت وأى وقت، وبدأت أعضاءها الجنسية فى التطور فى أشكال مثيرة لشهوة الذكر - مثل الأثداء الكبيرة والشفاة الممتلئة والأرداف المستديرة - أصبح لدى كل ذكر دافع أقوى لإظهار شجاعته وقوته ومهارته لجذب اهتمام الأنثى وإثارة انتباهها. وأدى وجود إناث بلا ذكر بين الجماعات البشرية إلى ظهور عنصر المنافسة الذى لا يوجد مثيل له بين جماعات الحيوانات الأخرى.

هكذا ظهر دافع لمحاولات الذكر أن يصبح صياداً ماهراً وقادراً على التفوق على أقرانه الذكور. وبذلك حلت الدوافع والتركيبات النفسية على أسلافنا، وفسرها كلاً من «مور دى أرثر» و«شانسون دى رولان»، وقد حلت على أسلافنا قبل تطور الصفات البشرية الأخرى بزمن طويل. لقد وضع الفيلسوف الألمانى «جوتة» إصبعه على الحقيقة الجوهرية عن تطور الجنس البشرى حين كتب: «إن الأنوثة الخالدة تدفعنا إلى الأمام وإلى أعلى».

ولكن، كيف يمكن أن نفترض أن هذا النوع من الانتقاء الجنسى العاطفى استطاع أن ينتج هذا المخ الكبير؟ والإجابة هى أن الصائد الماهر يحتاج إلى الذكاء بقدر ما يحتاج إلى الشجاعة، وهذا هو سبب تطور المخ وازدياد حجمه. تطور فى البداية ببطء متناه، حتى إنه استغرق عشرة ملايين عام ليتحول مخ الإنسان من سلالة «رامابيثيكوس» الذى بلغ حجم مخه ٤٠٠ سنتيمتر مكعب، إلى مخ سلالة «أسترالوبيثيكوس» الذى بلغ حجم مخه ٦٠٠ سنتيمتر مكعب؛ ثم مع اضطراد معدل النمو، وصل حجم المخ إلى ١٠٠٠ سنتيمتر مكعب لدى الإنسان شبيه منتصب القامة فى معدل زمن أقل من مليون عام

(يذكر «روبرت أردرى» أن حجم مخ «أناتول فرانس» الكاتب الفرنسى الشهير كان ١٠٠٠ سنتيمتر مكعب فقط، واستشهد بذلك أن إنسان بكين فيما قبل التاريخ كان على درجة متساوية من الذكاء مع أستاذ جامعى معاصر). ثم وقع الانفجار الكبير، «انفجار نمو المخ» ونما حجم المخ البشرى بمقدار ثلث آخر خلال نصف مليون عام فقط.

فإذا كانت النظرية الجنسية العاطفية صحيحة، فإن التساؤل عن أسباب النمو السريع للمخ البشرى يختفى، حيث نجد أن الجنس قد زود البشر بدوافع كافية لاستعمال ذكائهم وبالتالى تطور المخ. وفى الحقيقة نجد أن تلك النظرية تثير ردود فعل حادة ورافضة لدى إنسان يفكر بالعقلية والمفاهيم الجنسية للقرن العشرين، الذى يتخذ من مغنى البوب نموذجاً للذكورة الجنسية، وهو ذلك المطرب الذى يرتدى سترة جلدية ويهز أردافه أثناء الغناء على وقع الموسيقى ويبدو أن الذكاء بالنسبة له شىء غير ضرورى لاجتذاب الإناث اللائى يتهافتن عليه دون أى عناء من جانبه، إن مغنى البوب من الممكن أن يظل حيا ومنعماً بلا احتياج لأى ذكاء، إلا أن الصائد لا يمكنه ذلك. نتيقن من صدق تلك الحقيقة حين نقول إن يد شخص ما «لم تفقد مهارتها»، وندرك أن مهارة اليد وبراعتها أحد المنجزات المهمة فى تطور الجنس البشرى الذى راهن بذكائه ضد غريزة الحيوان من أجل البقاء، فقد كان: ناصباً للكمائن، مراقباً صبورا، متسللاً فى حذر دون كلل وراء طريدة.

ويتساءل «روبرت أردرى»، هل استفاد البشر بمخهم النامى والمتنامى؟ قد تكون مصادفة أو قد لا تكون، أن المخ البشرى بدأ فى «الانفجار النموى» مع آخر عصر جليدى كبير من نصف مليون سن مضت. منذ ذلك العصر الجليدى الأخير وحتى عشرة آلاف عام مضت، كان الغطاء الجليدى يزحف ليغطى أجزاء عظمى من الأرض ويعود للتقهقر مرة أخرى باتجاه القطبين، فى تلك الأحقاب ذات المد الجليدى كان الصيد فائق الصعوبة والمشقة، وكان البشر يحتاجون بشكل حاد إلى الذكاء والمهارة حتى يظلوا أحياء. من جانب آخر. فإن زيادة المهارات لم تنعكس على المنتج البشرى من أدوات مبتكرة وصناعات

أولية، وظلت الحربة أو الرمح سلاحه الرئيسي بلا تغيير، أما الإنسان منتصب القامة، فقد كان أهم إنجاز له ابتكار البلطة ذات المقبض التي ظهرت أول مرة منذ مليون ونصف من الأعوام ولم تحدث تغيرات جوهرية لهذه الأداة البسيطة على مدى مليون عام. ولماذا تتغير؟ لقد كان الغرض الأساسي انتزاع وسلخ جلود الحيوانات، وتهذيب وتشذيب أفرع الأشجار وغصونها ـ ويحتمل أيضا تهشيم الجماجم لأكل الأمخاخ ـ وظلت هذه الاحتياجات ثابتة بلا تغير على المدى الزمني نفسه.

إلا أن هناك دليلاً مثيراً يثبت أن البشر قد تعلموا واكتسبوا مهارة أخرى جديدة. ويعود تعلم تلك المهارة واكتسابها إلى ٢٠٠٠٠٠ سنة مضت، واكتشف الباحثون الأثر الدال عليها في «بيك دي لازيه» في منطقة «دوردو» بفرنسا، والأثر عبارة عن ضلع ثور يحمل أول حفر بشري في العالم. لم تحمل العلامات عند اكتشافها أي أهمية مثيرة فقد كانت مجرد أقواس متقاطعة، وبضعة خطوط وعلامات على شكل حرف V من الممكن أن تكون ناتجة عن تلف طبيعي نتيجة تحلل مادة الضلع العظمية، أما ما كان مثيراً في الاكتشاف كونه قد حفر من قبل الإنسان منتصب القامة. والعظام المحفورة التي عثر عليها وتعود إلى تاريخ لاحق ترجع إلى ١٧٥٠٠٠ سنة مضت؛ وقام بحفر نقوشها أسلافنا المباشرين من سلالة الإنسان العاقل، وهو إنسان ما قبل التاريخ الذي ظهر بمنطقة فرنسا وهو ما يسمى إنسان كرومانيون، أو ما يطلق عليه البعض «أول فنان» في العالم.

ويعود اكتشاف فنون إنسان الكرومانيون إلى عام ١٨٦٥ حين اكتشف المحامي الفرنسي «إدوار لارتيه» عظاماً حيوانية محفوراً عليها أشكالاً للأيائل البرية وحيوانات أخرى مختلفة بالقرب من مدينة «ليزيزيه» في منطقة «دوردو». وقد عرضت تلك العظام في معرض باريس عام ١٨٧٨، كما عثر نبيل إسباني يدعى «دون مارسيلو دي ساتولا» في مقاطعته بالقرب من منطقة «تورلابيجا» في منطقة «التاميرا»، على اكتشاف آخر مثير بمصادفة حالفها حسن الحظ. لقد عثر على كهف مطمور المدخل وتوصل إليه بعد أن سقط أحد

كلاب الصيد في حفرة ضيقة . وبتطهير ذلك المدخل اكتشف «دون مارسيلو» كهفاً مليئاً بعظام الخيول والثيران البرية ، ولما فحص جدران الكهف وسقفه ، اكتشف أنها مغطاة برسوم ذات ألوان زاهية تمثل ثيراناً وحشية وغزلاناً وذكور الخنازير البرية وخيول برية . وجلب له ذلك الكشف مشاعر من المرارة والإحباط بعدما أعلنت اللجنة المشكلة من مجموعة من العلمات والباحثين أن تلك الرسومات غير أصيلة وحديثة الرسم ؛ ثم مات عام ١٨٨٨ ، وكانت منطقة «التاميرا» قد طواها النسيان . ثم اكتشف الباحثون بعد ذلك رسوم كهفية أخرى عديدة بمناطق متفرقة من فرنسا ، واعترف الباحثون بعدذلك بأهمية وأصالة رسوم «التاميرا» كما اكتشفت رسومات بأحد كهوف منطقة «دوردو» بفرنسا وكانت مغطاة بترسبات جيرية وكلسية صاعدة ، وتلاشت تماماً بعد ذلك أية شكوك حول أصالة رسوم «التاميرا» .

كان من الطبيعي أن يفترض باحثي العصر الفيكتوري أن رسومات الكهوف ليست إلا أعمالاً من الفن البدائي - وأنها كانت نتاج أوقات فراغ إنسان الكرومانيون وكان أول من شك في هذا الافتراض «سولومون ريناك» عضو المعهد الفرنسي للعلوم الإنسانية ، ورأى أن تلك الرسومات لم تكن إلا جانبا من طقوس سحرية للتأثير على الثيران البرية وذكور الخنازير لدفعها إلى السقوط في ا لشراك التي ينصبها الصيادون . وأشهر تلك الرسوم القديمة موجود في كهف يسمى كهف الإخوة الثلاثة في منطقة «دوردو» ، وهو رسم يمثل ثوراً برياً ذا أرجل بشرية يؤدى حركة راقصة . ومن الواضح أن الرسم يمثل رجلاً يرتدى جلد ورأس ثور برى ، ويظهر رسم آخر رجلاً يضع على رأسه قرنا وعل برى . وتظهر الأبحاث المعاصرة عن المجتمعات التي مازالت بدائية حتى الآن أنهم يمارسون طقوساً «سحرية» تتضمن كثيراً من الرموز الحيوانية . . قبائل «البيجمي» في الكونغو يجرون الحيوان الذى صادوه على الرمال ثم يطلقون سهماً مشتعلاً في رقبته ، وقبائل «تنجوز» ترسم الحيوان الذى يرومون صيده قبل الخروج للصيد ، كما يقوم أفراد قبائل «اليونيسيس» بصنع سمكة من الخشب كطقس سحرى يسهل صيد الأسماك . وتتضمن الكتب ، مثل كتاب «كارلتون . س . كونز» المسمى «شعوب الصيادين» ، وكتاب «جوزيف كامبلز»

المسمى «أقنعة الإله» على أمثلة كثيرة من الطقوس السحرية التى تستعين بتمثيل الأشكال الحيوانية الرمزية لدى المجتمعات البدائية المعاصرة. ويظهر كل ذلك دون أدنى شك، بالرغم من اعتراض بعض الباحثين المعاصرين، أن الأشكال الحيوانية التي رسمها إنسان الكرومانيون كانت جانباً من طقوس تم رسمها بتكرار صورة فوق أخرى، ويرجح أن رسمها بتلك الطريقة لم يكن إلا إجراء طقسي (هناك رسم غامض في كهف «لامارش» يبدو منه صورة امرأة تصلي متداخل مع شكل شامان راقص يؤدى الطقوس، والرسم يوحى أن الشامان كان يستخدم فنونه السحرية لإغواء أنثي يشتهيها).

في بداية عام ١٩٦٠، كان محرر علمي يدعى «إليكساندر مارشاك» يفحص بعض الموجودات الغامضة في كهوف «دوردو» مثل أجزاء من قرون الأيائل وقطع من عظامها ووجد حفراً على تلك القرون والعظام، بعضها كان نقاطاً والبعض الآخر كان خطوطاً متوازية. كان «مارشاك» يضع كتاباً عن مكتشفات الفضاء ورأى أن يضمنه فصلاً عن بدايات العلوم والرياضيات منذ فجر البشرية.

وما أدهش «مارشاك» وأثار فضوله هو تلك الظاهرة التى أطلق عليها «سلسلة الفجائيات التاريخية» ـ فالعلوم اليونانية بدأت تاريخياً «فجأة» وكذلك الكتابة ظهرت «فجأة»، والزراعة ظهرت «فجأة»، وهكذا. بدا له الأمر غريباً. لقد كان حجم مخ إنسان الكرمانيون هو حجم مخ البشر الحاليين، وكان ذلك من أربعين ألف سنة، أفلا يمكن أن تعود تلك المكتشفات إلى تاريخ أقدم يمتد إلى آخر عصر جليدى؟

وحين قام «مارشاك» بفحص إحدى العظام «المنقطة» تحت الميكروسكوب، لاحظ أن تلك النقاط قد حفرت في أوقات متباينة وبأدوات مختلفة، ويثبت ذلك أن تلك النقاط المحفورة تحمل معنى ما. كانت النقاط محفورة بالتتابع فى انحناءات ثعبانية. خمن «مارشاك» أن الغرض من حفر تلك النقاط، تسجيل أوقات الدورة القمرية على مدى شهور متتابعة. فحص «مارشاك» عشرات العظام، كان بعضها يعود إلى ٣٤٠٠٠ عام قبل الميلاد، ورجح أن تلك

العلامات يمكن أن تكون مرجعاً لمن حفروها يستدلون منها على أوضاع القمر ودورته فى مواسم متتابعة. وبمعنى أدق، كانت النقاط المحفورة على العظام أول تقويم بشرى بدائى للزمن، وطرح ذلك التفسير سؤالاً آخر، وهو لماذا اهتم إنسان العصر الحجرى بأوقات تحركات القمر من محاقه إلى تمامه؟ من المفترض أن أهم ما شغله فيما يخص الزمن معرفة مواسم هجرة الحيوانات وانتقالها من موضع لآخر وأهمها هجرات ا لأبقار البرية والأيائل وموسم تكاثر أسماك السالمون. وضع «مارشاك» كل النتائج التى توصل إليها فى كتاب مهم أسماه «جذور الحضارة»، وكانت فرضيته الأساسية فى ذلك الكتاب أن سلفنا إنسان الكرومانيون كان أقل «بدائية» إلى حد كبير عما يفترض الباحثون والعلماء، وأنهم توصلوا كما يبدو من الآثار التى تركوها على العظام إلى شكل أولى من أشكال الكتابة.

أصبح بالإمكان إدراك مغزى تلك الأشكال المحفورة على العظام التى عثر عليها فى منطقة «بلك ديليزيه» والتى يبدو لأول وهلة أن خطوطها المتداخلة لا تشى بمعنى ما، وتظهر للباحث العادى كأنها من الأشكال العفوية التى يخطها المرء بلا وعى أثناء إنشغال ذهنه بأمر ما أو شروده. إلا أن البحث الدقيق يظهر أنه شكل بدائى من أشكال الفنون وكان ينطوى على هدف ما وغرض محدد بلا جدال. فإن كان النتاج الفنى لإنسان الكرومانيون موجه بصفة أساسية بمعتقدات وطقوس سحرية، فإن نفس الاستنتاج يصدق على النتاج الفنى للإنسان منتصب القامة. فى الواقع، إن كانت افتراضات «مارشاك» عن الفجائيات التاريخية صحيحة، لابد أن نتوقع أن جذور الفن «الدينى» ونشأته الأولى يمتدان إلى ما قبل ظهور إنسان الكرومانيون الذى عاش فى سهوب أوربا فى آخر عصر جليدى.

تلك المكتشفات تقدم لنا أحد أهم المفاتيح التى تم العثور عليها لفهم الجوانب الغامضة فى مراحل التطور البشرى، وتقدم إجابة للتساؤل الذى طرحه «أردرى» عما فعله الإنسان منتصب القامة بمخه المطور كبير الحجم. لقد بدأ فى خلق أول شكل مبكر من أشكال العلم، والعلم فى كل الأحوال ليس إلا

محاولة لفهم الطبيعة والوجود ومن ثم السيطرة عليها باستخدام السببية المنطقية. فالشامان والساحر البدائى الذى يمارس طقوساً سحريةلضمان صيدموفق ووفير يعد عالماً لا يقل عن عالم طبيعة ذرية معاصر يبحث أدق خفايا الذرة.

هل تبدو هذه الفكرة صعبة القبول؟ إن كان هناك صعوبة فى تقبل هذه الفكرة فإنها لا تعود إلى صعوبة تقبل أن الإنسان البدائى منتصب القامة شبيه القرد كانت له أفكار على درجة معينة من التعقيد، أى أفكار مركبة. لقد أثبت علم الأنثروبولوجيا أن شعوباً بدائية عديدة فى عصرنا الحالى لها معتقدات على درجة كبيرة من التعقيد والتركيب. قد يعود السبب فى صعوبة قبول ذلك إلى إدراكنا أن الدين والمعتقدات الدينية نوع من الفكر الإنسانى المتحضر. من المستحيل طبعاً تصور غوريللا أو حصان لهما معتقدات دينية، فهما لا يملكان قدرة ذهنية على طرح تساؤلات: وهم يحيون الحياة «كما هى عليه». إن إعادة تركيب الإنسان منتصب القامة فيزيقياً وذهنياً فى الأبحاث الحديثة تظهره دائماًعلى أنه غوريللا أكثر من كونه بشرا.

الخطأ الأساسى يكمن فى إدراكنا ومفاهيمنا أن الدين أمر يتصل «بالتساؤل». وهو نفس المفهوم الذى جعل «أوجست كومت» يرى أن العقيدة الدينية محاولة فهم الوجود على ضوء وجود كينونة فوق الطبيعة، وهذا الفهم بمجمله ليس إلا نمطاً لمفاهيم القرن التاسع عشر الذى راح يتخيل الإنسان البدائى وهو يبدأ بالتساؤل «من الذى يحدث الرعد؟» ثم يتخيله يجيب «إله غاضب»، ومن ثم بنى مفاهيمه عن الإنسان البدائى بذلك النمط من التخمين. إلا أن الإنسان البدائى لم يكن يتساءل «من الذى يحدث الرعد؟» فقد كان ببساطة يعايشه ويستجيب له بمشاعره وحدسه وتخمينه.

ويقدم وصف قبيلة «التوليباغ» لمذبحتهم لأفراد قبيلة «البيشوكو» مفهوما مهماً: «كان شامان قبلة البيشوكو فى الكوخ الجماعى ينفخ فى رجل مريض. ثم توقف عن ذلك وقال: هناك أناس قادمون»، وهكذا حذر أفراد القبيلة.. وبعد دقائق أخرى حذرهم من جديد: لقد وصلوا.. فكيف تأتى له أن يدرك أن

هناك أغراباً قادمين؟ من المستحيل بالطبع أن يكون قد سمع وحده وقع خطواتهم المتسللة حتى قبل وصولهم، إلا أن الشعوب البدائية تتعامل مع تلك القوى الخارقة كأمور مسلم بها ولا تدعو لتساؤل ما.

ولم يصبح الكهنة والشامانات كهنة وشامانات إلا لأنهم يمتلكون تلك القدرات الخارقة من «بصيرة» أو «رؤية ثانية»، أو ما أطلق عليه «هايلاند سكوتس» ببساطة «البصيرة».

وفى كتابى الذى يحمل عنوان «السحر»، هناك واقعة نقلتها عن «نورمان لويس» عن شامان قبيلة «هويكون» ويدعى «رامون ميدينا» الذى أدرك بمجرد وصوله إلى إحدى القرى أن هناك جثة لرجل ميت مخفية فى مكان ما، وحدد لمرافقيه ذلك المكان وهو فراغ بسقف منزل أشار إليه. وعلق «لويس» على تلك الواقعة بقوله إن هناك «قوى خفية مقبولة ومعترف بها فى ذلك الجزء من العالم ويعترف بها أيضاً قسس البعثات التبشيرية الفرانسسكانية فى تلك المناطق البدائية، ويذكرون أنها قوى إدراكية خارجة عن نطاق الحواس البشرية المعروفة لنا.

وحتى لو كنا نميل إلى عدم الإيمان بوجود قدرات إدراكية خارج نطاق الحواس، فمن الصعب أن نتجاهل مقدرة الشعوب البدائية على تحديد مواضع تجمعات المياه الجوفية فى باطن الأرض عن طريق الإدراك الغريزى، وفى مناطق ريفية بدائية كثيرة يستعين المزارعون بما يطلق عليه «عصا التنبؤ» وهى عبارة عن عصا تنتهى بشوكة ثنائية الأطراف للاستدلال بها على مواضع المياه الجوفية، إلا أن مواطنى أستراليا الأصليين لديهم القدرة على تحديد مواضع تجمع المياه الجوفية دون الاستعانة بعصا التنبؤ الثنائية. وحين بحث العلماء تلك الظاهرة ومنهم البروفيسور «إ. روكار» من جامعة السوربون، توصلوا إلى أن المياه الجوفية تحدث تغيرات طفيفة فى المغناطيسية الأرضية على سطح الأرض. وأن تلك التغيرات يمكن الإحساس بها عن طريق عصا التنبؤ. والتفسير منطقى إلى حد بعيد، فمن الثابت أيضاً أن الطيور تقوم بهجرتها الموسمية بدقة متناهية لإحساسها بالمجال المغناطيسى للأرض واتجاهاته. وأثبتت التجارب التى

أجراها د. «روبن» فى جامعة مانشستر أن الجنس البشرى حساس بدوره للمجال المغناطيسى وإن كانت حساسيته أقل كثيراً عن الطيور؛ اصطحب د. «روبن» مجموعة من الطلاب معصوبى الأعين إلى أماكن تبعد أربعين ميلاً عن الجامعة سالكاً بهم طرقاً متعرجة حتى يفقدهم الإحساس باتجاه الموضع الذى انطلقوا منه، ثم طلب منهم أن يشيروا إلى اتجاه الموضع الذى بدأوا منه، وكانت إجابات ٦٩٪ من الطلاب مضبوطة بمحور ٤٥ درجة عن الموضع الذى بدأوا منه، وإجابات ٣٠٪ أكثر دقة بمحور خطأ ١٠ درجات فقط.

يمكننا أن نقرر بيقين أن القدرة على تحديد موضع المياه الجوفية والإحساس بالاتجاهات الصحيحة غريزياً كانت متوفرة لأسلافنا من ملايين السنين، وأن بعض من نسلهم مازال يحتفظ بتلك الملكات والقدرات. وتملأ تلك الحقائق بعض الفراغات التى دارت حولها أسئلة وتساؤلات طرحها «مارشاك»، لقد افترض باقتناع أن سلاسل النقاط الثعبانية على قطعة عظام ليست إلا رموزاً تدل على مواقيت القمر ودورته. ولكن، يطرح ذلك سؤالاً آخر، لماذا اهتم أسلافنا بمواقيت ظهور القمر؟ لقدكانوا يقومون بالصيد نهاراً لا ليلاً، وحتى لو كان هدفهم من ذلك أن يعرفوا أو يتنبأوا بمواقيت بدايات هجرة الأيائل والغزلان والأبقار البرية، فإن الخطوط الرأسية الصغيرة التى وجدت على قطع أخرى من العظام كانت تكفى لتأدية الغرض كعصا حسابات المواسم لهجرة الحيوانات أو الخروج للصيد.

فى عصرنا الحالى، نعلم أن القمر يؤثر بقوة على المجال المغناطيسى للأرض - ويظهر ذلك من ظاهرة المد والجزر - ومن المحتمل أن ذلك التأثير المغناطيسى هو الذى يحدث اضطراباً للمرضى النفسيين فى أوقات اكتمال القمر (الذى يطلق عليه الجنون القمرى)، وأثبتت الأبحاث التى قام بها «د. ليونارد راڤيتز» فى قسم الصحة العامة بجامعة ڤيرچينيا أن هناك فارقاً فى المجال الكهربائى المغناطيسى بين رأس الفرد وصدره، وأن المرضى النفسيين لديهم تذبذب كبير فى هذا الفارق مقارنة بالأشخاص العاديين، ويضطرب هذا الفارق بحدة عند بزوغ القمر الجديد وكذلك عند اكتماله. وأثبت طبيب يابانى يدعى «ماكى

تاكاتا» عام ١٩٤٠ أن معدل تخثر الدم - (دليل التخثر) - يتأثر بظهور البقع الشمسية على سطح الشمس. وبينت التجارب التى أجريت على الأشجار التى قام بها «هارولد ساكستون بير» بكلية العلوم جامعة نورثروب عام ١٩٣٠ أنها تتأثر أيضاً بظهور البقع الشمسية، وكانت أهم النتائج التى استخلصت من تجارب عديدة أن المادة الحية تتماسك ببعضها، و«تتخذ شكلاً ما» بواسطة المجال المغناطيسى لتلك المادة الحية، بالضبط مثلما تتخذ برادة الحديد شكلاً معيناً تحت تأثير مجال المغناطيس. وهذا هو السبب الذى يفسر أنه لو قتلت نصف بيضة قنفذ البحر المخصبة بإبرة ساخنة، فإن النصف الآخر ينمو نموا كاملا، ولكنه ينتج قنفذاً فى نصف حجم القنفذ العادى (قام بإجراء تلك التجربة «هانز درايش فى مطلع القرن العشرين) وأثبت ذلك أن كل نصف من بيضة قنفذ البحر يحتوى على «نسخة» كهربائية متكاملة للبيضة بأجمعها. وكان المدهش فى ذلك أن المجال الكهربى ذى شكل، مثله مثل قالب الجيلى الذى يمكن أن يحول السائل الهلامى الرخو إلى نموذج لقلعة صغيرة (وهو القالب الكهربائى نفسه الذى يجعل بعض الكائنات تنمو لها أطراف جديدة بدلاً من تلك التى بترت)، يبدو الأمر وكأن قوى الحياة تسطير على المادة بوسائل من قوى المجالات الكهرومغناطيسية.

كل ذلك يثبت أن الحيوانات تشعر بالمجال المغناطيسى للأرض؛ وكانت الدهشة تعترينا إن لم تكن كذلك. وحيث إن هذا المجال المغناطيسى الأرضى يتغير ويتأثر بتحركات الأجرام السماوية السابحة فى فراغ الكون - مثل الشمس والقمر والكواكب - فمن المرجح جداً أن أسلافنا من البشر الأوائل شعروا بالغريزة الداخلية بالرابط الذى يربط الأرض تحت أقدامهم والسماوات وأجرامها فوق رءوسهم. إن الحساسية تجاه تواجد المياه الجوفية وتحديد أماكن تواجدها وبتأثير مجالاتها الكهرومغناطيسية - كانت من الغرائز المتطورة لدى أسلافنا من ملايين السنين. وربما كانت أكثر قوة وحدة إبان أحوال الجفاف العظيم التى سادت طوال حقبة البلايوسين.

كل ذلك يرجح أن البشر الأوائل لم يكونوا بحاجة إلى «طرح أسئلة» حول

قوى الطبيعة؛ لقد شعروا بها حولهم، كما تشعر السمكة بأى تغير فى ضغط المياه عن طريق شبكة الأعصاب المنتشرة على جانبيها.

لابد أن النتيجة كانت إحساساً غامضاً بالتوحد بين الأرض والسماوات، ذلك الإحساس الذى فقده الجنس البشرى بعد ذلك من زمن طويل مضى. لم تكن معتقدات البشر الأوائل محاولة «لتفسير» الوجود، بل كانت استجابة طبيعية لقوى الوجود غير المرئية، كما تستجيب جلودهم لضوء الشمس وحرارتها.

ربما لم يقربنا ذلك من تفسير كيفية إحساس شامان البيشوكو باقتراب الأعداء. إلا أن الأبحاث الفيزيقية الحديثة تفسر تلك الظاهرة على ضوء ظاهرة التخاطر، ويجب ألا نغفل أن الشامان ذاته لن يقبل هذا التفسير للحظة واحدة. فعلى مدى التاريخ أجمع كل الشامانات الكهنة الأطباء السحرة أنهم يستمدون قواهم الخفية من «الأرواح»، خاصة أرواح الموتى. كما تعد الاستجابة لقوى الأرض فى تحديد موضع المياه الجوفية أو ضمان محصول وفير، جزء وكل من قدرة الشامان على تأسيس اتصال وتواصل بعالم الأرواح. وقد تناول تلك الأمور بأجمعها على أنها خرافات وأساطير بدائية؛ إلا أننى أعيد التأكيد أننا لن ندرك كنه النقطة المحورية فى هذه المسألة لو تناولنا الأمر على أنه محاولة لشرح وتفسير ما يحدث بعد الموت. الشامانات ذاتهم لا يؤمنون بالأرواح، هم فقط يشعرون وجودها، أو على الأقل، تنتابهم مشاعر بأشياء يقبلونها على أنها روح الوجود. ولذلك فمن غير المعقول أن يكون إنسان نياندرتال قد قام بممارسة طقوس دفن موتاه لإدراكه أن هناك حياة بعد الموت. لقد مارس طقوس الدفن لأنه شعر أنه محاط بأرواح وقوى خفية لا يراها ولكنه يحسها، وأن تلك الأرواح خليط ممن ماتوا متداخلة بأرواح عناصر الطبيعة ـ الأوليات ـ وينطبق الأمر نفسه على الإنسان منتصب القامة. وحين قام بالحفر على عظام الحيوانات (والرسم بالأحجار الملونة على الجدران الصخرية للكهوف) فإن ذلك كان جانباً من طقوس فكرة عقائدية. وإن كان قد توصل إلى أفكار عقائدية أولية، فإنها كانت مرتبطة بالضرورة بأرواح الموتى وأرواح الطبيعة. ولا تحتاج بالطبع

لافتراض أن مثل تلك الأفكار كانت تطوراً متأخراً. فلو كانت المعتقدات الإيمانية عبارة عن استجابة ورد فعل لقوى الطبيعة، فإن أصلها ربما يمتد إلى فجر ما قبل التاريخ؛ ومن المحتمل أن إنسان الرامابيثيكوس البدائى كانت لديه أفكاراً موازية عن «سحر تسهيل الصيد».

وماذا عن الأضحيات البشرية - والحيوانية - التى طالما بدت جزء من الديانات والعقائد البدائية؟ ولماذا شعر البشر الأول باحتياجهم إلى تقديم ترضية للأرواح؟

يمكننا هنا أن نشير إلى حقيقة ثابتة: وهى أنه خلال كل تاريخ السحر القديم، وعبر العصور، ومن خلال مختلف الثقافات، آمن البشر أن السحر لا يتم إلا بمساعدة من الأرواح. ومن أيام بابل القديمة وحتى قبائل البرازيل البدائية فى عصورنا الحالية، آمن كل من مارس السحر أنه لابد من تقديم ترضية للأرواح أو تقديم «تقدمات معينة» لإرضائها ويصاحب تلك التقدمات طقوس غاية فى الصرامة والتشدد.

وكما ذكرت فى كتابى «الأرواح الشريرة»، يؤمن «الروحانيون» البرازيليون المعاصرين أن الأرواح تسعد وتبتهج بمتع هذا العالم من طعام وأشربة وخمور وجنس بل حتى التمتع بالسيجار الجيد، وأن الأرواح بدورها تؤدى خدمات مقابل ذلك مثل تسهيل الصيد للصائدين.

وتجد العقلية الغربية فى مثل تلك المعتقدات نوعاً من العبثية؛ ولكن أن تفهمنا جوهر المعتقدات البدائية، سندرك أنها موجودة فى كل الثقافات عبر كل العصور، فلو كان الإنسان منتصب القامة قد قام بتقديم أضحيات بشرية. كما هو ثابت من الجماجم التى عثر عليها فى كهوف تشو - كو - تين بالصين. لابد أن نوقن أن مفهوم السحر أقدم كثيراً من الجنس البشرى.

ويفسر ذلك لماذا شغل إنسان الكرومانيون نفسه بتتبع وتسجيل مراحل القمر، ولماذا كان الفلك من أول العلوم المبكرة التى ظهرت فى سومر. وأن ذلك لم يكن نتاجاً لأنشطة فكرية حول النجوم والكواكب، ولا محاولة أولية للتوصل إلى تقويم موسمى لأغراض زراعية (كان النيل فى مصر بحد ذاته

أفضل أنواع التقاويم الطبيعية) بل كان تطوراً لمعتقدات، تطوراً لإحساس البشر أنهم جزء من كل متداخل بقوى الأرض وقوى السماء.

ويبدو أن إنسان الكرومانيون دأب على ممارسة تقديم الأضاحي البشرية فعلى الأقل، وجدت آثار أكل لحوم البشر في الأماكن التي كان يحيا بها إنسان الكرومانيون بالقرب من مدينة تشو ـ كو ـ تيين الصينية. ويجب ألا نعتبر أن ذلك دليلاً على أن أسلافنا كانوا أكثر ميلاً للعنف والقسوة والعدوانية، إذ يصدق هذا إذا اعتبرنا طقس الذبح اليهودي دليلاً على السادية، أو أن القربان المسيحي دليلاً رمزياً على أكل اللحوم البشرية. فالتضحية العقائدية تؤدى بروح يسودها إنكار الذات، في خدمة الإله، وهي على النقيض تماماً من الجريمة، التي تعد تعبيراً فردياً لتأكيد الذات.

عند منعطف ما من منعطفات التاريخ، بدأ البشر يفقدون الإحساس بالشمولية والتداخل مع الآلهة وقوى الطبيعة. وطبقاً لما ذكره «ويلز»، فإن ذلك حدث حينما تجمع البشر في تجمعات كبرى وأنشأوا المدن؛ إلا أنني أوضحت أن ذلك التفسير ليس دقيقاً على إطلاقه، فبعد ثلاثة آلاف عام من ظهور المدن الأولى، كان ملك سومر مازال يعد نفسه مجرد خادم للآلهة؛ وكذلك كان كل شعبه. يذكر «صامويل نوح كرامر» في كتابه «التاريخ بدأ في سومر»: «اقتنع عقلاء سومر وآمنوا أن البشر مخلوقات من طين، وأنهم قد خلقوا لخدمة الآلهة وإمدادهم بالقرابين من أطعمة وأشربة ومسكن لائق بالإله» ومضى زمن طويل قبل أن يتحول سكان تلك المدن ـ المعابد ـ إلى سكان مدن «ويلز» المزدحمة التي يتصادم سكانها من كثافتهم، وتحولت الجريمة من استثناء إلى قاعدة.

أما كيف حدث ذلك التحول، فهو ما يستحق أن نخصص له فصلاً خاصا لشرحه.

مســاوئ الــوعــى

ذات يوم عام ١٩٦٠ ، وقبل منتصف النهار بتسعين ثانية ، توجه طالب شاب يدعى « كلاوس جوسمان » إلى مبنى سكنى مكون من عدة طوابق في حى « توتشر جارتن ستراس » فى مدينة « هيرسبروك » بالقرب من « هامبورج » بألمانيا ، كان شابا هادئاً وجاداً يعرف عنه معارفه القليلين اهتمامه الشديد بالجوانب الغامضة من علوم اللاهوت . كان حلمه أن يعمل شماساً لكنيسة ولو فى أصغر كنيسة بأية قرية نائية ، كان يحلم بحياة يكرس نفسه فيها للخدمة .

اختار شقة من شقق المبنى بطريقة عشوائية ودق جرس الباب ، فتح الباب شاب في مقتبل العمر ، كان ذلك قبل

منتصف النهار بثلاثين. قال «جوسمان» للشاب الذى فتح له:

«سيدى، أود أن أسألك سؤالاً إلا أننى لن أكرره»

رد الشاب مستفهماً: ما هو؟

قال «جوسمان»: أتختار حياتك أم مالك؟

فى تلك اللحظة بدأت أجراس الكنائس المحلية فى الرنين معلنة انتصاف النهار، وكان صوتها يصم الآذان ويصعب معه سماع أى شيء آخر، سحب جوسمان مسدسه من جيبه وبكل عناية وتركيز أطلق النار على قلب الشاب، وبدأت خطيبة الشاب التى كانت تتطلع إلى ما يحدث من فوق كتف خطيبها فى الصراخ، فصوب «جوسمان» مسدسه إلى رأسها وأرداها قتيلة بطلقة واحدة. قبل أن ينتهى رنين أجراس الكنائس، استدار جوسمان مغادراً المبنى وعاد إلى مسكنه. بعد عودته سجل تفاصيل ما حدث فى يومياته، كان سعيدا لأنه أحكم اختيار التوقيت بالثانية حتى تضيع أصوات طلقات الرصاص فى رنين أجراس الكنائس، كما هنأ نفسه أنه كان هادئاً تماماً ومسيطراً على أعصابه.

ارتكب جوسمان بعد ذلك أربع جرائم خلال سبعة أعوام، فى واحدة منها اقتحم مكتب مدير بنك ـ وكان ذلك أيضاً فى منتصف النهار تماماً ـ واستولى على بضعة آلاف من الماركات من مكتب ذلك المدير، وارتكب جريمة أخرى ضد حارس باب بنك آخر كان قد قام بسرقته، وأثناء خروجه تصادف أن وضع الحارس يده فى جيبه ليخرج نظارته فاعتقد «جوسمان» أنه يخرج سلاحاً فأطلق عليه النار بلا تردد.

وللحصول على مزيد من الأسلحة والذخائر اقتحم متجراً للسلاح فى مدينة «نورمبرج» وأطلق النار على صاحبة المتجر كما أطلق النار على ابنها البالغ من العمر تسعة وعشرين عاماً.

كانت الجريمة التالية هى الأخيرة كما كانت سقطته التى أوقعت به، ففى يوليو عام ١٩٦٧، قام باختطاف حقيبة سيدة فى أحد المتاجر المزدحمة؛ وحين

استغاثت أطلق عليها النار إلا أنه أخطأها، وحين طارده أحد موظفى المتجر أطلق عليه النار فأخطأه أيضاً، وأنطلق يعدو شاقاً طريقه إلى الطابق الأرضى وهو يفكر فى جنون: «شىء لا يصدق ـ لا يمكن أن يحدث هذا» استدار وأطلق رصاصة أخرى فقتل الرجل الذى كان يطارده، بعدها حوصر وألقى القبض عليه.

لماذا ارتكب «جوسمان» تلك الجرائم بما فيها من إزهاق للأرواح؟ سيبادر أى طبيب نفسى بالإجابةدون تردد أنه لابد من التوصل أولاً إلى جذور مخاوفة النفسية واضطراباته العاطفية التى أدت إلى ارتكاب تلك الجرائم. (كان «جوسمان» بالفعل يقدس ذكرى والده الذى كان ضابطاً بالجيش الألمانى ولقى حتفه أثناء الحرب العالمية الثانية على أيدى القوات الأمريكية). وفى الحقيقة كان دافع «جوسمان» الأساسى: احتياجه إلى إنعاش إحساسه بذاته. كان الإحساس بضعفه يسيطر على وجدانه وأنه غير كفؤ وأنه مفكر بارع إلا أنه غير قادر على الفعل، وكانت جرائمه محاولة إرادية «لتقوية شخصيته» والقفز فوق تلك الحواجز النفسية. وكما تزداد متعة الممارسين للجنس وهم يشاهدون أنفسهم فى مرآة أثناء الممارسة، كذلك حاول جوسمان إضفاء مزيد من الإثارة على جرائمه بتسجيلها كتابة ووصفها بدقة فى يومياته التى دأب على تسجيلها بعناية. أثناء اعتقاله كتب فى جريدة السجن التى يحررها المسجونون: «هناك فارقاً كبيراً بينى وبين «راسكلينكوف» [بطل رواية الجريمة والعقاب لديستويفسكى]، الفارق هو أنه طالما لم تصل العقوبة التى سيحكم بها القاضى إلى رقبتى، فإننى لا أعد نفسى مداناً ولا مجرماً، أما «راسكلينكوف» فقد آمن دائماً أنه مجرم...». وما كتبه يظهر أن وجوده رهن الاعتقال لم يؤد إلى إفاقته من مشاعره وأحاسيسه اللاواقعية، لقد سيطر عليه هذا الشعور وهو يركض هادئاً والمطاردين خلفه على وشك الإمساك به مما جعله يتمتم: «شىء لا يصدق ـ لا يمكن أن يحدث هذا». ولكن العقوبة «وصلت إلى رقبته بالفعل، وأصدر القاضى حكماً بسجنه مدى الحياة ورفض أى استئناف أو أى فرصة قانونية لإطلاق سراحه لأنه يشكل خطراً مؤكداً على المجتمع المدنى.

تتضح بجلاء في حالة «كلاوس جوسمان» العلاقة بين الجريمة والاحتياج الشديد للإحساس بالذات لدى المجرم. لو كان لدى «جوسمان» الوعى البسيط لحيوان، فإنه لم يكن ليملك القدرة على ارتكاب جريمة واحدة. أغلب الشباب يمرون بذلك الاحتياج لتعميق الإحساس بذواتهم، كما يسيطر عليهم الإحساس بالحسد والإعجاب تجاه الشخصيات التي تتسم بقوة الشخصية مما يظهرهم بمظهر من يعرف «قدر نفسه» (وكان ذلك بلا شك من أساسيات إعجاب «جوسمان» بأبيه).

إن أغلب ممارسات الشباب والتي تبدو في أشكال متنوعة - من ارتداء أزياء غريبة وقيادة السيارات بسرعة فائقة تتجاوز ١٥٠ كيلو متراً في الساعة - ليست إلا سلوكيات تسعى إلى تأسيس إحساس بالذات. لا يعاني الكلب من تلك المشاعر والمشاكل، فليس لديه إحساس بالذات. وبالتالي، لا يمكنه «ارتكاب جريمة» بالمعنى البشرى الذى يفهم من العبارة. الجريمة في المقام الأول تأكيد لـ «أنا»، وأكثر الضمائر تكراراً على لسان أى متحدث هو ضمير «أنا»، وتسمعها على كل لسان في شتى العبارات، «أنا» لكمت فلاناً، «أنا» أمرت موظف البنك بتسليمي النقود، «أنا» الذى أصبت فلاناً، ومن الواضح تماما أنه بدون هذا الإحساس العالى والمرتفع بالـ «أنا» لم تكن لتحدث أى جريمة. لو طارد كلب راعى الأغنام القطيع وأفزعه وضربه الراعي ونهره عن ذلك، فإنه سيكبح لديه بعد ذلك أى دافع لمطاردة الأغنام حتى لو كان بعيداً عن عين الراعي لأنه سجل في عقله أن مطاردة الأغنام من الممارسات الممنوعة. إلا أن اللص الذى يقضي خمسة أعوام بالسجن - وهى عقوبة أقسى بمراحل من الضرب والزجر - يتجاهل كابح العقوبة بمجرد أن يمر بنافذة مفتوحة في دور أرضي يرى فيها فرصة سانحة للسطو على ذلك المنزل. ولذلك فالمشكلة البشرية لا تتعلق فقط بمسألة الاستجابة (الجريمة)، والكابح (العقوبة). لأن هناك عنصر ثالث يحكم الموقف وهو خاص فقط بالجنس البشرى ألا وهو إحساس اللص أو الفرد البشرى بذاته، وبشخصيته وكينونته. إن الفرصة التى يراها سانحة أمامه فجأة تواجهه بتحدى لتأكيد ذاته: «من المحتمل أن أفوز بالفرصة وأهرب». وإذا حصل على الفرصة ونجح في الهرب، فإن أول ما يشعر

به إحساس بالظفر وتهنئة لذاته: «لقد نجحت فى اهتبال الفرصة ونجوت»، كان ذلك هو الإحساس ذاته الذى سجله «كلاوس جوسمان» فى مذكراته بعد جريمته الأولى. وحين يصبح المرء قادراً لأول مرة على تهنئة ذاته ـ وهو شكل عام من أشكال الوعى بالذات ـ فإنه يصبح قادراً على ارتكاب جريمة. أما التساؤل عن توقيت حدوث ذلك بدقة، فإنه قد يبدو تساؤلاً بلا إجابة.

ولكن، حدث بعد ذلك أن ظهرت نظرية مدهشة أثارت جدلاً واسعاً طرحها د. «جوليان جاينيس» من جامعة برنستون فى كتاب له أسماه «أصل الوعى فى انهيار الفكر ثنائى التصور» (نشره «هوتون ميفلين» فى بوسطون عام ١٩٧٦). بعد صدور الكتاب كانت كل ردود الأفعال كلها ضده بلا استثناء، وكان من السهل تفهم أسباب ذلك. فطبقاً لما ذكره «جاينيس»، فإن كاتبى العهد القديم (التوراة)، وكاتبى ملامح جلجامش والألياذة والأوديسة، كان ينقصهم تماماً ما يسميه «الإحساس بالذات»، كان وعيهم ينظر إلى خارج ذواتهم، تجاه العالم الخارجى كما يبدو من تحليل النصوص، لم يكن لديهم القوة ولا القدرة على النظر إلى داخل ذواتهم. يقول «جاينيس» عن الشخصيات الهومرية: «لا نستطيع أن نجد مدخلاً ننفذ منه إلى ذوات أولئك الأبطال الأسطوريين ولا فراغات ننفذ منها إلى ما خلف نظراتهم المتفرسة القوية.. الرجل الإلياذى ليس لديه موضوعية كموضوعيتنا؛ ولا يملك وعياً عن وعيه بالعالم، لا توجد منافذ ذاتية نفحص من خلالها أفكارهم».

وهى فقرة محيرة، لأننا معتادين على «النظر إلى داخل ذواتنا» عندما يكون علينا اتخاذ قرار ما، فنحن فى حوار دائم مع الذات مثل «هل أسافر بالقطار أم بالسيارة العامة؟» نحاور أنفسنا تماماً كما نتبادل الحوار مع شخص آخر خارج ذاتنا، حتى إنه من الصعب أن نتخيل أنه يمكننا اتخاذ أى قرار دون تداول الأفكار مع أنفسنا ووضعها موضع البحث والمفاضلة، صحيح هناك قرارات لحظية أو ردود أفعال فورية، فعند نزولنا مثلاً من رصيف أحد الشوارع إلى نهر الطريق لعبوره قد نفاجأ بحافلة برزت بالكاد من تقاطع الطريق، فى الحال نتراجع بسرعة عائدين إلى ما فوق الرصيف دون إضاعة ثانية فى تفكير أو

تردد ؛ إلا أن هذا يعد أبسط أنواع «القرارات». فإذا ما كان عليك أن تقرر هل تسافر بالحافلة أم بالقطار، لابد أن تكوّن صورة ذهنية للوسيلتين ثم تقارن بينهما، وهنا تجد نفسك ناظر إلى داخل ذاتك. ومن المستحيل تماماً أن نتخيل أن الملك «سليمان» أو «أوليس» قد اتخذا قراراتهما التاريخية دون أن يمرا بنفس العمليات الذهنية.

وطبقاً لما ذكره «جاينيس» في نظريته، فإنهم كانوا يسمعون أصواتا تخبرهم عما يجب عليهم اتخاذه من قرارات: أصوات تأتيهم من داخل رءوسهم. لقد أصبح جاينيس على اقتناع تام بذلك بعدما مر بتجربة مماثلة. يقول عن تلك التجربة: «كنت متمدداً عصر ذات يوم على أريكة في حالة يأس فكري عميق، فجأة، قطع الصمت والهدوء السائد في المكان صوت عال حازم مميز أتى من الجانب العلوي الأيمن قائلاً: «اقرن العارف بالمعروف» ـ نهضت من رقدتي فزعاً قائلاً: «مرحى؟ من هناك؟»، درت مستطلعاً أرجاء الغرفة، كان للصوت حين سمعته مصدراً محدداً أتى منه، ولكن لم يكن بالغرفة أحد غيرى على الإطلاق» لقد كان تهيؤاً سمعياً، ودفعت هذه التجربة «جاينيس» لدراسة الظاهرة. واكتشف أن أعداداً لا نهائية من البشر العاديين قد مروا بتجارب مماثلة من التهيؤات السمعية. وفي النصوص القديمة ـ كالتوراة والألياذة ـ لم يجد «جاينيس» أي دليل على وجود أي نوع من أنوع البحث العقلي الذاتي ـ على العكس من ذلك، وجد قدراً هائلاً من الهلاوس السمعية ـ التي فسرت على أنها صوت الإله، أو أحد الآلهة.

لتدعيم هذا الجانب من نظريته ارتكز «جانييس» على نتائج أبحاث علمية حديثة نسبياً عن المخ البشرى، وهى أبحاث المخ المنقسم ونتائجها التي توصل إليها «روجر سبرى» عام ١٩٥٠ ونال عنها جائزة نوبل. فالمخ البشرى مقسوم إلى نصفين، يظهران كأنهما شكل وصورته في المرآة. والجزء المتميز في المخ البشرى، هو ذلك الجزء السطحي العلوى الملامس لقمة الجمجمة من الداخل، أو ما نسميه القشرة المخية التي تشبه في شكلها إلى حد كبير نصفي ثمرة البندق. ويتصل النصفان من الوسط بقنطرة سميكة مكونة من ألياف عصبية

يطلق عليها «الجسم الجاسىء».

فى عام ١٩٣٠ اكتشف العلماء أنه يمكن السيطرة على نوبات الصرع بقطع تلك القنطرة، وبالتالى تمنع «العاصفة الكهربائية» التى تجتاح سطح المخ من المرور من نصف المخ إلى النصف الآخر. ومن العجيب أن قطع تلك القنطرة لم يؤد إلى أى خلل فى وظائف المخ بالنسبة للمريض الذى أجريت له تلك الجراحة وظل يمارس عمله كما كان يمارسه قبل قطع تلك القنطرة. إلا أن «سبرى» اكتشف اكتشافاً عظيماً (وهو ما نال عليه جائزة نوبل) وهو أن المريض ذا المخ المنقسم الذى قطعت قنطرته يتحول فى الواقع إلى شخصين؛ إلا أنهما يظلان يعملان فى تعاون وثيق لدرجة لا يلحظ معها أحد بسهولة أنه شخصين، ولا يظهر ذلك إلا بتعريض المخ لتجارب معينة تمنع جانبى المخ المنفصل من التعاون فيبدأ الفارق فى الظهور.

فى منتصف القرن التاسع عشر توصل العلماء إلى أن نصف المخ الأيسر يتحكم فى وظائف الكلام والتفكير المنطقى، وأن نصف المخ الأيمن خاص بالبديهة والحدس والتعرف على الأشكال والأنماط. فإذا تعرض امرئ لتلف فى قشرة المخ اليسرى فإنه يعانى من صعوبات فى الكلام إلا أنه يظل قادراً على تذوق الفنون والاستمتاع بالموسيقى. أما إذا تعرض لتلف فى الجانب الأيمن فإنه يتحدث بطلاقة وبمنطق إلا أنه لا يستطيع أن يرسم أبسط الأشكال. والعجيب أن النصف الأيسر من المخ هو المسيطر على النصف الأيمن للجسم والعكس صحيح بالنسبة للنصف الأيمن من المخ. فإذا وضع مفتاح فى اليد اليسرى لمريض منقسم المخ (أى تم قطع الجسم الجاسئ وهو القنطرة الواصلة بين نصفى مخه) ولم يسمح له بالنظر إلى ما وضع بيده، فإنه يدرك صفات الشيء وملمسه. إلا أنه لا يمكنه أن يعرف كنهه ولا يستطيع أن «يسميه». ولو سُئل: ما الذى بيدك اليسرى؟ فإنه لا يستطيع الإجابة، ويبدو الأمر وكأن هناك شخص اسمه «أنت» يسكن فى نصف مخك الأيسر، إلا أنه ليس لديه أى فكرة عن الشيء المخفى فى كفك الأيسر.

أما فيما يخص العينين فإن الأمر يبدو أكثر تعقيداً، فنصف الألياف البصرية

لكل عين متصل بالنصف الأيسر للمخ والنصف الآخر من الألياف البصرية لكل عين متصل بالنصف الأيمن للمخ. ولو طلب من أحد مرضى المخ المنقسم أن ينظر بتمعن فى اتجاه ما إلى شىء بذاته فإن ما ينظر إليه سيراه فقط إلى يمين أو يسار المجال البصرى ولن يكون ما ينظر إليه فى وسط المجال البصرى مهما حاول، وإذا طلب منه أن ينظر إلى برتقالة بالعين اليمنى وإلى تفاحة بالعين اليسرى وطلب منه أن يكتب ما يراه فى تلك اللحظة بيده اليسرى فإنه سيكتب «برتقالة» ولو طلب منه أن يقرأ ما كتبه، سيقرأ «تفاحة». وعرض أحد العلماء صورة خليعة على مريضة من ذوات المخ المنقسم وأراها لها بالعين اليمنى، فاحمرت خجلاً، حين سألها عن سبب خجلها، أجابت بصدق «لا أدرى».

من كل ذلك نتبين أنك تسكن فى نصف مخك الأيسر، وأن الشخص الموجودفى الجانب الأيمن غريب عنك.

وبالرغم من الاحتجاج المتوقع بأن ذلك لا ينطبق على الأغلبية الساحقة من البشر لأنهم غير منقسمى المخ، إلا أنه احتجاج غير صحيح. فالمرضى منقسمى المخ حين يعلمون أن قنطرتهم المخية قد قطعت، أى يعلمون أنهم قد قطعوا عن نصفهم الآخر، لا يلاحظون فى الواقع أى فارق استجد عليهم، مما يوحى على الجانب العملى أنهم كانوا أصلاً منقسمى المخ حتى قبل إجراء جراحة فصل قنطرة المخ. وفى الحقيقة، سنتبين بقليل من التفكير أننا جميعا مرضى منقسمى المخ. حين ينتابنى حدس أو تخمين أو «إحساس باطنى»، فإن هذا الحدس أو التخمين أو الإحساس الباطنى يسرى فى نصف مخى الأيسر. الذى هو وعىَ، أو ذاتى اليقظة التى تجعلنى أبعد عن هيمنة «الذات» الأخرى (والتى تبدو وكأنها بوابة من وإلى اللاوعى).

ويرى جانييس أن التهيؤات السمعية تكمن فى نصف المخ الأيمن، ويفترض أن أبطال «هوميروس» فى «الألياذة» حين كانوا يستمعون إلى صوت الآلهة تنصحهم وترشدهم إلى ما يجب عليهم عمله، فإن تلك الأصوات كانت تصدر من الجانب الأيمن من المخ، وتسمع فى الجانب الأيسر وكأنها آتية من مكبرات

للصوت أو آتية من السماء.

لقد بينا في الفصول السابقة أن ملوك مصر القديمة وملوك ما بين النهرين اعتبروا أنفسهم متحدثين باسم الآلهة، وهو ما يبدو وكأنه يعطي دعماً لنظرية «جاينيس».

يرى «جاينيس» أن البشر بدأوا في التوصل إلى لغة بعد أن بدأت تتبلور على شكل صيحات بسيطة، صيحة منها بنغمة معينة تعني خطر، وصيحة أخرى بنغمة مغايرة تعني «طعام»، وأن ذلك بدأ في عصور حديثة نسبياً لا تزيد عن سبعين ألف سنة مضت، وأن البشر لم يتمكنوا من التحدث بجمل بسيطة متكاملة إلا في عصور أحدث - أي فيما بين ٢٥ إلى ٥٠ ألف عام مضت. وبالرغم من أن البشر أصبحوا في ذلك الوقت أصحاب لغة، إلا أن وعيهم بذواتهم لم يكن قد تطور بعد. أي أنه لو ضربنا مثلاً على حال البشر في تلك العصور المبكرة قبل تطور الوعي بالذات برجل أمر أن يذهب ليسد مجرى مائي من بدايته فإنه لم يكن يملك وسيلة تمكنه من تذكير نفسه بما يجب عليه فعله حين يصل إلى بداية مجرى الماء، فتذكير ذاته بما يجب عليه عمله يتطلب أولا وعياً بالذات. ربما كان يلجأ بالطبع إلى تكرار التعليمات التي صدرت إليه وهي الكلمة التي تعني قطع المجرى المائي حتى يصل إلى بداية مجرى المياه ثم يبدأ مخه الأيمن في توفير الدعم له حتى لا ينسى ما طلب منه أو ما أمر به. أغلب البشر المعاصرين يأمرون لا وعيهم بإيقاظهم في السادسة صباحا، وبالفعل يستيقظون بلا أي وسائل مساعدة في الوقت المحدد تماماً. وعلى ذلك كان المخ الأيمن للبشر الأوائل يعيد الكلمة التي تعني قطع مجرى مائي حتى يصلوا إلى الموضع المطلوب، وسيسمع ذلك وكأنه صوت ربما صادر من الهواء فوق النصف الأيسر للمخ.

يفترض «جاينيس» أن ذلك التطور قد حدث في زمن ما بعد اكتشاف أول زراعة بدائية، أي منذ عشرة آلاف عام قبل الميلاد. كان ذلك في وقت بدأ فيه البشر يعيشون في تجمعات أكبر، وكفوا أن يكونوا مجموعات صيد صغيرة تحيا في كهوف، وتحولوا إلى تكوين مجموعات أكبر تصل إلى مائتي فرد تحيا

في تجمعات سكنية تصل إلى خمسين مسكناً متجاورة جميعاً في تجمع سكني واحد.

ومجموعة بهذا العدد لابد أن تحتاج إلى قائد أي إلى ملك، وحين كان ذلك الملك يموت، كانت رعيته تظل تسمع صوته، وبالتالي كانوا يعتقدون أنه مازال حياً ولكنهم لا يرونه - أي أصبح إلهاً. وكان ذلك كما يذكر «جاينيس» كيفية بداية تفكير البشر في وجود آلهة. لذلك كانت الحضارات البشرية المبكرة كما يذكر «جاينيس» حضارات «ثنائية». أي كان البشر فيها غير مسئولين عن أفعالهم، فقد كانوا يطيعون «أصوات» الآلهة. ثم بعد ذلك، وبتدرج طويل المدى، بدأ الوعي (إدراك الذات) في التطور. وكان ذلك عائداً إلى توفر عديد من الأسباب، كان على رأس تلك الأسباب التوصل إلى الكتابة في زمن ما قبل الميلاد بثلاثة آلاف عام على وجه التقريب، فقد أدت الكتابة التي كان الغرض منها على وجه التحديد تخزين المعلومات إلى نوع جديد من التعقيد البشري.

لأنه بمجرد أن أبدأ في تخزين معلومات، أجد نفسي مجبراً أن أصبح أكثر تعقيداً، سواء رغبت بذلك أم لم أرغبه، والمثل الواضح الدلالة لبيان ذلك هو المكتبة. فحين أبدأ في اقتناء الكتب لأنني أجد متعة في الهروب من واقع الحياة بالقراءة، تتضخم مقتنياتي من الكتب، وأجد لزاماً عليَّ أن أتوصل إلى شكل تنظيمي معين، أي أصنع رفوفاً لصفها فوقها، ثم أتوصل إلى نظام معين للتصنيف، قد يضايقك هذا الاضطرار الذي يتطلب كثيراً من الجهد والتفكير. إلا أن البديل هو أن تتعثر في أكوام من الكتب ملقاة على الأرض ومبعثرة في كل مكان فتضطر إلى التخلص منها، بعد ذلك تجد أن عليك أن تعلم نفسك المبادئ الأولية لاقتناء مكتبة وتصنيفها والمحافظة عليها في إطار أنساق معينة. وسواء أحببت ذلك أم لم تحبه، لابد «أن تكون منظماً».

لذلك أدى التوصل إلى الكتابة إلى نوع جديد من التعقيد عمق أكثر وأكثر العقل ثنائي التصوير (قدمت أدلة في الفصل الأول من كتابي الذي يحمل اسم «الباحثون عن النجوم» تثبت أن الهرم الأكبر الذي يعود تاريخ بنائه إلى عام ٢٥٠٠ ق. م، وكذلك الآثار العظمى مثل «ستون هنج» قد شيدت لتقوم بعمل

الحاسوب في عصرنا، وأن الغرض منها كان تمكين الكهنة من التوصل إلى جداول فلكية تمكنهم من متابعة تحركات الأفلاك والأجرام السماوية)، عدا ذلك، كان الألف الثانى قبل الميلاد هو عصر الكوارث غير المسبوقة التى شكلت ضغوطاً عظمى على البشر، فـ «حضارات كبرى مسحت مسحاً من على وجه الأرض، وتحول نصف البشر إلى مشردين، وأصبحت الحروب التى كانت تقع فى عصور متفاوتة، متسارعة الوتيرة وتحتوى على قدر كبير من الدمار وبتكرار مسعور قرب نهاية الألفية الثانية قبل الميلاد، تلك النهاية المظلمة شديدة الدموية، وأدى الانفجار العظيم لبركان جزيرة سانتورى - حوالى ١٥٠٠ ق. م - إلى دمار شامل لحضارات منطقة البحر المتوسط، ثم وقعت المنطقة فيما بين ١٢٥٠ - ١١٥٠ ق. م فريسة لغزوات جحافل بشرية قادمة من شرق أوربا عرفت تاريخياً باسم «شعوب البحر»، التى راحت تنهش الحضارات النازفة كما تنهش أسماك القرش ضحاياها. تحت كل تلك الضغوط، لا تستطيع العقلية القديمة التى كانت تشبه عقلية طفل أن تتوائم. وكان على البشر الباقين على قيد الحياة والمناط بهم بناء حضارات جديدة أن يطوروا صفات جديدة من الكفاءة والقسوة. إلى جانب ذلك، تطلب ذلك القدر الكبير من العنف استجابات ذهنية أكثر حدة، «فاجتياح موطنك وبيتك من قبل بعض الغزاة، ورؤية زوجتك تغتصب أمامك، واستجابتك لأصواتك الداخلية، وطاعتك لها ستدفعك إلى الاستجابة الفورية والحادة، بما يؤدى إلى هلاكك أنت أيضاً، ولكن إن استطعت أن تكون شخصاً فى داخلك، وشخصاً آخر فى خارجك، واستطعت أن تكتم غضبك ورغبتك فى الانتقام خلف قناع ظاهرى من القبول والتسليم بالموقف الحتمى الذى تواجهه، فإنك قد تظل على قيد الحياة».

ظهرت أول علامة على ظهور ذلك «التحول العقلى» كما يذكر «جانييس» فى منطقة ما بين النهرين، فحوالى عام ١٢٣٠ ق. م قام الطاغية الآشورى «توكولتى نونورتا الأول» ببناء مذبح صخرى عليه نقش مصور يظهر فيه وهو ينحنى أمام عرش «خاوى» للرب. فى النقوش المبكرة التى سبقت ذلك النقش. كان الملوك يظهرون واقفين يتحدثون إلى الآلهة. أما فى ذلك النقش فقد ظهر

الملك وحده واختفى الرب من النقش. وهناك نص بالمسمارية ينتمى إلى الزمن نفسه يقول:

«من لا إله له، يلم به صداع الرأس مثلما تحيط الملابس بالأبدان».

فالصداع ينتج عادة عن التوتر العصبى. ومن فقدان الاتصال بالحدس والبديهة والإدراك الذاتى. وحين يعانى أى إنسان من ضغوط، فإنه يستجيب عند مواجهة مشاكل وصعاب بمزاج حاد وافتقاد لطبيعته التى جبل عليها.

ويذكر «جاينيس» أنه عند هذا المنعطف التاريخى أصبحت القسوة شائعة بين البشر لأول مرة، حيث بدأت تظهر فى تلك المرحلة التاريخية نقوشاً لرجال ونساء مخوزقين وأطفال مقطوعى الرءوس فى النقوش الآشورية. وكان ذلك حجر الزاوية فى نظرية «جاينيس» التى أثارت جدلاً شديداً حول بداية إدراك البشر لذواتهم وما ترتب على ذلك الإدراك من ظهور للجريمة بين الجنس البشرى، وتطرح تلك الرؤية فيما يخص تلك المسألة اعتراض مباشر وهو أنه من المستحيل أن نتخيل وجود بشر على درجة عالية من التعقيد مثل سارجون الأكادى وحمورابى - السابقان لذلك المنعطف التاريخى - دون أن يكونوا مدركين لذاتهم ودون أن يكون قد تطور لديهم وعى بالذات. ويرى «جاينيس» أن الوعى يعد غير مهم على وجه التقريب - أو غير ضرورى جداً - كما نظن؛ فعازف البيانو يؤدى مجموعة معقدة جداً من العمليات بينما يكون ذهنه فى مكان آخر أو مشغولاً بأفكار أخرى، وأنه لو ركز وعيه على حركة أصابعه، فإنه سيعزف بشكل سيء. إلا أن هذا المثل خادع.

فالمرء عليه أن يتعلم أولاً العزف على البيانو ببطء وبتركيز من الوعى على كل حركة من الأصابع، ويكرر ذلك مرات لا تحصى بدأب وصبر ومران متكرر ومتواصل حتى يصل إلى درجة يتمكن معها من العزف بتلك الآلية. فإن كان لم يمتلك وعياً بالذات، فإنه لا يمكن أن يتعلم العزف، لأن العزف - مثله مثل أى فعل معقد ومركب آخر - يتضمن نقداً للذات. وهناك اعتراضات أخرى قوية الحجة على هذا الجانب من نظرية «جاينيس». فقد أجرى البروفيسور «جوردون جالوب» فى جامعة ولاية نيويورك مجموعة من التجارب لمعرفة إن كانت

الحيوانات قد تطور لديها وعى بالذات أم لا. وضع حيوانات مختلفة ـ سبعين نوعاً من الحيوانات ـ فى أقفاص بها مرايا وبعد أسابيع قام بتخدير الحيوانات ودهن وجوهها بلون أحمر (مستعملاً أصباغاً عديمة الرائحة). وراح يراقب الحيوانات عند إفاقتها من المخدر ليرصد إن كان الحيوان قد أدرك بعد إفاقته أن وجهه قد تم صبغه. حين يرى صورته بالمرآة. لم يعِ من كل الأنواع الحيوانية التى أجريت عليها التجارب أن وجهه قد صبغ إلا نوعان هما الشمبانزى وفصيلة قردية أخرى تسمى «أورانج ـ أو تانجز» مثلهم مثل البشر فى إدراك ذلك. أما باقى الأنواع فلم يظهر لديها أى درجة من درجات الاهتمام حين شاهدت وجوهها فى المرايا مصبوغة بلون أحمر، وسلكت أغلب الأنواع سلوكاً بين أنهم تعاملوا مع صورهم فى المرايا وكأنها لأعضاء آخرين من نفس النوع حين حاول بعضهم التودد وحاول البعض الآخر مهاجمة صورهم فى المرايا، بضع تلك الأنواع ظلت تسلك السلوك ذاته حتى بعد مرور أعوام من تعودها وجود المرايا بالأقفاص، مظهرين عدم قدرة كلى على التعرف على الذات.

ومن الملفت للنظر أن الغوريللا كانت من بين الأنواع التى لم تتمكن من التعرف على ذاتها، وهو أمر ملفت للنظر لأن الغوريللا تنتمى بشكل مباشر لجنس الشمبانزى وقرود أورانج أوتانج، غير أن هناك فارق واحد وأساسى: فمخ الغوريللا أقل انقساماً عن أمخاخ الشمبانزى والأورانج ـ أوتانج، أى أنه لم ينقسم بعد إلى «توأم متماثل»، ويفسر ذلك لماذا تفتقد الغوريللا إدراك الذات.

توصل «جالوب» بعد تلك التجارب أنه بمجرد أن يطور الحيوان وعيا بذاته، فإنه يبدأ فى التفكير والتأمل فى وجوده، وإذا وصل الكائن إلى التأمل والتفكير فى وجوده، فإنه يدرك أنه سيفنى. وقد رأينا فى الفصل السابق أن إنسان نياندرتال كان يدفن موتاه بطقوس واعية، والتى تدل بكل تأكيد على أنه كان مدركاً لفنائه.

إذن، كان إنسان نياندرتال يمتلك إدراكاً للذات. مرة أخرى يرد «جاينيس» على ذلك الاعتراض بأن الإنسان توصل إلى فكرة الآلهة فى مرحلة ما، بعد العشرة آلاف عام ق. م، حين بدأ «يسمع أصواتاً». ورد المعترضون بأن الأقراص

والكرات التي صنعها إنسان نياندرتال توحي بأنه كان يعبد الشمس والقمر . وفي الحقيقة، إذا اكنت الجماجم المثقوبة التي عثر عليها في كهوف «تشو ـ كو ـ تيين» بالصين كانت جماجم أضحيات طقسية، فإن ذلك يعني أن الإحساس الديني لدى البشر ربما كان يعود إلى ما هو أبعد من نصف مليون عام.

كل ذلك يترك أقل القليل من نظرية «جاينيس» واقفاً على أقدامه. إلا أن الفحص الدقيق لمحتوى النظرية يظهر أن ذلك غير صحيح، فمن وجهة نظر «جاينيس»، تكمن المشلكة في أنه يحدد ويربط بداية ظهور الوعي بالذات بتطور «العقل ثنائي التصوير» كجوهر لنظريته، وهو في الحقيقة ربط غير ضروري، فالإنجاز الحقيقي لجاينيس يكمن في كشفه عن اكتساب البشر لذلك الوعي بالذات في مرحلة متأخرة من تاريخهم. وأنه بمجرد اكتساب البشر لذلك الوعي بالذات، حدثت تداعيات كثيرة تتفق تماماً مع الأبحاث التي دارت حول العقل البشرى المنقسم. حين يكون وعي المرء مركزاً على جانب عملي كقيادة سيارة مثلاً في وقت ذروة الازدحام، تظهر التخطيطات الكهربائية للمخ أن النصفين يعملان أثناء ذلك «بلا تماثل» ـ ويظهر التخطيط أن أغلب النشاط المخي يدور في النصف الأيسر من القشرة المخية أثناء قيادة السيارة. وحين يتعمق المرء في ممارسة اليوجا ويدخل في حالة من الاندماج والتوحد (النيرفانا)، تصبح موجات تخطيط المخ متماثلة في نصفي المخ أي أنهما يعملان في ذلك الوقت في تناسق. وندرك ذلك بأنفسنا حين نكون في حالة استرخاء عقلي شديد، ففي تلك اللحظات ينتابنا إحساس أنقى بالواقع، ونشعر أننا على «تواصل أكمل» بالعالم من حولنا. وعلى العكس من ذلك، كلما تعرضنا لضغوط أكبر، فقدنا الإحساس بالواقع، وينتابنا إحساس غامض بفقدان الإحساس بالواقع لا نعود «نؤمن» معه بوجود واقع خارجي ـ فالوجود الخارجي يتحول ليشبه نوعاً من الأحلام.

وبالرغم من ذلك العيب غير المرغوب فيه، كان «اللاتماثل» بين نصفي المخ إنجازاً تطورياً مهماً جداً للبشر.. فالغوريللا لا تستطيع (افتراضاً) أن تكون «لا متماثلة»، فهي لا تملك القدرة على فصل جانب من تفكيرها في عملية الحياة

كمجمل. ويتحول البشر إلى الحالة نفسها تحت تأثير الكحول؛ فيصبحوا عاجزين عن قراءة موضوع تجريدى، كما يعجزون عن متابعة ومناقشة العمليات الحسابية. الوعى «اللامتماثل» بين نصفى المخ يتيح لنا مكاسب لا نهائية من القدرات الذهنية. لقد علق «فاجنر» على أمر مماثل ذات مرة قائلا: «الفن يجعل الحياة تبدو كمباراة، وتسحب وعينا بعيداً عن المصير المحتوم». فى الحقيقة، كل الأنشطة الفكرية تنطوى على تلك القوة التى تفصل أذهاننا ووعينا عن الحياة، وتدفع الذهن إلى التحويم كما يحوم الصقر بعيداً عن عالم المادة.

لقد كان هناك زمن ما فى التاريخ البشرى لم نكن اكتسبنا فيه بعد «اللاتماثل» ـ حينها، كنا كالسكارى الأبديين كما كان لذلك ميزة مماثلة لميزة المخدر ـ ذلك الإحساس بالراحة والارتخاء، الإحساس «بالانتماء» وأننا فى منزلنا فى هذا العالم. إلا أن ذلك كان يعنى أيضاً عدم امتلاك القدرة على الانفصال عن اللحظة المعاشة، وكذلك عدم امتلاك القدرة على عصيان أو مقاومة الإلحاح اللحظى الفورى للغرائز.

قد يكون معقولاً أن نفترض نظرياً أن العقل البشرى قد بدأ فى «اللاتماثل» حين تطورت لديه القدرة على استعمال اللغة، إلا أن الأطفال المصابين بتلف النصف الأيسر للمخ يستطيعون استعمال النصف الأيمن فى تعلم لغة ـ حين يبلغون السابعة وليس قبل ذلك، ففى سن السابعة يبدأ نصفى المخ فى التخصص والتمايز. فلو كان أسلافنا الأوائل ذوى المخ المتماثل يبدون طوال حياتهم كأطفال تحت سن السابعة، فإن توصلهم إلى استعمال لغة لم يكن ليؤدى بالضرورة إلى «لاتماثل» عقلهم.

من السهل تماماً تخيل المزارعين الأوائل، أى أول بشر يمارسون الزراعة، أو تخيل أول بناة للمدن كبشر بسطاء ذوى عقل «أحادى التصوير»، فالمدن الأولية البدائية لا تختلف كثيراً عن مساكن النمل أو أعشاش الزنابير. إلا أن المدن الأولية جعلت من الحرب تطوراً محتوما. كيف؟ يحكى روبرت آردرى قصة عالم الحيوان س. د. كاربنتر الذى قام بنقل ٣٥٠ قردا من فصيلة

«رايزاس» إلى جزيرة نائية فى «بويرتوريكو» ، لدراسة التغيرات السلوكية التى تطرأ عليها تحت وطأة ظروف بيئية أقسى. حين كانت القرود فى بيئتها كانت تختار «موطناً» ـ شجرة معينة أو مجموعة أشجار ـ وتحيا جميعاً فى سلام مع باقى المجموعات من جنسها.

بعد أن وضعها «آردرى» على ظهر الباخرة لنقلها أصبح ذلك مستحيلا. فرض «كاربنتر» على القردة أن تظل جائعة لفترات، لتعويدها على أصناف مختلفة من الطعام عما اعتادت عليه. بعد ذلك بدأت الأمهات تخطف الطعام من صغارها، كما كف ذكور القرود عن الدفاع عن إناثهم ضد اغتصاب الذكور الآخرين لهن، وارتفعت معدلات وفيات الصغار بشكل حاد. وبمجرد أن وصلوا إلى الجزيرة، عاد القرود إلى تنظيم أنفسهم فى مواطن مختلفة، ثم عاد الذكور للدفاع عن إناثهم ضد هجمات الذكور الأخرى، وبدأت الأمهات فى الدفاع عن صغارها وإضفاء الحماية عليها. وتوصل كاربنتر إلى أنه بدون موطن تتآكل غريزة حفظ النوع لدى القرود وتتزايد غريزة حفظ الذات.

ومن الغريب أن البشر يتحولون إلى نفس الحال إذا تعرضوا لظروف وأحوال مماثلة. فحين أصبح مخططو المدن يخططون المدن الحديثة التى تحتوى على ناطحات سحاب ومبانى شاهقة تحتوى على عدد هائل من الشقق وممرات طويلة تغص بالبشر. زادت معدلات تحطيم الممتلكات العامة والخدمات العامة كما زادت معدلات السلب والنهب بشكل حاد، وتم إلغاء كثير من وسائل العرض والإعلان والإعلام المتطورة لتعرضها للتخريب المستمر. ولما حاول بعض المصممين تطبيق بعض المعارف عن «التوطن» فى تصميماتهم وذلك بإحلال المنازل الصغيرة المنفصلة ذات الحدائق الأمامية محل الشقق الكثيرة فى العمارات الشاهقة، هبط معدل الجريمة وكاد أن يختفى.

فى المدن الأولى التى بناها البشر، كانوا مازالوا يمتلكون موطنا فرديا وشخصياً. وبعد أن بدأت تلك المدن فى إقامة أسوار تحيطها لحمايتها فى الوقت الذى يتزايد فيه سكانها، كان الازدحام حتمياً، وكانت النتائج مماثلة لما حدث بين قردة «كاربنتر» ومماثلة لما يحدث بين سكان البنايات الشاهقة المكتظة وهى:

الجريمة، تحطيم الممتلكات العامة والخدمات المشتركة أو الاستيلاء عليها، والعدوان بلا حدود. في البداية، كان يحد من تفشي تلك الظواهر كوابح دينية قوية. وتدل كل البراهين التاريخية أن العنف والجريمة قد بدءا في الظهور بعد عام ٢٠٠٠ ق. م وهو التاريخ الذى تلازم مع ظهور الكتابة، وأصبح البشر نوعاً من المخلوقات كما نعرفها اليوم: ميالون إلى الحرب وميالون إلى العنف الفردى ضد بنى جنسهم من البشر وضد كل المخلوقات والكائنات كافة.

والآن وطبقاً لطروحات «جاينيس»، هناك فارق كبير بين النزاع على موطن بين سكان المدن الأوائل، وبين القتل الجماعي الوحشى الذى بدأ فى الظهور قرابة نهاية الألف الثانى قبل الميلاد.

تظهر اللوحة المشهورة التى تحمل اسم لوحة الملك «نارمر» ـ وهو ملك مصرى مبكر وينسب اسمه إلى الملك الأسطورى مينيس الذى تعود أسطورته إلى ما قبل الألف الثالث قبل الميلاد ـ الملك واقفاً فوق صفين من أجساد جيش الأعداء مقطوعى الرءوس، ويشير النقش المصاحب للصورة إلى عدد ١٢٠٠٠٠ أسير. ويظهر باللوحة نقش آخر يظهر فيه الملك نارمر وهو يمسك بإحدى يديه واحد من الأسرى من شعره؛ بينما يرفع بيده الأخرى هراوة كأنه على وشك تحطيم رأسه. ويظهر الفحص الدقيق أنه يرفع صولجاناً لا هراوة. وأنه يمسك بشعر الأسير كشكل طقسى يدل على الحط من شأن العدو وتحقيره كذلك لا تعنى جثث الأعداء المصورة بلا رءوس أنهم قد أعدموا، ربما كانت مجرد رمز للأعداء الذين قتلوا فى المعركة، مثلها مثل تلك الجماجم التى وجدت فى كهوف تشو ـ كو ـ تيين بالصين كإجراء طقسى. لا يوجد فى لوحة «نارمر» أى دليل يشى بقسوة إرادية متعمدة لذاتها.

فى عصر «حمورابى»، أى بعد عصر «نارمر» بألف ومائتى عام، نهضت إمبراطورية «سارجون» الأكادى ثم انهارت. كان عصر الآلهة قد بات وشيك البزوغ. يتحدث «جاينيس» عن ذلك النصب التذكارى الذى يحمل ذلك النص المشهور باسم «قانون حمورابى»، ويعلق على مقدمته بأنها تشى بحب الظهور والإحساس العالى بالذات لدى حمورابى، كما يعلق على خاتمته التى يسجل

فيها حمورابى غزواته وفتوحاته وانتصاراته. يشير «جاينيس» إلى أن النص القانونى المحصور بين مقدمة متبجحة وخاتمة مغرورة، يحمل نغمة نصية مختلفة تماماً، هادئة وموضوعية. ويعتقد «جاينيس» أن النص بأجمعه دليل على عقل «ثنائى التصوير»، وأنه وضع القانون بإملاء من النصف الأيمن لمخه الذى اعتقد حمورابى أنه صوت الإله مردوك الذى يلهمه النصوص. التفسير الأكثر قبولا هو أن ذلك النص القانونى كان نتاجاً تاريخياً لعدة قوانين سابقة عليه وأنه نقل عنها روحها الحازمة الموضوعية. أما النغمة المتبجحة التى وردت فى المقدمة والواشية بإحساس عال بالذات فإنها تدل بالقطع أن الملك يرى فى نفسه شأنا عظيماً أكبر من كونه لساناً «لمردوك» الذى كان يتحدث باسمه.

يعود نص حمورابى إلى عام ١٧٥٠ ق. م وبعد ذلك العصر حلت عصور «مظلمة» تحول فيها نصف سكان حوض البحر المتوسط إلى مشردين. وأصبحت مشاهد الحرب فى الفن المصرى القديم أكثر تكراراً، ففى الحضارة المصرية العظمى الأولى، تصف چاكتا هاوكس (ص ٣٨٦) نقشاً لأسرى حرب «مقيدين بطرق مختلفة فى أوضاع مؤلمة ومهينة». ويظهر مشهد آخر يعود إلى عصر رمسيس الثالث ـ الذى اعتلى عرش مصر قبل فترة وجيزة من عام ١١٠٠ ق. م، يظهر كوماً من الأيدى المقطوعة. فى ذلك العصر، كما يذكر «جاينيس»، كان عصر العقل ثنائى التصوير يوشك على بدايته وأصبح العقل البشرى لا متناغم. وبالتقريب فى نفس العصر، وضع «تجيلات بيلصر الأول» ملك آشور قانوناً جديداً يبدو بشعاً مقارنة بقانون «حمورابى» (وقد نتذكر أن قانون حمورابى بدوره كان أكثر قسوة من القوانين التى سبقته والتى أخذ عنها). وسجل «جاينيس» عنه: «إن مآثره مشهورة عبر مجموعة كبيرة من الألواح الطينية تحمل تفاخراً وتباهياً بأنواع القسوة التى ابتكرها وارتكبها. وصلت قوانينه إلينا عبر مجموعات من الألواح الطينية مليئة بألوان مختلفة من القسوة والوحشية. وأطلق الباحثون على سياسته: «سياسة بث الرعب والفزع» وقد كانت كذلك بالفعل. كان الآشوريون يباغتون القرويين المسالمين فى قراهم كما يباغت الجزارون النعاج، ويستعبدون من المشردين ما يستطيعون ويذبحون من تبقى بالآلاف. وتظهر النقوش البارزة ما يبدو وكأنه سكان مدن

بأكملها وضعوا جميعاً أحياء على خوازيق تدخل من المقعدة ويخرج طرفها الحاد من الكتف، وتظهر قوانينه أشد العقوبات الدموية التى عرفها التاريخ ...».

كانت القسوة البشعة عائدة إلى حد ما إلى اللاتناغم الذى أصبح عليه المخ البشرى ـ تماماً مثل سائق سيارة فقدأعصابه فى ذروة ازدحام السير ـ وترجع جزئياً، إلى الانتقاء الطبيعى بعد ألف عام من العنف والعصاب ومتاعب الطبيعة وكوارثها.

أدى ذلك العنف الدموى إلى تغير فى النموذج التاريخى، كان البندول يتأرجح بين اتجاهين من العدوان الوحشى للبشر والتدمير الوحشى للطغاة، وعايش القرن العشرين هذا النموذج مع صعود النازية وانهيارها.. وظهرالنموذج لأول مرة فى الألف الأول قبل الميلاد مع صعود وانهيار الإمبراطورية الآشورية. لقد لعب الآشوريين دوراً مهماً فى منطقة ما بين النهرين لما يزيد عن ألف عام. كان اغتيال «تجيلات بليصَر» عام ١٠٧٧ ق. م سبباً فى وصول تلك الإمبراطورية إلى بدايات نهايتها. وعلى مدى زمنى يزيد عن قرن. وأثناء ما أسماه «چورچ روكس» بـ«العصر المظلم لمنطقة ما بين النهرين» (الفصل ١٧ من كتاب العراق القديم) كانت آشور فى بداية المحاق. وفى عام ٩١١ ق. م، بدأت تشق طريقها من جديد إلى القوة؛ وسجل «جاينيس» عن ذلك: «بدأ الآشوريين من جديد فى غزو العالم بوحشية سادية غير مسبوقة فسبحوا فى دماء الشعوب وبثوا الرعب والفزع فى كل اتجاه سلكوه لاستعادة إمبراطوريتهم إلى ما هو أبعد من تخومها السابقة حتى وصلوا مصر وتوغلوا على ضفاف نهرها الخصب حتى وصلوا إلى مقر إله الشمس ذاته، مثلما فعل «بتسارو» الذى أسر إله الإنكا فى النصف الآخر من الأرض بعد ذلك بألفين وخمسمائة عام. فى ذلك الوقت، كان التحول العظيم فى العقل البشرى قد حدث... أصبح البشر واعين بذواتهم وبعالمهم الذى يعيشون فيه...».

من ذلك العصر، وحتى انهيارهم النهائى عام ٦١٠ ق. م قام الآشوريون بارتكاب مجازر بشعة ومارسوا الغزو الوحشى حتى أن النازيين يبدون بالمقارنة

مسالمين وادعين. ويوجد بالمتحف البريطاني لوحاً يرجع إلى عصر أشوراك بعل الثالث وهو يباشر تعذيب الأسرى الممدين عرايا ومقيدين إلى أوتاد بالأرض، ثم سلخ جلد بعضهم وهم أحياء، وبعض آخر تم قطع ألسنتهم وآذانهم بكلابات وخلاعات (توجد ألواح أخرى في طوابق التخزين السفلية بالمتحف البريطاني عليها صور أفراد معلقين من شعرهم) وحين غزا «سنيا شيريب» مدينة بابل عام ٦٨٩ ق. م. قام بالإجراء المتداول المتعارف عليه في ذلك الحين فذبح كل سكانها حتى أتخم شوارعها بأكوام عالية من جثث أهلها؛ ثم دمر المدينة بأجمعها ولم يترك بها حجراً قائماً على حجر ثم حول إليها قناة مياه لتجرف كل شيء (قام ابناؤه باغتياله بعد ذلك بثمانية أعوام وهو يصلي في معبد نينوى). عند منتصف القرن السابع قبل الميلاد، كانت آلة الحرب الآشورية قد أصبحت من أكثر الآلات الحربية قسوة وكفاءة على مدى التاريخ. وابتدع «تيجلات بيلصَر الثالث» وسيلة جديدة لإخماد أي تمرد ـ وهي نفي شعوب بأجمعها إلى مواطن بعيدة؛ دون مبالاة بأعداد من يموتون جوعا وإجهاداً في الطريق إلى المنفى. ونفى في عام واحد (٧٤٤ ق. م) ٦٥ ألف فرد من موطنهم.

لقد انهارت أمم قوية عديدة بعد أن أصابها الضعف والوهن والتراخي ـ مثلما حدث لليونان والفرس في عصور لاحقة ـ إلا أن الآشوريين لم يقعوا أبدا في مثل تلك الأخطاء. لقد تم إعدادهم ليسحقوا أعداءهم بكل قسوة ووحشية حتى تستمر قبضتهم الفولاذية على رعايا البلاد التي غزوها. كما كانت كفاءتهم العسكرية العالية هذه سبباً في دنو نهايتهم وأفول إمبراطوريتهم.

كانت الشعوب السامية منغلقة على ذاتها ولا تختلط بالأغيار وكانوا منهمكين على الدوام في نزاعات وشقاقات داخلية بين بعضهم البعض. إلا أن القسوة المتناهية للآشوريين دفعت بهم جميعاً إلى الاتحاد. وحوالي عام ٦٥٤ ق. م. واجه آشور بني بعل تحالف معاد تألف من البابليين، والعيلاميين. والكلدانيين بالإضافة إلى نصف دستة شعوب أخرى أقل شهرة تجمعوا كلهم تحت قيادة شقيقه ملك بابل. وتحركت آلة الحرب الآشورية وتحفزت للعمل:

كانت مدينة بابل قد أعيد بناءها، فبدأ آشور بنى بعل بحصارها لتجويعها حتى خضعت واستسلمت؛ أما ملك بابل الذى خشى من تعرضه للتعذيب البطىء حتى الموت فقد قام بالانتحار بإشعال النار فى نفسه حتى الموت داخل قصره فى بابل. ثم مضى آشور بنى بعل فى إخماد فتنة الشعوب المتمردة التى تحالفت ضده بطريقته الوحشية المعهودة. وبحلول عام ٦٣٩ ق. م. كان قد سحق كل أعدائه وأخضع شعوبهم أما منطقة عيلام وشعبها فقد محاها من الخريطة وأفنى شعبها عن بكرة أبيه. ومن قصره العظيم فى مدينة نينوى، تصور آشور بنى بعل كل الوجود ساجداً عند قدميه واستمتع بنصره واحتفل به. إلا أن تلك الأحداث كانت سبباً فى إثارة عداء كل شعوب منطقة البحر المتوسط ضده واشتعالهم بغضب شديد وبغض وكراهية عميقة. وحين مات آشور بنى بعل اشتعلت نيران التمرد من جديد إلا أنهم نجحوا تلك المرة. وتلقى الآشوريين من الرحمة بقدر ما وهبوا، وخرج كل أعدائهم ـ بقيادة ملك بابل فى ذلك الوقت نبو بولصَر ـ لإفناء الآشوريين والقضاء عليهم قضاءً نهائياً كما لو كانوا فئرانا حاملة لمرض الطاعون، وأدوا ذلك بكفاءة وشمول حتى إنهم لم يتركوا آشوريا واحداً على قيد الحياة ليحكى عن عظمة إمبراطوريتهم التى زالت من الوجود. بعد ذلك بقرنين، حين كان المرتزقة الإغريق العاملين بجيش قورش الفارسى يتقهقرون على ضفاف نهر دجلة ـ وهى قصة مشهورة رواها الكاتب الإغريقى زينوفون الذى كان بصحبتهم ـ مروا بأنقاض هائلة عملاقة لمدينة نينوى التى كانت عاصمة للإمبراطورية الآشورية التى زالت، ومن بعدها أنقاض مدينة كاله، أصابهم الذهول من لغز تلك المدن الهائلة المهجورة والتى بدت لهم بأسوارها وتحصيناتها الهائلة منيعة على أى جيش مهما بلغت قوته. كل ما استطاع زينوفون أن يعرفه من المزارعين المحليين بجوار المدن المهجورة، أن تلك المدن قد أخليت بطرق إعجازية وبتدخل من الآلهة ذاتها، وهكذا تحول الغزاة الذين روعوا وأرهبوا كل الشرق الأوسط على مدى قرون إلى مجرد أسطورة تروى.

هناك تناقض محير فى هذا الصدد. فقد استجاب الآشوريين استجابة طبيعية حين تحدوا الكوارث الطبيعية التى حلت بالمنطقة والفوضى التى عمت أرجاءها

بأن أصبحوا غزاة أقوياء قساة لم ير العالم مثيلاً لهم. كانوا بلا شك «الأمثل» والأكثر ملائمة، وطبقاً لنظرية «دارون» التى تفسر التطور بأن البقاء للأفضل والأقوى، كان من المفترض أن يظلوا موجودين. إلا أنه، لسبب ما، تنقض أحداث التاريخ نظرية «دارون» وتناقضها، ليس لمرة واحدة كما فى هذا المثال، ولكن فى نماذج أخرى عديدة على مدى التاريخ. لقد امتلأ التاريخ من عصر الآشوريين حتى عصر النازى الألمانى بالقادة القساة الأقوياء الذين انتهوا جميعا بفشل ذريع. ولابد أن نفهم لماذا؟ وكيف يحدث ذلك بما أننا نتناول فى هذا الكتاب جوهر الجريمة. المجرم بصفة أساسية امرئ لا يرى سبباً يمنعه من الحصول على ما يريد بالاستيلاء عليه واغتصابه اغتصاباً، إما باختلاسه، أو بالقوة السافرة المباشرة. وحين تواجهه عقبة تشكل صعوبة فى طريقه لتحقيق ذلك، فإن رد فعله المباشر هو تناول خنجره للتغلب على تلك الصعوبة. وتبدو الأمور فى المدى القصير وكأنها تسير فى الطريق الخطأ. فى حالة المجرم الفرد - مثل حالة كارل بنزرام التى عرضناها - يبدو السبب واضحاً. وفى حالة الأمم والشعوب - مثل الآشوريين والهون والفندال - تبدو المسائل أكثر تعقيداً. إلا أن الحاصل النهائى والنتيجة هو ذاته. إن رفض العنف الإجرامى لا يرجع فقط إلى رفض الأضرار التى تلحق بالمجتمع من جراء ذلك العنف - مع أنها مرعبة بما يكفى - بل يرجع إلى فشل تلك الوسائل والسلوكيات فى تحقيق أى أهداف إنها بالدرجة الأولى إساءة حسابات. وحيث إن الجريمة أصلاً هى أسلوب المخ الأيسر لتحقيق أهدافه، وحيث إنه يرفض الاعتراف بأى قيمة عدا تحقيق تلك الأهداف، تضيع الأهداف بطريقة أو بأخرى فى مجرى ومسار حركة المجرم لتحقيقها.

أثار ذلك التناقض خيال وفكر المؤرخ الشهير «أرنولد توينبى»، ووصف فى أعماله كيف أثارت تلك الظاهرة انتباهه ذات مساء من مايو عام ١٩١٢ وكان توينبى قد قضى النهار فى زيارة قلعة ميستراس المهجورة والتى تشرف على سهل مدينة أسبرطة. على مدى ستمائة عام ظلت ميسترا مدينة مزدهرة تموج بالحياة، وفوجئت ذات صباح من عام ٨٢١ ق. م بجحافل من غزاة متوحشين ينقضون عليها بغتة ذبحوا كل سكانها وتركوها أنقاضا مهجورة. حين تأمل

توينبى بفكره أحداث تلك المذبحة والدمار الذى لم يكن وراءه أى مبرر، أذهله الإحساس المرعب الذى اعتراه من هول أخطاء البشر والخطيئة التى تسود سلوكهم، واللغز «الذى يكمن وراء القسوة المتناهية فى جرائم البشر وحماقاتهم العجيبة». لماذا يعد الجنس البشرى الجنس الوحيد بين الحيوانات والكائنات الذى يشعر بمتعة التدمير للتدمير؟ كانت محاولة الإجابة على ذلك التساؤل دافعاً لكتابة نحو ثمانية آلاف صفحة فى دراسة أسماها «دراسة فى التاريخ».

كان مشهد الواقع اليقينى سائداً فوق سهول أسبرطة وتخومها. فقد كان الأسبرطيون مثلهم مثل الآشوريين مثال صارخ على القسوة العبثية. ففى القرن الثامن قبل الميلاد وجد أهل منطقة «لاسيدومونيا» (وكانت أسبرطة هى عاصمتها) أن أرضهم أصغر من أن تستوعب الزيادة المضطردة لسكانها فقاموا بغزو أرض جيرانهم الميسينيين. وعلى مدى ستة عشر عاماً قاتل الميسينيون دفاعاً عن أرضهم كالنمور الضارية، إلا أن الأسبرطيين هزموهم فى نهاية المطاف، وظل الميسينيون على كراهيتهم للغزاة حتى إنهم قاموا بعد قرن بمحاولة يائسة وعنيفة للتخلص من نير الاحتلال الأجنبى وخاضوا حرباً أكثر ضراوة ودموية استمرت عشرين عاماً حتى حل الإجهاد بالطرفين المتحاربين إلا أن الأسبرطيين فازوا أيضاً فى تلك المعركة وبعد أن تحقق لهم النصر قاموا بارتكاب مذابح هائلة سالت فيها أنهار من الدماء. بعد ذلك ارتكبوا الخطأ الذى أدى بأسبرطة إلى أن تتحول إلى حفرية من حفريات التاريخ. فنتيجة للمعاناة الطويلة التى عانوها فى تلك الحرب الطويلة حرصوا ألا يسمحوا بتكرار ذلك مرة أخرى أبداً. لذلك حولوا بلدهم بأجمعها إلى معسكر حربى كبير. وراحوا يفكرون ويأكلون ويشربون بمنطق عسكرى بحت. كان لابد لهم من السيطرة على ميسينيا التى احتلوها بقبضة من حديد، لذلك بدأوا فى تحويل أنفسهم إلى رجال من حديد.

قسموا ميسينيا إلى أقسام متساوية، وعينوا على كل قسم حاكماً من النبلاء الأسبرطيين، وأصبح أهل البلد عبيداً ـ هيلوت ـ وكان عليهم أن

ينصاعوا كلية لأوامر الحاكم العسكرى الأسبرطي، لو أظهر أى طفل من أطفال الهيلوت أمارة نبوغ أو ذكاء، يقتل فوراً. حتى يجنب الأسبرطيون أنفسهم أى متاعب في مواجهة أجيال قادمة من الهيلوت وجدوا أنه من الأفضل قتل أطفال الهيلوت النابهين. أما أطفالهم هم - ذكوراً أو أناثاً - فقد كرسوهم للتنشئة العسكرية منذ مولدهم (كانوا يلقون الأطفال الضعفاء في العراء حتى الموت) في سن السابعة كان الأطفال يؤخذون عنوة من منازلهم ويساقون إلى معسكرات التدريب وكانت البنات تتلقى التدريبات ذاتها التى يتلقاها الأولاد وكانوا يتنافسون مع الذكور في كل الرياضات في مساواة مطلقة، حتى المصارعة فقد كنَ يصارعن الذكور والكل عراة تماماً على مرأى من المشاهدين كانت الخشونة المطلقة هي القيمة العليا في حياة هل أسبرطة والقدرة على احتمال الألم والمصاعب. في السن الملائم يلحق الذكور بالجيش. لم تكن هناك حياة عائلية للشباب؛ عاشوا في معسكرات جماعية وتناولوا وجباتهم في قاعات طعام جماعية. في ليلة عرس الفتاة، كان عريسها يفض بكارتها ويتركها عائداً إلى معسكره، وحتى تظهر العروس أنها زوجة تليق بمقاتل أسبرطي كانت تقص شعرها وتتركه قصيراً وترتدى زى الرجال. وإذا تبين أن زوجها غير قادر على إخصابها بأطفال أصحاء، كان عليه أن يعثر على رجل أفضل منه ويدفعه إلى فراش زوجته؛ وإن لم يجد، كان على الزوجة أن تقوم بالعثور على مثل ذلك الرجل. وإذا أكل الرجل بلا شهية في قاعات الطعام الجماعية يتعرض لعقوبة شديدة، فقد كان ذلك يعد دليلاً على أنه انغمس سرا في مسرات ومتع الحياة المنزلية وأكل سراً في منزله.

بدا الأمر كله شبيهاً بلعبة عبثية - بل كانوا أقرب شبهاً بذلك العملاق في قصة «فاجنر»؛ «الخاتم»، حين قتل العملاق أخيه ليحصل على كنز «نيبلونج» ثم حول نفسه إلى تنين وقضى باقى عمره في حراسة الكنز. تحول الهيلينيون إلى تنين المنطقة الهيلينية. وحين بدى أن جيرانهم وهم شعب أثينا قد نمت قوتهم. قرر الأسبرطيون أن يسحقوا أثينا ليحافظوا على مكانتهم كأقوى شعب بالمنطقة وانجرفوا إلى حرب طاحنة دامت سبعة وعشرين عاماً، انتصروا على أثينا في نهايتها. الدور الوحيد الذى لم يكونوا مستعدين ولا مؤهلين له هو

قيادة المنطقة الهيلينية. لقد أعدوا أنفسهم للمصاعب والمشاق البدنية والنزال والمجالدة؛ وأفسد النجاح العسكرى البحت الجانب الأخلاقى تماماً. انغمس العسكريين من النبلاء الذين أرسلوا لحكم المستعمرات فى الفسق والفساد. أما الأسبرطيون الذين بقوا بالوطن فقد ظلوا على جمودهم الفكرى، متشبثين بالانضباط العسكرى وحده. شبههم «توينبى» بجنود طابور عرض عسكرى واقفين أبداً شاكيوا السلاح، بينما هم فى حالة تأهبهم الأبدى؛ نمت عليهم خيوط العنكبوت حتى غطتهم تماماً. لم يختف الأسبرطيون من الوجودفى مذبحة مشهودة أو مشهورة كما حدث للآشوريين؛ إلا أنهم تحولوا إلى مجرد ضحايا لالتهاب المفاصل الروحى واختفوا بهدوء من التاريخ.

هنا تتضح تماماً أهمية رؤية «جاينيس». لقد كان الأسبرطيون حتى اختفائهم من التاريخ ضاحيا «مخهم الأيسر» وحده. لقد جمدوا وثبتوا عقولهم وتفكيرهم وضبطوه على هدف واحد فقط لم يتجاوزوه أبداً، وتظاهروا أنه لا يوجد شىء آخر فى الحياة يستحق الاهتمام عدا ذلك الهدف. قبل الحرب المسينية، كانت لأسبرطة ابداعاتها الخاصة فى الفن والموسيقى؛ ثم أصابتهم حالة من العقم والتوقف عن الإبداع فى منتصف القرن السادس قبل الميلاد. لم تستعد قدرتها على الإبداع الفكرى إلا بعد ذلك بخمسمائة عام، حين تحطم نظامها العسكرى المطلق فى الحرب المقدونية الثانية.

وتتضح عبثية وخطل النمط الفكرى العسكرى الصرف لأسبرطة بشكل أكثر دقة من عاداتهم المتأخرة التى كانت تدفع الصبية إلى استعراض قوة احتمالهم بتعريضهم للجلد حتى الموت على مذبح ربة القمر.

النصف الأيسر للمخ هو الجانب الحرج منه، فهو الجانب الذى يفرض سلطانه وهيمنته على رغباتنا (القطط والكلاب لها نصف مخ؛ وكل الكائنات تحتاج إلى قوة مناوئة وكابحة حتى تتمكن من تغيير رأيها). لن يكون تجاوزا للدقة إن ذكرنا أن الأسبرطيين صادروا كل قدرة على الإبداع وحولوا أنفسهم إلى أمة من النقاد.

نصف المخ الأيسر يوجه طاقتنا ويدفقها فى مجال ضيق سريع الجريان مثل

تيار مائى مندفع من فوق قمة جبل؛ أما النصف الأيمن فيعمل على نشر طاقتنا على مدى واسع هادئ أو نهر متأن فى تدفق تياره يعرف إلى أين يتجه ويتيح رؤية واسعة بانورامية لما يحيط بنا من آفاق قريبة وبعيدة تمكننا من تقرير إلى أين نتجه بعد ذلك.

الأيسر تأسره بسهولة المخاوف فتوجهه إلى حركة أمامية مندفعة ولا يملك القدرة على تغيير الاتجاه. وحين يحدث ذلك ويقع البشر أسرى للمخاوف. لا يوجد إلا احتمالان: إما تدمير الذات، أو الإجهاد والتآكل البطيء. كان الآشوريون مثالاً للاحتمال الأول، وكان الأسبرطيون مثالاً للاحتمال الثانى.

بعد ألفي عام أو نحو ذلك، وجد «شرلوك هولمز» نفسه يواجه المعضلة المحيرة والمربكة ذاتها. ففى حياته المبكرة، كان يخفف من وطأة ملله وضجره بتعاطى المورفين أو الكوكايين. وحين سأله «واطسن» فى رواية «علامة الأربع» إن كان هناك ما يعمله أو يشغل فكره في اللحظة الراهنة، أجابه هولمز: «كلا، بدون تعاطى الكوكايين لا أستطيع أن أحيا دون عمل ذهنى. ماذا يوجد عدا العمل الذهنى من الممكن أن يحيا الإنسان من أجله؟ قف وانظر من تلك النافذة. هل يوجد شيء ذى جدوى فى هذا العالم الكئيب الموحش القابض للصدر والذى لا توجد وراءه أى فائدة أو نفع؟ أترى كيف يخيم الضباب الأصفر على الشوارع كالدوامات ويغلف تلك المنازل الملونة. هل يوجد ما هو أشد ابتزالاً وأكثر مللاً وعادية وواقع مادى بحت أكثر من هذا العالم؟ وما فائدة امتلاك قوى وقدرات يادكتور «واطسن» حين لا أملك ولا أجد مجالا أمارس تلك القوى والقدرات من خلاله؟

حين كتب «آرثر كونان دويل» تلك الرواية، لم يكن من المعروف وقتها أن الكوكايين من عقاقير الإدمان (فرويد أيضاً صنع بداية شهرته بمعالجته مدمنى المورفين بالكوكايين)، وعلى أى حال فقد أنقذ هولمز نفسه من الإدمان بتحقيق نجاح شخصى متزايد. يوضح ذلك أن طبيعة المشكلة لم تتغير على مدى ثلاثة آلاف عام منذ عصر رمسيس الثالث. لقد حقق الإنسان تفوقه وسيادته لأنه الأعظم بين كل المخلوقات والكائنات، لقد احتمل عصور الجفاف، والأحقاب

الجليدية، والمجاعات والزلازل والكوارث الأرضية العظمى، وعند لحظة معينة من تاريخه عرضه مسار التطور إلى أعجب التجارب والخبرات وذلك بتخصيص إحساسه بذاته في النصف الأيسر من مخه المتطور (ولا يهم إن قبلنا أم لم نقبل تقدير جاينيس للحظة التي حدث فيها ذلك، فالأهم أن ذلك قد حدث). كان المردود مثيراً ومذهلاً، فبهذا الانفصال الجديد عن الطبيعة، بدأ الإنسان في دراستها بعين جديدة ناقدة ويرصد مكوناتها وعناصرها. ففي القرن الثالث قبل الميلاد سمع فيلسوف يدعى «إيراتوثينيس» الذي كان يعيش بمدينة الإسكندرية أن هناك بئراً في مدينة بجنوب مصر اسمها «ساين» - أسوان حالياً - تنفذ الشمس خلالها حتى تصل إلى سطح المياه يوماً واحداً من كل عام وذلك عند منتصف النهار وفي منتصف الصيف. ويعني ذلك أن الشمس تكون عمودية تماماً في ذلك اليوم عند ذلك الموضع، أي أن أي برج في ذلك المكان لا يكون له ظل في منتصف ذلك اليوم، وقام إيراتينوس بقياس طول ظل برج في اليوم نفسه من العام بمدينة الإسكندرية، وتوصل بمعاونة معدات بسيطة بدائية أن الشمس تسقط على الإسكندرية بزاوية ميل قدرها ٧,٥ درجة، وأنه لو كانت الأرض كروية (وهي معلومة قديمة يبدو أنها تعود أصلاً إلى مصر القديمة)، فإن المسافة من مدينة ساين إلى الإسكندرية لابد أن تكون ٧,٥ درجة من محيط الأرض. وحيث إن تلك المسافة كانت ٥٠٠ ميل، أصبح بإمكانه أن يحسب قطر الأرض وتوصل إلى أنه يبلغ ٢٤٠٠٠ ميل. وتظهر الحسابات الدقيقة المعاصرة أن قطر الأرض يبلغ ٢٤٨٦٠ ميلاً عند خط الاستواء، المدهش أن حسابات إيراتوثينيس كانت على درجة عالية من الدقة. وهناك سكندري آخر يدعى «إريستاركوس» قام بقياس الزاوية بين الشمس والأرض حين يكون القمر عمودياً على الرءوس ونصف مكتمل، وباستخدام عمليات حسابية من علم حساب المثلثات استطاع أن يقدر حجم الشمس والقمر وبعد كل منهما عن الأرض. ولم تصل نتائجه إلى الدقة التي اتسمت بها حسابات إيراتوثينيس «لأنه كان من الصعب بشكل ما تحديد متى يكون القمر في منتصفه تماما». إلا أنه استخلص أن القمر يبعد عن الأرض ٥٦ ألف ميل، وأن الشمس تبعد عن الأرض ما يزيد عن مليون ميل. كان التطابق بينه وبين رفيقه السكندري مذهلاً.

كانت أسطورة «إيكاروس» تتضمن أنه إذا طار رجل لارتفاع شاهق فإنه بذلك يقترب من الشمس وتسيح أجنحته؛ وجاءت حسابات «ستراكوس» لتخبرهم أن الإنسان من الممكن أن يطير لآلاف الأميال فى السماء. ولا يكون قريبا من الشمس بأى حال. وأضاف «استراكوس»: أنه حيث إن الشمس أكبر كثيرا جداً من الأرض، فمن الممكن أن تكون الأرض هى التى تدور حول الشمس. لا العكس.

توضح تلك المكتشفات المذهلة أبعاد العقل المكتسب الجديد «ثنائى التصوير». لقد كان المزارعون الأوائل يهتمون بلا أدنى شك بالشمس والقمر؛ إلا أنهم لم يحلموا أبداً بخوض مسائل مملة جداً كقياس زوايا وحساب مسافات إلا أن ذلك كان أحد أهم تداعيات ونتائج «ثنائية التصوير» التى تطورت بالعقل البشرى؛ ويعنى ذلك أيضاً أن البشر أصبحوا يقومون فى الأغلب بأداء «أشياء مملة» لمجرد الهرب من الملل ـ وهو تناقض معروف لنا جميعاً ونمارسه جميعاً.

ترتب على ذلك اكتشاف أن الحسابات والقياسات تهب البشر قوة وقدرة جديدة على الطبيعة ومظاهرها الفيزيقية. إلا أن ذلك كان تغيراً ذى بعد آخر ترتب عليه آثار وتبعات مهمة على حياة الجنس البشرى.

حين يحاصر المرء ويقع فى مصيدة وعى النصف الأيسر للمخ المتسم بالضحالة وانعدام الكفاءة، يجد نفسه متعطشاً تحت تأثير نصف المخ الأيسر إلى وعى الحيوان الأغنى، ويعتريه الإحساس برغبة التوحد مع الطبيعة، وهو إحساس لحظى مريح من التواصل بالواقع والطبيعة. والنتيجة المترتبة على ذلك هى ما نطلق عليه الآن «الرومانسية» ـ وهى تطلع وتشوق غامض إلى آفاق بعيدة، وتطلع وشوق إلى «أنماط غير مدركة وغير معروفة من الوجود». يقول عنها «ييتس»:

ما تبحث عنه ملايين الشفاه فى هذا العالم

لابد أنه كائن فى مكان ما.. وحقيقى.

وباختصار، من كان مكبلاً بوعي النصف الأيسر للمخ فإنه يتحول إلى حالم. وحين يكون لدى الحالم سلاحاً في متناول يده وتحت تصرفه، تكون النتائج وخيمة ومرعبة ومذهلة. حوالي عام ٣٦٧ ق. م، اعتقل الجنرال الإغريقي «بيلوبيداس» أميراً مقدونياً يبلغ الخامسة عشر من عمره اسمه «فيليب المقدوني» واحتفظ به كرهينة في مدينة «طيبة» اليونانية ليضمن ولاء أخا فيليب الأكبر وملك مقدونيا آنذاك الملك أليكسندر. وجد الأمير الصغير «فيليب المقدوني» أن بلده مقدونيا تبدو قرية بسيطة مقارنة بطيبة. أذهلته الحضارة اليونانية بكل إنجازاتها. كان «فيليب» شاباً ذكياً وكان شقيقه الأكبر منه «بيردكاس»، والأصغر من أليكسندر، من تلاميذ الفيلسوف اليوناني أفلاطون، وشغف الأمير الصغير بدراسة الآداب، والفلسفة وفن الخطابة. وحين اغتيل أخيه الأكبر الملك «أليكسندر» حاكم مقدونيا، أعاده اليونانيون إلى بلاده، وبلا شك وجد القصر في مقدونيا قصراً محلياً وريفياً لا يطاق. وحين اغتيل أخيه الثاني «بيرديكاس» الذى تولى الحكم بعد «أليكسندر»، ارتقى «فيليب» العرش وانطلق بهمة لتحديث مقدونيا وتحويلها إلى يونان أخرى.
كان عسكرياً بالفطرة، وبسرعة حول الجيش من جماعات متشرذمة تسودها الفوضى إلى آلة حرب تضارع جيوش «أسبرطة» و«آشور». أخضع أولاً قبائل الجبال المتمردة في مقدونيا، وحين اتخمته نشوة الانتصار، خرج بجيوشه واحتل مناطق مترامية حول نهر الدانوب حتى حدود اليونان. لم يخض تلك الحروب بغرض تحقيق الأمان والرخاء لشعبه أو لإبادة المتمردين ـ مثل الدوافع التى كانت لدى سارجون الأكادى ـ بل كانت لأسباب رومانطيقية بحتة، قتال لمتعة القتال، للشهرة والفخار. وعدا كل تلك الدوافع، كان الدافع الأكبر والأهم، أن تجعله تلك الانتصارات مستحقاً لنيل إعجاب الإغريق الأكثر رقياً وتحضراً. مثل فرسان القرون الوسطى في أوربا كان «فيليب» يخوض المعارك على شرف محبوبته اليونان. وحين أخضع بلاد الشمال والشرق، سار جنوبا باتجاه اليونان ذاتها وقهر محبوبته. وأصبحت طيبة التى كانت موضع إعجابه حين كان أسيراً بها وهو صبى، تحت قبضة يده واحتلها جيشه المقدونى ـ وهو الجيش الغازى الذى ستقع على يديه أهوال وخيمة لأهل طيبة. صممت «أثينا»

التى تولت قيادة المقاومة ضد جيوش «فيليب» على القتال حتى الموت ؛ إلا أن «فيليب» سلك مسلكاً يليق بالنبلاء، فهو لم يخرج من مقدونيا للانتقام من اليونان. لم يرد إلا أن يعتبروه يونانياً.

بعد ذلك بعامين، وفى سن السادسة والأربعين أغتيل «فيليب»، وتولى الحكم ابنه «الإسكندر» الذى كان فى العشرين من عمره. تنفست اليونان الصعداء بموت «فيليب»، وملأتهم الثقة أنه لا يوجد ما يخشونه من ابنه الذى مازال فى باكورة شبابه وتعوزه الحنكة. فى العام التالى أدت شائعة عن موت «الإسكندر» إلى تمرد مدينة «طيبة»، فانقض «الإسكندر» عليها كالصاعقة اجتاح المدينة كالإعصار وذبح كل سكانها. بخلاف والده لم يكن «الإسكندر» يكن أى عاطفة أو إعجاب بطيبة ولا لأهلها.

إلا أنه ماثل أباه وشابهه فى جانب مهم: كان رومانطيقياً مثله يحلم بالآفاق البعيدة ويبحث عما لا يعرف كنهه. عبر بعد ذلك حدود اليونان وواجه جيش الإمبراطورية الفارسية وهزمه - اتبع فى ذلك تخطيطاً جديداً للمعارك بأن هاجم جيش فارس مباشرة دون إضاعة يومين فى إعداد جيشه للمعركة كما توقع الفرس - ودفع الإمبراطور «داريوس» ملك الفرس بجيوش جديدة فهزمها «الإسكندر» أيضاً بمنتهى السهولة. تحكى الروايات التاريخية أن «الإسكندر» بعد انتصاره النهائى على جيوش الفرس، توجه إلى خيمة الملك المهزوم. واستحم فى حمامه الملكى، وتمدد على أريكته الحريرية، ورفع كأساً مليئا بالنبيذ قائلاً: «هذا إذن ما يسمونه الملكية...». اندفع بعد ذلك نحو سوريا. ومنها إلى مصر وأسس بها مدينة الإسكندرية التى حملت اسمه. ثم استدار عائداً مرة أخرى باتجاه الشرق ليهزم «داريوس» الفارسى من جديد وتحرك باتجاه بابل. وحرفياً وطبقاً لكل المصادر، عامل حاشية «داريوس» من النساء بنبل شديد، وتزوج واحدة منهن. بعد ذلك قضى خمسة أعوام متجولا فى أنحاء إمبراطوريته الواسعة الأرجاء والمترامية الأطراف بعد كل تلك الحروب المظفرة. وتوسل إليه قادة جيشه أن يعود بهم للوطن بعد كل ذلك الغياب فعاد على كره منه باتجاه بابل. كان مازال يبحث عن مدينة أحلامه حتى إنه أخذ يخطط لغزو

إفريقيا حين أصابته حمى وهو فى سن الثانية والثلاثين أودت بحياته.

إلا أن الأبحاث الحديثة المعاصرة أضاءت بعض الجوانب المبهمة من التاريخ: فهناك احتمالات قوية أن «الإسكندر» مات بالخمر. ويسد ذلك الافتراض جانبا مفقوداً من ذلك اللغز. لقد كان «الإسكندر» رجلاً متطرفاً، فى مناسبات مختلفة أمر بذبح سكان مدن عديدة بأجمعهم حتى آخر امرأة أو طفل؛ وفى مناسبات أخرى كان بالغ الكياسة والكرم والإريحية.

حين مات صديقه المقرب «هيفستيون»، كانت أحزانه عميقة وصادقة حتى إنه أمر بصلب الطبيب الذى كان يشرف عليه قبل وفاته. فى مناسبة أخرى بعد مشادة بينه وبين أخيه فى الرضاع والتنشئة «كلايتوس» انتزع رمحاً من أحد أفراد الحرس وطعن بها «كلايتوس» طعنة قاتلة؛ ثم حين تحقق مما فعله وأفاق من ضباب غضبه، حاول أن يطعن نفسه بالرمح ذاته فى عنقه. وكل ما سبق نماذج نمطية لمدمن الكحول، فى جموح السكر الغاضب، ثم نوبات العاطفة الشديدة والكرم والإريحية. عدا ذلك، فإن إدمانه للكحوليات يؤكد أنه منقسم على ذاته، يجاهد بلا جدوى للفرار من ضيق وعى المخ الأيسر. كان من الممكن أن يكون أسعد حالاً لو كان أغبى مما كان عليه، إلا أنه انحدر من صلب عائلة تتسم بالذكاء الرومانطيقى. لقد درس أبوه «فيليب» الفلسفة فى مدينة «طيبة» اليونانية؛ وحين كان عليه أن يختار مدرساً لابنه «الإسكندر» اختار له «أرسطو» تلميذ «أفلاطون». إلا أن «الإسكندر» كان مثل أبيه «فيليب»، جياش العاطفة، غير منضبط كلياً، لم يستمتع بالفلسفة ولم يجد سلواه فيها. مثلت الخمر «للإسكندر» ما مثله الكوكايين لشرلوك هولمز كوسيلة للهروب من عالم ممل كئيب غير مجد. ربما كانت الروايات التى ذكرت أن الإسكندر كان يبكى لافتقاده عوالم جديدة يقوم بغزوها روايات مختلقة أو محرفة؛ إلا أنها تشى بجوهر تشوقه إلى آفاق لم يصل إليها بعد.

لابد أن ندرك أن الملل من أهم سمات «أحادية العقل» غير المرغوبة. فالملل ليس إلا إحساس «بالموت الداخلى»، أو ما يمكن وصفه بأنه فقدان الاتصال بالغرائز والمشاعر.

لقد أظهرت التجارب التى استخدم فيها جهاز تخطيط المخ الكهربائى أنه حين يسيطر علينا الملل والضجر، يظهر تخطيط نصف المخ الأيمن موجات ترددية من نوع «ألفا»، وهى الموجات ذاتها التى تظهر حين يكون المخ عاطلاً.

اكتشف «روبرت إيرنشتاين» وهو واحد من رواد أبحاث المخ المنقسم أن تلك الموجات تظهر حين يكون المرء عاكفاً على إجراء عمليات حسابية. وهى تظهر بوجه عام أثناء قيامنا بأعمال غير مثيرة. فإذا واجه نصف المخ الأيمن ظروفاً تجعله يتكاسل أو يتعطل كثيراً، فإنه يستغرق فى النوم.

وصف عالم النفس «إبراهام ماسلو» حالة فتاة تعانى من الاكتئاب وافتقاد الإحساس بأى معنى حتى أن دورة الحيض قد توقفت، اكتشف «ماسلو» بعد دراسة حالتها أنها كانت ترغب فى دراسة علم الاجتماع إلا أن الظروف الاقتصادية أجبرتها أن تعمل عملاً مملاً يتسم بالتكرار والرتابة وحين اقترح عليها أن تشترك بمدرسة مسائية وتكمل دراستها لعلم الاجتماع اختفت كل الأعراض التى كانت تعانى منها نهائياً. لقد أدى الملل الذى كانت تعيشه إلى أن يقضى مخها الأيمن جل وقته عاطلاً؛ وبمجرد أن بدأت التفكير بطريقة هادفة وغائية تنطوى على دافع، بدأت المشاعر والأحاسيس تعودان إليها.

إن وظيفة الذات الأخرى هى إضافة وإضفاء بعد ثالث - من الواقع - على الوجود البشرى. فإذا انشغل المخ تماما بالتعامل مع أمور مختلفة - بأن يشتبك مع مشاكل معقدة ويفتقد الصبر تحت وطأة مهام وأعمال تكرارية غير ذات جدوى، فإن نصف المخ الأيمن يبدأ فى التثاؤب ويحملق فى كآبة إلى ما خارج النافذة، ويصبح الواقع بطريقة غامضة غير واقعى. حين يحدث ذلك، نشعر برغبة ملحة وفورية «لخلق شىء مثير» نقوم به. فالطفل عندما يصل إلى هذه المرحلة يندفع ويدير زر التلفاز، وتذهب امرأة لشراء قبعة جديدة لا تحتاجها. ويتجاهل آخر جز عشب حديقته ويذهب لصيد السمك. أما «الإسكندر» فقد تطلع إلى الخرائط وقرر أن يغزو بلاداً جديدة. ولكن حتى الغزو ذاته المفترض أنه مثير، يمر بمراحل مملة: مسيرات طويلة، أيام ممطرة مملة لا يحدث فيها شىء. وبمجرد أن يتسرب إليه الملل، تمتد يده إلى قنينة الخمر.

وهكذا يبدو أننا أجبنا - من خلال عرض حالة الإسكندر على الأقل - على تساؤل «فروم» الذى طرحه، وهو «لماذا نجد أن البشر هم المخلوقات الوحيدة التى تقتل وتعذب بنى جنسها؟

العدوان والاعتداء مثل الكحول، يعيدان التوازن المفقود بين نصفى المخ، إنه ينقذنا من «أسبابنا الخامدة» وينقلنا إلى استعادة مشاعرنا وأحاسيسنا بالأهداف الغريزية. حين ندرك ذلك فإننا ندرك أيضاً أحد الدوافع الأساسية لكل أنواع وأشكال الإجرام. الطفل الذى يشعر بالملل يتلفت حوله باعثاً عن شيء يعمله أو يقوم بفعل مؤذ أو مزعج أو مثير ويتورط فيه، كذلك المراهق حين يشعر بالملل قد يتوجه إلى كشك هاتف عمومى ويخربه أو إلى حديقة عامة لينزع ما يستطيع أن ينزعه من شجيرات.. حتى البالغين قد يلجأون إلى ارتكاب أفعال تعبر عن الاحتجاج والتذمر والتمرد تحت وطأة «عزلة المخ الأيسر». رجل الأعمال الذى يستولى عليه الملل يبدأ فى إغواء سكرتيرته حتى لو لم يكن يراها جذابة؛ والزوجة التى تشعر بالملل تذهب لتسوق مالاً تحتاجه إذا كان دخلها يسمح بذلك. لقد خصص «دستويفسكى» رواية كاملة أسماها «الممسوس» لعرض حالة رجل يقوم بأداء أعمال فاضحة دون أى دافع واضح. إلا أنه أقر أن كل ذلك ينبعث من إحساس داخلى ناتج عن افتقاده لما يمكن أن يفعله بتلك القوة البدنية الهائلة التى لديه.

كذلك بطل رواية «أندريه جيد» المسمى «لافاكاديو» الذى دفع رجلا لا يعرفه من نافذة القطار السريع بلا أى دافع. وفى رواية «سارتر» «سن العقل»، قام طالب اسمه «بوريس» بالسرقة من المتاجر لخلق مشاعر وأحاسيس بالإثارة. رغم أنه غنى ولا يحتاج إلى ما يسرقه.

وحين ندع الأعمال الأدبية وننتقل إلى عالم الواقع، لن نجد من يرتكب جرما خطيراً لمجرد أنه كان يشعر بالملل، ويفشل الملل فى أن يكون تفسيرا ملائما لجرائم مثل تلك التى ارتكبها «كلاوس جوسمان»، و«إيان برادى»، و«سيجفارد ثورنمان»، أو الجرائم التى ارتكبها شخص مخادع تماماً وغشاش حقير مثل «چون هيج» الذى كان يذيب أجساد ضحاياه بالحامض. جوهر

الجريمة ليس إلا نوعاً من الوعى بالذات، الوعى بفعل «الخطأ». بمعنى دقيق، فإن مذابح «الإسكندر» لا يمكن اعتبارها جرائم. فحين أمر «الإسكندر» بذبح كل سكان مدينة هندية، كان ذلك لأنهم نسل الإغريق الذين قاموا قبل ذلك بمائة وخمسين عاماً بتسليم كنوز معبد أبوللو إلى الملك الفارسى «إكسركسس»، وشعر وقتها أنه لم يكن إلا أداة للعدالة الإلهية.

حتى لو كان ارتكب المذبحة بروح من المتعة السادية، فلن يكون دقيقاً من الناحية الدلالية أن نصنفها بأنها جريمة. فالعالم القديم كان مكتظاً بالطغاة الذين كانوا يقتلون لمجرد المتعة؛ فلقد سجل «بلوتارك» من بين ما سجله ما فعله «أليكساندر» حاكم مدينة «فيرى» فى «ثيسالى». كان «أليكساندر» يدفن الرجال أحياء، و«يلبس ضحاياه جلود دببة وجلود خنازير برية، ثم يطلق عليهم كلاب الصيد». ودعا سكان مدينتين حليفتين له لاجتماع عام وحين اجتمعوا حاصرهم ومزقهم إرباً دون سبب. لكن، مرة أخرى، نجده يعتبر أن ذلك حق من حقوقه؛ ولذلك لم يكن لديه أى إحساس أو وعى، لا بالجريمة ولا بالذنب. (من المبهج أن نسجل هنا أيضاً أنه قد اغتيل بتحريض من زوجته).

بالمقارنة، نجد أن كلاوس جوسمان وإيان برادى ارتكبا جرائمهما مع نظرة قلق وإحساس داخلى بالذنب تجاه المجتمع. بالرغم من تبجحهما وتظاهرهما بالشجاعة واللامبالاة وإظهار التحدى والاستخفاف، إلا أنهما أدركا أنهما يرتكبان «أخطاءً»، كما اختلف موقفهما العقلى عن الحكام الطغاة بمقدار اختلاف الموقف العقلى لتلميذ مدرسة عن ناظرها. ويقودنا ذلك إلى التحقق من نقطة مهمة، وهى أن الجريمة تصبح ممكنة فقط حين تكون هناك سلطة ضد من هى واقعة عليهم. فى المدن المبكرة، كان الملك يعتبر نفسه خادماً للآلهة. فى ذلك الوقت ربما كانت الجريمة غير موجودة عملياً. فلارتكاب جريمة - سرقة أو قتل أو تعذيب - فى تلك العصور، كان مقترفها يعد متحدياً للآلهة؛ وتحت التأثير النفسى للحكم الدينى، فإن ذلك كان موازياً للانتحار. وحين تحول الملوك بعد ذلك إلى طغاة - أى تمكنوا من وسائل القوة وحكموا باسمهم الشخصى لا نيابة عن الآلهة - تحققت الشروط الأساسية النفسية لارتكاب

جرائم. فلارتكاب جريمة، يجب أن يستوعب المرء وجود سلطة، وأن يكون موقفه إزاءها معادياً ورافضاً لها. الجريمة بطبيعتها الأساسية، معادية ومضادة للسلطة بمعناها العام. ويمكننا أن نتحقق من رفض السلطة والإحساس بالاستياء منها من سياق القصة التالية: (نقلها لودڤيك كنيدى فى كتابه المسمى «كتاب عن رحلات السكك الحديدية»):

كان بالمقصورة رجل إنجليزى آخر مسافر عبر شبه القارة الهندية إبان الاحتلال البريطاني للهند هو اللورد «روسيل»، اعترض اللورد على وجود رجل هندى قروى معه فى المقصورة نفسها. حين كان القطار يغادر رصيف المحطة شرع الهندى فى فتح مخلاته المصنوعة من نسيج الأبسطة، وأخرج منها خفاً وشرع فى فك رباط حذائه ليضع الخف فى قدميه بدلاً من الحذاء. قال اللورد وكان قاضياً فى الإمبراطورية الڤيكتورية العظمى فى حسم وبرود: لو خلعت حذاءك سألقيه من النافذة، رد الرجل الهندى بأن له الحق أن يفعل ما يشاء فى بلده طالما لا يضايق غيره ولا يلحق بهم ضرراً. خلع الرجل حذاءه فرماه اللورد «روسيل» من نافذة القطار.

ما أشير إليه فى هذه القصة هو: «اعترض اللورد على وجود رجل هندى قروى معه فى المقصورة نفسها». وهى تظهر أن اللورد كان يسلك سلوكاً يفتقد أى منطق، وهو كرجل صاحب مركز مرموق يمثل الإمبراطورية البريطانية العظمى، أحس أن لديه كل الحق أن يأمر رجلاً محلياً ألا يخلع حذائه لاستبداله بخف؛ كان البريطانيون يمارسون السلوكيات نفسها فى جميع أنحاء العالم وعلى مدى قرون. ونشعر ونحن نقرأ ذلك، أنه كان من حق القروى الهندى أن يقبض على عنق اللورد «روسيل» ويلقيه من النافذة. مثل ذلك الاعتداد الغبى بالذات يولد ميولاً للقتل لدى الغير، وهو الشعور الذى يدفع أيضاً إلى إدراك أن السلطة يجب أن تواجه بعنف وهو ما يكون جوهر الجريمة، وهو الشعور نفسه الذى دفع «كرومويل» إلى اتخاذ قرار إعدام الملك تشارلز بقطع رقبته. كل جريمة هى ـ بشكل أو بآخر ـ تمرد فرد أو جماعة على سلطة.

هذا الشعور فيه إغراء للجانب الرافض للسلطة لدينا جميعاً. وهى القاعدة والمبدأ فى كل الفلسفات اليسارية، من «روسو» حتى «ماركس». ولكن قبل أن نقع فى غواية التعاطف مع مفهوم أن الجريمة احتجاج صحى مضاد للسلطة، لابد أن نتذكر أن معاداة السلطة ليست إلا شرعية طفولية. يتضح ذلك بجلاء من خلال مجموعة من نكات الأطفال جمعتها باحثة اجتماع أمريكية اسمها «ساندرا ماكوش» فى كتاب اسمته «الدعابة عند الأطفال» وهاهى أمثلة من الكتاب:

كانت هناك طفلة لطيفة صغيرة، أمها متوعكة فى فراشها ولا تريد إزعاجاً، قالت الطفلة لأبيها: أبى، هل استطيع أن أنام معك فى فراشك؟ قال لا ،قالت سأصرخ وأبكى، قال حسناً سأدعك تنامين معى، وذهبا إلى الفراش، ثم سألت الطفلة: أبى، ما هذا الشيئ الطويل؟ قال إنه دبّى اللعبة، قالت هل أستطيع أن ألعب بدبَك؟ قال لا، قالت سأصرخ وأبكى، قال حسناً إلعبى ولكن دعينى أنام لاستيقظ باكر وأذهب لعملى، فى الصباح استيقظ ووجد دماً فى كل مكان على الفراش، سأل الطفلة ما الذى فعلته؟ قالت: دبًك اللعبة بصق على فقطعت رأسه».

ولد اسمه «چونى انكح بسرعة» كان مع فتاة أسفل المنزل ولم تكن أمه تعلم أن معه فتاة ونادته من الطابق العلوى قائلة: چونى، تعال فوراً، قال چونى للفتاة وكانا فى منتصف ممارسة جنسية: على أن أذهب، نادته أمه مرة أخرى بصوت أعلى: چونى انكح بسرعة، تعال فوراً، رد فى عجلة وبصوت مرتفع: أنا أنكح بسرعة بقدر ما أستطيع.

فى نكتة نمطية أخرى تأمر الأم ابنتها ألا تتسلق أعمدة الإنارة حتى لا يرى الأولاد ملابسها الداخلية. وعادت الفتاة ذات مرة وأخبرت أمها أنها خالفت أمرها وتسلقت أعمدة الإنارة، صاحت أمها: لقد أمرتك ألا تفعلى ذلك، قالت الفتاة: لا تخشى شيئاً، لقد خلعت ملابسى الداخلية وأخفيتها قبل أن أتسلق عامود الإنارة.

بعد المضى صفحات فى ذلك الكتاب، تبدأ تلك النكات فى ترك أثر من

الإحساس بالحصار؛ ناتجها النهائي سلبي بوحه عام. ويزعج الشخص الناضج انعدام المنطق في تلك النكات؛ فالأب يصل إلى القذف أثناء نومه.. وذلك جائز.. إلا أنه من غير الجائز أن يظل مستغرقاً في نومه حين تقطع طفلته رأس قضيبه كذلك الأم التي تسمي ابنها «چوني انكح بسرعة»، نجد أنه يتغافل عن أنها تناديه بالاسم الذي اعتاد عليه ويعتقد أنه أمر لا نداء.. وهي تحتاج إلى قدر كبير من تجاوز المنطق ـ للوصول إلى نتائج معتدلة «القبح».

تزوج شاب من فتاة، وحين أصبحا في الفراش لم يعرف ماذا يجب عليه أن يفعل. في اليوم التالي قالت له أمه: لابد ن تفعل لها شيئاً، سأل أمه في حيره: ماذا أفعل؟ قالت الأم: افعل شيئاً قذراً.. وحين كان في الفراش مع عروسه تبرز على الفراش.

القبح في تلك النكات بالنسبة لفتاة أن يرى الأولاد ملابسها الداخلية، والجنس قذارة تماثل التبرز على الفراش؛ التبرز على الفراش قد يثير الضحك لأنه ممنوع. وهناك نكات لا حصر لها تعتمد في تناقضها الداخلي على جهل الأطفال بمعاني الكلمات: فمثلاً نجد في بعض النكات أن قضيب الأب يعني قطاراً، وفرج الأم يعني نفقاً، ثم ينادي الصبي أخته قائلاً: «أنظري يا أختي، قطار أبي حشر في نفق أمي...)، في نكات أخرى نجد أن كلمة النكاح تعني ذهاب الشخص للاغتسال، والبراز يقابله طعام، والرقيع يوازيه قس، فيخاطب الطفل قساً قائلاً: «كيف حالك يارقيع، أمي بالكاد قد نكحت قبل أن تعد البراز». في أغلب تلك النكات نجد أن الطفل يعمق ببراءة من سلطة أبويه أو القس أو مدرس المدرسة. نكات أخرى تستمد تأثيرها من كونها تبعث على الغثيان، مثل متشرد يأكل قطة ميتة، أو يشرب محتويات مبصقة وهي نكات مثلها مثل التبرز على الفراش، نكات «قذرة» ولذلك فهي مضحكة، «القذارة» ممنوعة، فهي مضحكة لأنها تبيح الممنوع.

هذه النكات تمكننا من إعادة تركيب العالم العقلي للطفل التي نسيها أغلبنا: العالم يبدو للطفل كما يبدو في عيون دودة. فالكبار لديهم أفكارهم الغريبة عما هو «مضحك» ـ الدين، السياسة، الرياضة ـ إلا أن الطفل يدرك

أفضل. فالفكاهة بالنسبة لطفل هى أن يفعل أشياء مثيرة لا يحب الكبار أن يفعلوها. كل تلك الأشياء التى يسميها الكبار «قبيح أو بذئ».

ذلك هو السبب فى أن أغلب الأطفال لديهم ميول عدوانية وقدر من القسوة يجعلهم يشعرون بالمتعة فى نزع أجنحة الذباب الحى أو إلقاء أعواد ثقاب مشتعلة على قطة. وهو هنا، وعلى نطاق ضيق يصبح هو أيضا «إسكندر أكبر»، حر فى إطلاق أفكار ممنوعة يحولها إلى أفعال تسبب ألماً.

عالم الطفل محدد بأكمله تقريباً، بإطار من سلطة الكبار، ورغبتهم الحميمية الخفية فى خداع تلك السلطة.

ولكن هل نمىَ الكبار لديهم تلك النزعة؟ الممثل الهزلى يدلى بتعليق يقلل فيه من شأن أحد الساسة أو يستخف به حتى يثير الضحكات العميقة بل حتى التصفيق الحاد، ولا يحتاج منه الأمر أن تكون ملاحظة فكهة، بل يكفى أن يغمز ويلمز بإشارة ما إلى أحد كبار المسئولين مما يبعث إحساساً فى المستمعين أنهم يردون على السلطة بتحد ولو بالسخرية، الممثلون الهزليون الذين يكونون مفاهيمنا عن التمرد وعدم قبول السلطة ـ مثل الأخوان ماركس. ولينى بروس، ومورت ساهل، وسبايك ميليجان ـ ينتمون إلى عالم الأذكياء.

الفرد المعاصر «الأكثر جرأة» الذى يتمتع بحس عال من المرح، لا يغريه التهريج الفج المباشر الذى يقوم به بهلوان (كان ت. س. إليوت معجباً جدا بجروتشو ماركس)، إلا أن أى امرئ يشاهد أكثر مما يجب هذا النوع من الفكاهة ـ لنقل مثلاً مشاهدة برامج الأخوان ماركس فى التلفاز على مدى عام كامل، سيدرك حينئذ أن القضايا التى يقدمها فى إطار فكاهى وسخريته من السياسة والسلطة تخلو من المنطق ولا تنطوى على دقة مطلقة.

السخرية من السلطات تفرغ جلال ووقار وسمو السلطة من محتواها. وتعمل على تضخيم ذات المشاهد لها، إلا أنها تصبح مادة ضحلة بعد الدقائق الخمس الأولى. الإعراض عن التعامل بجدية مع أمور معينة يعد فكاهيا حتى نقطة معينة، ثم يتسرب بعدها إحساس غامض باللاجدوى حتى يغمر النفس.

حين غنى جروتشو ماركس أغنية : «مهما كان الأمر ، فأنا ضده» ، نجد أن المعنى يمضى على هوانا طالما لم نتعمق فى التفكير فيه ، فالمعنى السطحى الظاهرى يعبر عن التمرد الذى فينا . الفوضى وعصيان السلطة منعش نفسياً فقط ونحن نرفضها داخلنا بينما يحوم القانون فوقنا وفى خلفية المشهد .

إنه الإحساس بالزيف نفسه الذى أفسد أعمال دى ساد . فأبطال روايته التى تحمل اسم « ١٢٠ يوم فى سادوم» ، ليسوا إلا أمثال لتلاميذ المدارس الذين يشعرون بالبهجة عندما يقدمون على عمل ما لأنه ممنوع ومحرم . هناك فقرة فى كتابه على لسان إحدى العاهرات تصف فيها كيف طلب منها أحد زبائنها أن تترك قدميها دون اغتسال لمدة أسابيع ، ثم ليأكل ويلعق القاذورات التى تجمعت بين أصابع قدميها على مدى تلك الأسابيع .

عمل يثير الإشمئزاز والتقزز والغثيان فى أكثر البشر فسقاً ، إلا أن كيرڤل يجد لذة فى تناول قدميها القذرتان ليلعق ويأكل ما بين أصابعها من القاذورات (لابد أن ألفت النظر إلى أن كيرڤل هو كبير هيئة القضاء - وهو المقابل عند دى ساد للنكات الموجهة ضد الساسة للنيل من هيبتهم وسلطتهم) . خليع آخر يمضى أبعد من ذلك ويعلق قائلاً : كل ما تحتاجه هو أن تكون منهكاً لتشعر بغنى المعنى فى لعق القاذورات من بين أصابع أقدام العاهرة : الإشباع التام ملهم . . . البشر يعانون من الملل ، وضحالة الخيال وتفاهة المعانى فى المقام الأول ، ملكاتنا العقلية الضعيفة ، وخراب أرواحنا وفسادها ، يقودنا إلى البغض وألمقت الشديد وكراهية البشر والوجود» .

ومن الواضح أنه يفتقد بعد النظر فى مساواته بين النقد البناء والنقد الهدام .

ويذكر دى ساد فى الكتاب نفسه نوعاً آخر من الشذوذ يمارسه جنرال عجوز متقاعد ، فهو يهوى الاستمناء وهو يشاهد الندوب القديمة فى بدن سيدة كانت تجلد فى صباها فى أماكن عامة بعد ادانتها بالسرقة ، وكان قيامه بذلك يشعره بمتعة لا تضاهيها أى متعة أخرى .

هذا هو إذن جوهر السرقة : خداع غير مبرر للسلطة (أى سلطة ، سيان

نظامية أو غير نظامية) ، وبهذا المفهوم نجد أن الطفل مجرماً بالسليقة ، لأنه يحيا في عالم من السلطة : سلطة تمتد لأقصى ما يستطيع نظره أن يمتد ، من الأبوين ، إلى المدرسة ، ومن الشرطة إلى رئيس الوزراء . .

وبعد أن يكبر ، يتعلم المشاركة في تحمل عبء أن يكون ذا سلطة ـ وربما يبدأ بممارسة السلطة على إخوته الأصغر أو أخواته البنات ، أو على الأطفال الأصغر منه سناً في المدرسة . وفي وقت ما يتزوج ويكون له أولاد ، فينزلق بشكل متدرج إلى مكانه الطبيعي بين الكبار الممارسين للسلطة .

وبالرغم من أنه أصبح مقتنعاً بالحاجة إلى وجود سلطة وقوانين على كل المستويات ، إلا أن مشاعره العميقة الذاتية تظل على رفضها لأى سلطة تمارس عليه وبالتالى يضحك بعمق حين يسخر أحد الفكاهيين من السلطة .

وبالنسبة لأغلبنا ، لا يصل الجانبان المتناقضان فينا (رفض السلطة . وممارستها) إلى حد الصراع المفتوح أو المباشر ، ويبقى العقل والمنطق فى صف القانون والنظام ، أما المشاعر فهى ضد السلطة .

أما حالة المركيز دى ساد ، فهى ذات أهمية رمزية ، ليس فقط لأنه حاول التوصل إلى حالة من التصالح بين الجانبين المتناقضين : بل لأنه حاول تبرير مشاعره بإيجاد أسباب عقلانية . كان دى ساد فوضوياً بطبيعة بشرية ؛ صاغ مفاهيمه بأساليب وصلت إلى حد العبث ومجافاة العقل . وبالرغم من ذلك . فإن دى ساد يمدنا بأعمق الرؤى فى إجابة التساؤل المطروح : لماذا يعد البشر المخلوقات الوحيدة التى تقوم بقتل وتعذيب أبناء جنسها ؟

من الممكن أن نعتبر دى ساد مرجعاً ذا أهمية فائقة فى دراسة علم الإجرام . آراؤه ورؤاه عن الطبيعة البشرية مادية بحتة ومتشائمة . لو كان دى ساد حيا حتى الآن ، ورأى معدل الجريمة المعاصر ونوعيته ، كان سيضحك ساخرا من أعماقه قائلاً : ألم أقل لكم . كاان سيرى أن البشر تنطبق عليهم رؤيته : بشر خلقتهم الطبيعة بالمصادفة ، ولا يوجد لديهم إلا دافعان : التمسك بالبقاء . وإشباع الرغبات . والدافعان يخلقان صراعاً بينهما ، فالنمر الجائع يحتاج إلى إشباع جوعه ، والوعل البرى أو الغزال ليس لديه اختيار فى أن يكون طعاما

للنمر الجائع. والمجتمع البشرى يماثل تماماً النمر والوعل البرى: فهما «القادر» و«غير القادر». القادر لا يستعمل فقط قوته الأقدر والأقوى (أو ثروته) لإشباع رغباته، بل يستعمل أيضاً براعته وقدرته لإقناع غير القادر بأهمية القوانين الأخلاقية التى تمنع السرقة والقتل. وعاجلاً أو آجلاً، كما يذكر دى ساد، سيكتشف غير القادر أن القوانين والأخلاق من اختراع الأغنياء والقادرين، حتى يتمكنوا من أخذ ما يريدون أخذه، حينها سيرتفع معدل الجريمة بحدة...

وطبقاً لآراء دى ساد، يرغب البشر فى امتلاك قدرات لا نهائية، أن يكونوا آلهة وإذا استطاع أى امرئ أن يكون إلهاً، فإنه سيمارس كل أنواع المتع والمسرات: سيأكل كل ما كان يشتهى أن يأكله، ويفعل كل ما كان يود فعله، سينتقم من أعدائه القدامى، ويعذب البشر الذين كان يكرههم، وفوق كل ذلك سيقوم بإشباع رغباته الجنسية مع كل من كن يثرن فيه تلك الرغبة، ومن المحتمل مائة مرة فى اليوم الواحد.

هل يمكن لأى كائن بشرى أن يعد بأمانة وشرف أنه لن يسلك سلوكاً آخر؟

من هنا يصل دى ساد إلى إثبات أن الإنسان مجرم بطبيعته، إلا أن الخوف من العقاب هو الذى يجبره على كبح رغباته..

إذا قبلنا فروض دى ساد المثيرة للجدل - التى - رغم كل شىء، هى نفس فروض علماء وفلاسفة كثيرين معاصرين، فإننا نقبل طرحها لأنه من الصعب تجاهلها. إلا أن هناك جانباً منها يظل مفتوحاً للاعتراض. وهو أن إشباع كل الرغبات البشرية لا يحقق السعادة أو على الأقل لا يضمن تحقيقها، فالرغبات تبدو كأنها «قانون العوائد المتناقصة»...

فالإنسان الذى بإمكانه أن يشبع كل رغباته فى اللحظة التى يشعر فيها باشتعال تلك الرغبات، يحتمل أن ينهى حياته بالانتحار من شدة الملل. كان ذلك جوهر مشكلة دى ساد. لقد كان شاباً وغنياً ووسيماً، شبع من كل أنواع المتع الجنسية المعروفة قبل أن يصل إلى منتصف العقد الثانى من عمره، وقضى باقى عمره فى مطاردة وملاحقة «المحرم» من الرغبات لتحقيق أقصى متعة جنسية. وكان كلما اجتهد فى التوصل إلى أشكال جديدة من المتعة، شعر أن

المتعة الكاملة التى يبغيها تتناءى عنه. تدرجت لديه ألوان الشذوذ سعياً إلى تحقيق أقصى متعة جنسية حتى وصلت إلى أقصى حدود التطرف حتى إنها اتخذت أشكالاً وحشية بشعة تبعد عن كل ما هو طبيعي، ووصلت إلى حد الضحك المر من تطرفها وغرابتها.

حين نتأمل ذلك «التراجع الأبدى»، نجد أنه يمكن أن ننسبه إلى ما يسمى «زيف التجربة البسيطة» لقد كانت قناعة دى ساد أن التجربة تشبع الحواس بنفس الطريقة المباشرة التى يشبع بها الطعام معدة جائعة، فالمرء حين يجوع، يصبح للطعام أثراً مباشراً فى ملأ المعدة وإشباع جوعها، وهو قانون وظيفى مقتصر على وظائف الأعضاء، ولكن، حتى لو كان ذلك صحيحاً، ووجدت أن الطعام شهياً، أو غير شهى لا يثير الشهية، أو حتى يثير الغثيان، فإنه طبقا لحالتى العقلية والنفسية يتأثر هضمى لذلك الطعام، إن الهضم الجيد يعود بنسبة خمسين بالمائة إلى الحالة العقلية النفسية. أما الجنس فيتوقف بنسبة أكبر كثيراً على الحالة النفسية. ففى الحالة المعنوية السيئة لا يصبح الإشباع الجنسى إلا ومضة، تتراقص وتتراءى على البعد ثم تتلاشى.

ولذلك نجد أن قناعة دى ساد بأنه «يوجد إشباع جنسى كامل، إذا توفرت العزيمة الكافية والشجاعة المعنوية لتحقيقه»، ليست إلا وهماً. ونجد رداً على معتقدات دى ساد فى فقرة كتبها «كيركجارد» فى كتابه الذى يحمل اسم «إما وإما»:

«يمكننا متابعة تاريخ الملل حتى نصل به إلى البدايات الأولى للوجود. كانت الآلهة حينها تشعر بالملل، فخلقت الرجل، ولما وجد آدم نفسه وحيداً شعر بملل شديد، فخلقت له الآلهة أنثى هى حواء، فزاد الملل فى ذلك العالم وأخذت نسبته فى الزيادة مع زيادة البشر وتنامى أعدادهم وتكاثرهم لقد كان آدم يشعر بالملل وحده؛ فتحول الأمر إلى أن يمل هو وحواء معاً. ثم مل آدم وحواء وقابيل وهابيل مللاً أسرياً؛ ثم تكاثر سكان العالم وملت الشعوب مللا جماعيا. وحتى يكافحوا الإحساس بالملل أقنعوا أنفسهم بفكرة بناء برج عال بما يكفى للوصول إلى السماء والآلهة، بدت الفكرة نفسها أكثر مللاً كلما علا البرج.

وأصبح البرج دليلاً مرعباً على كيفية تحول الملل ليصبح صاحب اليد العليا فى كل شيء فى الوجود». زيف وخداع الفكر البشرى يكمن هنا فى مفهوم أن التخلص من الملل يكمن فى التشتت، أو البحث عن شيء «مثير» وعمله.

لذلك نجد أن كل أفكار وأعمال دى ساد لم تكن إلا نوعاً من البرج الجنسى مثل برج بابل، وكلما تعمق فيه زاد الملل. الحل الحقيقى للملل كما يرى «كيركجارد» يكمن فى اتباع «المنهج المتناوب المتغاير»، وهو المنهج ذاته الذى يتبعه الفلاحون والمزارعون فى تغيير نوع المحصول عاماً بعد آخر حتى لاتجهد الأرض.

هنا يواجنا مبدأ المحدودية، وهو المبدأ الوحيد المنقذ فى هذا العالم. فكلما حددت وحجمت ذاتك، زادت خصوبتك فى الإنجاز والإبداع. فالسجين المحكوم عليه بحبس انفرادى مدى الحياة يصبح امرئ شديد الإبداع، قديجد فى حشرة عنكبوت على حائط زنزانته مصدراً لمتعة عظيمة، وتسلية فائقة. ويكفى أن نشير إلى تجربة تلميذ مدرسة حين يجد تسلية وإثارة فائقة فى الإمساك بذبابة وحبسها تحت قشرة بندق... أو إثارة متابعة صوت تساقط قطرات الماء الرتيب من حافة سقف منزل غب المطر...».

ما الذى يفعله سجين محكوم عليه بحبس انفرادى مدى الحياة للتغلب على الملل؟ وما الذى يفعله تلميذ مدرسة وهو يستمع إلى صوت تساقط قطرات المياه؟ الإجابة هى فى غياب التوقع، إن انعدام التوقع يجعل المرء يبطئ من إيقاع حواسه التى تؤدى إلى تضخيم قدرته على الإدراك، وهو يتوصل إلى تحقيق ذلك «التباطؤ» بزيادة انتباهه. إنه يفعل ما يفعله العالم الذى يضبط وضع الشريحة التى يفحصها فى بؤرة عدسات الميكروسكوب، أو يشبه ذلك الرجل الذى يصب نبيذاً معتقاً من خلال قمع حتى لا يضيع قطرة واحدة. تلميذ المدرسة أيضاً يصب انتباهه من خلال قمع على الذبابة التى حبسها تحت قشرة البندق. أما دى ساد، فقد كان له مزاج التلميذ المشاكس المزعج؛ كان عجولاً ويفتقد الصبر اللازم لإمرار تركيزه من خلال قمع، ثم يتعجب بعد ذلك من أن تجاربه لم تكن مشبعة ولم تحقق له الإشباع الجنسى الذى كان يأمله.

لقد فسرت ملاحظات وتجارب «روجر ـ سبيرى» هذه الظاهرة. فقد لاحظ أن نصف المخ الأيمن ـ وهو نصف المخ المختص بالحدس والتخمين ـ يعمل فى إيقاع أبطأ من النصف الأيسر. النصف الأيسر ـ «أنت» ـ هو النصف الذى يتواءم ويتآلف مع العالم، ويبدو دائماً وكأنه فى عجلة من أمره. أما النصف الأيمن فهو متمهل ويمضى فى روية وإناه فى إيقاعه الخاص به. والنتيجة أن النصفين يفقدان التواصل فى أغلب الأوقات. وفى كل مرة تصبح فيها «متوتراً» أو متلهفاً أو مجهداً، تتسع الهوة بينهما فى معدل الأداء وتتسم الاستجابات والأفعال بعدم الإحساس بالواقع. والسبب يرجع إلى أن عمل نصف المخ الأيمن هو تزويد العقل بالخبرات والتجارب مع بعد ثالث للواقع، وهو لا يستطيع أن يقوم بذلك إلا إذا كان النصفان يعملان فى إيقاع أو معدل يمضيان فيه جنباً إلى جنب.

لذلك، حين يركز السجين على العنكبوت، وحين يركز تلميذ المدرسة على الذبابة التى حبسها تحت قشرة البندق، فإنهما يبطئان عمل النصف الأيسر حتى يمضى بإيقاع نصف المخ الأيمن. وحين يحدث ذلك، فإن التجربة بأجمعها تصبح «مثيرة».

كأنما ضغط المرء زراً يحول به الوعى من نصف المخ الأيسر ـ أى من نمط المخ الأيسر ـ إلى نمط إحساس وإيقاع نصف المخ الأيمن.

إن ذلك يفسر أيضاً لماذا يبعث الكحول أحياناً تلك الحالات المتعة من الارتخاء والتى نشعر أثناءها بالرضا الكامل والتواصل مع الواقع الحسى الحاضر. فالكحول يوقف الاندفاع المتعجل للنصف الأيسر ويحرضه على الاسترخاء. واكتشف دى ساد أن الجنس من الممكن أن ينتج نفس التأثير. ولكن لا الكحول ولا الجنس يعملان طول الوقت؛ فالنصف الأيسر قد يرفض ببساطة أن يبطئ من معدل أدائه.

ويثبت كل ذلك أن الجريمة كانت من النواتج غير المستحبة سيئة الحظ الناجمة عن تطور العقل البشرى. إن الذكاء البشرى ينطوى على قدر من البصيرة والقدرة على التنبؤ والتخمين، وتمكن تلك القدرات البشر من تقدير كيفية التوصل إلى تحقيق الراحة والرفاه والأمان والمتعة. وهى أيضا تجعل من

المرء مجرماً بالضرورة، فأبسط الطرق وأسهلها لتحقيق ما يريد ، هو أن يخرج وينتزع ما يريد ويستولى عليه غصباً ـ وهو المنهج الذى تبناه ودافع عنه دى ساد.

لو كان «جاينيس» على صواب، فمن المفترض أن تلك الدوافع لا تنطبق على أسلاف رجل الكهف، لأن نصفى مخهما كانا لم يفقدا بعد الاتصال والتواصل الذى أصبح عليه المخ بعدها. فتعقيدات التطور والتحضر هى التى أدت إلى التطور المستقل لنصف المخ الأيسر فأصبحت الجريمة ممكنة.

لقد رأينا كيف أن منهج دى ساد ـ المنهج الإجرامى ـ فشل فى تحقيق هدفه. لقد هزمت مخاوفه العميقة أهدافه. إن المجنون بذاته الذى يقوده استيائه وغيظه، يدمر تدريجياً إحساسه بالواقع (وبنزرام مثال واضح على ذلك)، والنتيجة إما أن يدمر ذاته؛ أو أن يكون محظوظاً ويتعرف على مكمن الخطأ ويتداركه فى الوقت المناسب ويصحح اتجاهه (قديسون كثيرون بدأوا حياتهم «كخطاة» وذاتيين؛ واكتشفوا خطأهم فى الوقت الملائم).

كل الجنس البشرى ينطوى على عنصر إجرامى، ويقرر «بيكر» أن كل طفل مجنون بذاته. ولحسن الحظ، فإن قليل منا من يمضى إلى المدى الذى ذهب إليه «بنزرام»، أو «دى ساد». ولا يعود السبب كما يعتقد دى ساد إلى خوفنا من المجتمع وقوانينه الرادعة، بل لأن الغالبية أذكياء بما يكفى طبقاً لـ«مبدأ» كيركجارد، وهو «مبدأ المحدودية». ولا يعد ذلك تطوراً حديثاً، فهو قديم قدم التاريخ البشرى المسجل. إن «مبدأ المحدودية» ـ وهو إدراك أن السعادة البشرية تنبع من الانضباط الذاتى ـ نجده فى نصوص هندوسية ترجع إلى ألف عام قبل الميلاد، وموجود أيضاً فى نصوص الأهرام، وفى النصوص المبكرة لحضارة ما بين النهرين.

قد يكون البشر حيوانات مجرمة؛ إلا أنها أيضاً حيوانات متدينة، ويبدو أن الدين أقدم كثيراً من الإجرام.

يمكن فهم الجريمة كجزء وجانب من التطور الإجمالى الكلى. لقد تطور لدى البشر «وعيهم المنقسم» كوسيلة من وسائل البقاء وحفظ النوع. وبشكل ما.

كان البشر أفضل كحيوانات، فوعي الحيوان أبسط وأغنى (من الممكن أن نكتسب بعضه أو لمحة منه تحت تأثير الكحول ـ ذلك الإحساس المفاجئ بالدفء والواقع)، إلا أن ذلك الوعي الغريزى الحيوانى ذا تأثير سلبى أو عيب رئيسى؛ فهو ضيق جداً، لأنه محدود بلحظته وزمنه. ولذلك تطور نصف المخ الأيسر للهروب من تلك المحدودية المقيدة باللحظة، وأصبح لديه القدرة على تجاوز اللحظة الراهنة: وهى القدرة على التجريد، وتوصل إلى ذلك بتحويل الواقع إلى رموز وأفكار، لقد أصبح نصف المخ الأيسر «بصفة أساسية وجوهرية صانع خرائط».

تخيل رجلاً غريباً يصل لأول مرة إلى مدينة كبيرة مترامية الأطراف متسعة الأرجاء إلا أنها بدائية، ويتعين عليه أن يتجول عبر أرجائها. بإمكانه بالطبع أن يسأل سكانها عن دروبها ومسالكها، أو يستأجر أحد أبنائها كمرشد؛ ولكن كلا الوسيلتين لا يفى بغرضه. فإن أراد أن يكون مستقلاً بذاته، فإن أفضل وسيلة لتحقيق غرضه أن يكون بحوذته خرائط لتلك المدينة، وإن لم يكن بتلك المدينة البدائية خرائط، فإن عليه أن يصنع تلك الخريطة، وبمجرد أن يحقق ذلك، سيكون بإمكانه أن يشق طريقه إلى أى كان بالمدينة بثقة تماثل ثقة أكبر سكان المدينة عمراً ممن حفظوا كل مسالكها ودروبها. وسيعرف، عدا ذلك. كل الشوارع والأحياء أفضل من كثير من سكانها، الذين لا يعرفون إلا الجانب الذى يقطنونه.

إلا أن هناك جانباً سلبياً فى استعمال الخرائط، فهى لن تمكنه من «معرفة» كل المدينة، حين يتطلع إلى الخريطة، لن يرى إلا تجريدات، فالخرائط ليست إلا تجريد، مدعومة فقط بعلامات محدودة مختارة من «الواقع» تلك هى الحالة التى عليها البشر فى مرحلة التطور الحالية. فهم يقضون زمناً طويلاً من حياتهم المبكرة بالمدرسة، ليكتسبوا «خريطة» للعالم الذى يحيون فيه. إلا أنه حين يترك المرء المدرسة، فإن معرفته «بالواقع» فى هذا العالم محدودة للغاية لأنه لم يعرفه إلا تجريداً، فى حين أن الحياة المعاصرة على درجة كبيرة من التعقيد والتشابك والتداخل والإرباك حتى إن مساحات شاسعة من تلك الخرائط المعرفية المجردة

عن العالم تظل غير مدركة وغير «واقعية» فى الذهن البشرى، ويصبح الإنسان غير المتحضر أو البدائى الذى يقضى عدداً مساوياً من الأعوام (التى يقضيها المتحضر فى المدرسة) فى صيد الحيوانات البرية وصيد الأسماك، لديه فكرة أضيق كثيراً وأقل مساحة عن العالم؛ إلا أن ما يعرفه ويدركه يتميز بنكهة حقيقية من التواصل مع الواقع. بشكل ما، يبدو الإنسان المتحضر المعاصر وكأنه قام بمقايضة غير مجزية. لقد اكتسب خريطة، ولا شيء عدا ذلك.

مفهوم «الخريطة» يفسر جوهر مشكلة الجريمة. فالإنسان محدود الإدراك بواقع العالم الحقيقى، يتصفح خريطة مدركاته المجردة ويتخيل أنه يرى عدداً من الطرق المختصرة. فالسرقة طريق مختصر للثروة. والاغتصاب، طريق مختصر للإشباع الجنسى. والعنف طريق مختصر لتحقيق هدف ما. وتتصف كل الطرق المختصرة بالطبع بعيوب ومساوئ؛ إلا أنه لا يدرك ذلك إلا بعد أن يمضى فيها فى عالم الواقع.

لذلك تعد الجريمة نتيجة لأعظم إنجاز تطورى للبشر؛ وهو قدرتهم على صنع «خرائط». ولحسن الحظ فإنه عيب غير ملازم، فالمشكلة ليست اختياراً بين واقع حقيقى وخريطة غير واقعية. فمن الحقيقى أن أقدم وأكبر سكان المدينة يعرفون ارجاءها أكثر من صانع الخريطة. إلا أن صانع الخريطة، إذا أراد أن يعرف الكثير عن المدينة، فإنه سيتمكن من إنجاز ذلك فى وقت أقل كثيراً من الوقت الذى يستغرقه قدامى سكان المدينة لإنجاز الهدف نفسه، فباستعمال خريطته، من الممكن أن يعرف الكثير فى أسابيع بدلاً من أعوام.

إن قدرة البشر الخرائطية التجريدية فى كل أنواع المعارف، قدرتهم على استعمال عقولهم، توفر له إمكانية السيطرة على الواقع والتى تبدو بجانبها المساوئ الناجمة عن تطور المخ غير ذات أهمية.

قبل أن نعكف على الجانب الرئيسى من تاريخ الجريمة، والخلق الإبداعى. والحضارة، لابد أن نوجز كل ما عرضناه فيما سبق.

منذ ظهور البشر على الأرض من ملايين كثيرة من السنين، أصبحوا أعظم كائن سار على أديم الأرض. وبلا إمكانيات من التى توفرت للكائنات الأخرى

الضارية المفترسة، تعلم كيف يبقى حياً باستخدام ذكائه. وبالرغم من ذلك فإن تيار تطوره من إنسان «رامابيثيكوس» ثم عبر إنسان «استرالوبيثيكوس» و«الهوموهابيليس» كان مثل تيار النهر العريض المتعرج. تطور البشر لأنهم تعلموا استعمال الأسلحة والأدوات؛ إلا أن ذلك التطور الذى استغرق ملايين السنين كان بطيئاً لأنه لم يكن قد تعلم بعد استعمال أهم وأعظم أدواته، وهو مخه.

مع تطور البشر إلى الإنسان منتصب القامة، انحدر نهر التطور مندفعا إلى وادٍ وأصبح تياراً سريع التدفق. وبعد مليون ونصف من الأعوام - وهو المدى الزمنى الذى يصل بنا بالمفهوم الجيولوجى حتى القرن العشرين - ظهر إنسان نياندرتال وإنسان الكرومانيون فى أوربا، وبظهورهم أصبح نهر التطور وكأنه قد دخل إلى منحدر ضيق فتحول إلى سيل مندفع جارف، ثم ازداد معدل التسارع حين تعلم البشر الزراعة. ومع بناء المدن، ضاق المنحدر التطورى أكثر وتحول إلى شلالات خطرة فى تسارعها.

قد يبدو من الصعب أن نتخيل أن معدلات التطور كانت بنفس سرعة التدفق، إلا أن ذلك هو ما حدث بالفعل فى وقت ما بين ظهور المدن وبين حضارة كريت القديمة وحضارة مسينيا. خلق الخطر الكبير الناجم من اندفاع شلال التطور مستوى جديد من التنبه والوعى والإدراك وكذلك من التصميم. تدفق شلال التطور هادراً بسرعة قصوى بين جدران ومسارات ضيقة من التطور، أصبح الإنسان مجبراً عندها على التركيز كما لم يركز من قبل، كافحت الأجساد فى مياه التطور المتدفقة الهادرة؛ وتطاير الحطام من حولهم؛ إلا أن الضجيج والبهجة المصاحبة للتطور ابتلعت صرخات الغرقى.

تحولوا إلى بشر يقود كل منهم طوف بقائه ممسكاً به بأسنانه وفكيه وكل حواسه متحفزة للحدود القصوى من الصراع ليس لديه وقت للعواطف. وحين طور العزيمة والإرادة، طور معهما القسوة، وأصبح ضيق الحواس ومحدوديتها عادة - حتى إنه كلما وجد نفسه فى منطقة أهدأ فى سياق شلال التطور، منطقة محمية بكتف جبل أو صخرة تحميه من التيار الدافق، تنتابه الحيرة ولا يعرف

كيف يرتخى أو يتمتع بهدوء نسبى.

ويفسر ذلك كيف كف البشر أن يكونوا ذلك الكائن النباتى المستكين الهادئ الذى وصفه كل من «ليكى» و«فروم». إلا أن ذلك الكائن لم يعد لديه ما يدعوه إلى حسد تلك الحيوانات النباتية الوادعة التى مازالت تسعى فى قطعان بلا هدف عدا مضغ الحشائش على ضفاف الأنهار والمراعى، لأنه طور قدرات تتفوق على أغلب المخاطر، وعلى كل البؤس والعنف.

حين تعلم الجنس البشرى استعمال عقله، جعلت منه قدرته على إدارة دفة أموره أول مبدع حقيقى وأول مخلوق مخترع. لقد دفعه ذلك التيار المندفع الضيق من التطور إلى الاكتشاف والريادة وسبر غور الظواهر والأشياء التى تعترضه. إلا أن شدة اندفاع تلك القوة العقلية كانت تعنى أيضاً أنه كلما أغلقت أمامها السبل أو اعترضتها عوائق ـ أو كلما افتقد البشر الانضباط الذاتى للسيطرة عليها ـ لا ينتج عنها إلا الدمار والفوضى. الجريمة هى الوجه الآخر للإبداع والخلق. وعبر كل التاريخ البشرى، انتهى الطغاة ـ من سيناشيريب حتى هتلر ـ بتدمير أنفسهم، فميلهم إلى العنف يجعلهم سيئى القيادة. لقد سادت الجريمة حقاً التاريخ البشرى بأجمعه. ولكن، كما سنرى فى الجزء الثانى، فإن القادة البارعين (فى مختلف المجالات) هم الذين لعبوا الدور الأعظم فى قصة البشرية.

الصفحة


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET